

المكتبة التاريخية

مقدمات

العدوان الصليبي على الشرق العربي

الإمبراطور يوحنا تيمسكس وسياسة الشرق

٩٦٩ - ٩٧٦ م

دكتور عمر كمال توفيق

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

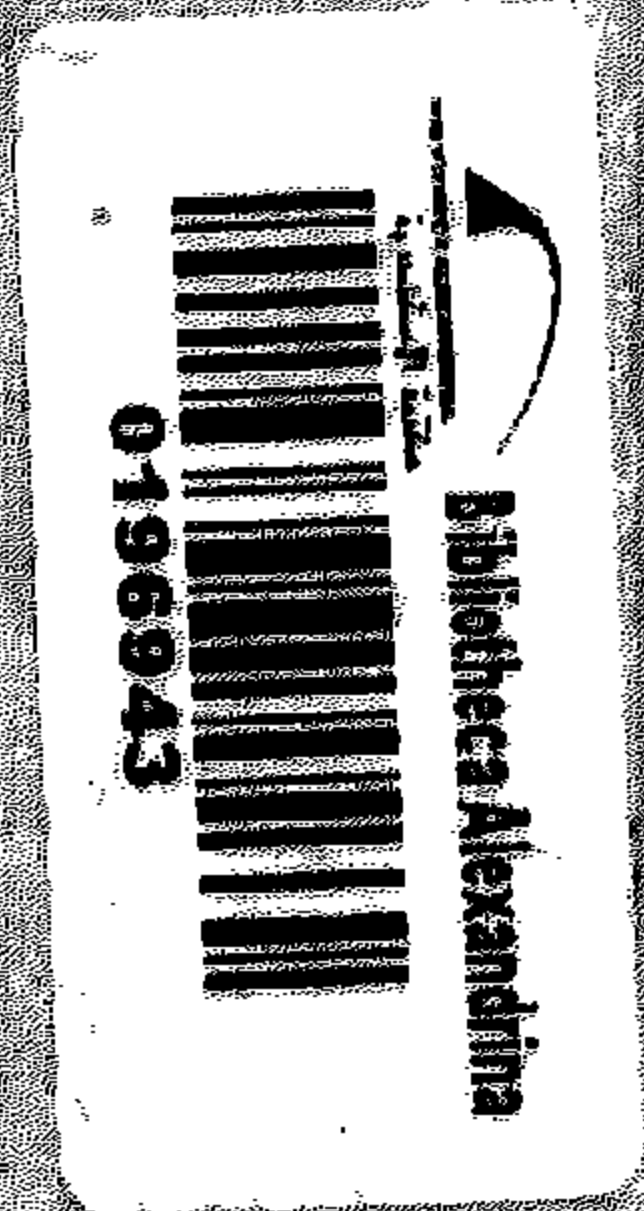
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

١٩٦٧



دار المعارف



مقدمات

العدوان الصليبي على الشرق العربي

الإمبراطور يوحنا نزيحس وسياسة الشرق

(٩٦٩ - ٩٧٦ م)

دكتور عمر كمال توفيق

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الثانية

١٩٦٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إن هذه تذكرة فمن شاء إتخذ إلى ربه سبيلا »

« للزمل ، ١٩ »

مقدمة الطبعة الثانية

بعد شهور قليلة من إصدار الطبعة الأولى من هذا الكتاب وما قابله به القارئ العربي الكريم من إهتمام ، نفذت كافة أعداد تلك الطبعة . وقد طلب مني إصدار طبعة ثانية لسد احتياجات الراغبين في الاطلاع على الكتاب .

وكان مما دفعني على المبادرة بإعداد الطبعة الثانية ، طبيعة موضوع هذا الكتاب من ناحية ، وتلك المرحلة الدقيقة التي يمر بها وطننا العربي العزيز من ناحية أخرى بعد العدوان الناشم الأخير . ففي حين أن الكتاب ينحصر حقبة هامة في تاريخ العصور الوسطى ، فإنه في نفس الوقت عبارة عن دراسة تحليلية دقيقة لمقدمات العدوان الصليبي وبداية الحركة الاستعمارية الأوروبية في الشرق العربي . وأرجو أن يجد القارئ في تجاربنا السابقة عبرة وعظة تساعدنا على مواجهة مشاكلنا الحالية والتغلب على تربص العدو بنا .

وسيلس القارئ في هذه الطبعة الجديدة عدة تغيرات على شكل تنقيح بعض الأجزاء وإضافات جديدة . والله أسأله السداد ما

المؤلف

سبتمبر ١٩٦٧

مقدمة الطبعة الأولى

كانت منطقة الشرق الأدنى الاسلامى العربى هدفا للأطماع الأوربية فى مختلف العصور . فقد تعرضت لمحاولات عديدة قام بها الأوربيون لإخضاعها واستعمارها فى العصور القديمة والوسطى والحديثة . وكانت الظاهرة الرئيسية للعدوان الأوربى على هذه المنطقة فى العصور الوسطى ، هى الحركة الصليبية . وفى تتبع دراسة هذه الحركة ، أهتم غالبية المؤرخين المحدثين بالدور الذى قامت به شعوب غرب أوربا تحت زمامة وتوجيه البابوية ، لاسترجاع الأراضى المقدسة من أيدي المسلمين ، ولهم فى ذلك دراسات مستفيضة .

وقد بدأ بعض المؤرخين المحدثين يتنبهون لأهمية عدوان البيزنطيين - أو الروم على حد تعريف العرب لهم - على المنطقة المذكورة ، فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر الميلاديين . وترجع أهمية هذا العدوان لسببين أساسيين . والأول ، وهو أن الامبراطورية بعد أن ظلت مضطربة لإلتزام الدفاع عن كيائها ضد المسلمين لمدة حوالى ثلاثة قرون ، أخذت تعمل على إعادة فرض نفوذها على الشرق . ويمثل الهجوم البيزنطى فى المرحلة المذكورة ذروة الخطر البيزنطى بالنسبة للمسلمين فى الشرق الأدنى . والسبب الآخر ، ويرجع إلى الخصائص الدينية التى ظهرت أثناء الحملات التى قام بها بعض الأباطرة البيزنطيين حينئذ . وقد جعل ذلك عدداً من كبار المؤرخين ينظرون اليها على أنها من نوع الحملات الصليبية اللاتينية ولها نفس الطبيعة وإستهدفت نفس الأغراض ، فضلاً عن أنها سبقتها زمنياً . وقد أدى ذلك كله ، إلى اعتبار هذه الحملات البيزنطية بمثابة

مقدمات للعدوان الأوربي الصليبي على المنطقة المذكورة . وجدير بالذكر أن هذا الموضوع لم يحظ باهتمام المؤرخين بشكل كاف إلى الآن ، ولم تظهر فيه بعد دراسات وافية قائمة بذاتها سواء في الشرق أو الغرب .

ونقدم هنا دراسة تحليلية للدور الذي أسهم به يوحنا تزيمسكس ، وهو أحد الأباطرة الذين وجهوا هذا العدوان الصليبي البيزنطي إلى الشرق الأدنى ، هادفين أثناءه استرجاع الأراضي المقدسة . وقد عنيينا في هذه الدراسة بأن نوضح ما أحاط بسياسة يوحنا تزيمسكس الشرقية من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وعوامل دينية ، مع الاهتمام بمقارنة حملاته على الشرق بالحملات الصليبية اللاتينية ، وبيان أوجه الشبه والاختلاف بينها .

وتطلبت هذه الدراسة أن أخصص الفصل الأول منها لبيان حالة الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي ، مع الاهتمام بتتبع مواطن القوة فيها ، الأمر الذي جعل من الممكن للامبراطور تزيمسكس وغيره من أبائره هذا العصر ، القيام بحملاتهم على الشرق الأدنى . وكان مما عنيينا به عناية خاصة في هذا الصدد النظم الإدارية بالامبراطورية وكذلك الجيش حيث أنه كان الأداة الرئيسية التي اعتمد عليها تزيمسكس في تنفيذ سياسته الخارجية .

وتناولنا في الفصل الثاني أصل الامبراطور تزيمسكس وحياته ونشاطه قبل اعتلاء العرش . ثم تعرضنا للظروف التي حصل فيها على العرش الامبراطوري . واتبعنا ذلك بتوضيح أهم خصائص سياسته الداخلية الخارجية . ومما أوليناه عناية خاصة علاقته مع رجال الدين بدولته .

أما الفصل الثالث ، فعالجنا فيه أحوال المسلمين في الشرق الأدنى في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) وبشكل خاص المرحلة التي سبقت هجوم تزييمسكس . والواقع أن الباحثين في هذا المجال لا تزال تواجههم عدة مشاكل في تفهم طبيعة أوضاع المسلمين السيامية وما مروا به من أحداث تاريخية . وحاولنا أن نعطي صورة دقيقة للقوى العياضية الإسلامية المتصارعة . ومما أهتممنا ببيانها ، نشاط جماعات «الأحداث» و«العارين» وتأثيرهم على مجرى الحوادث السياسية .

وخصصنا الفصل الرابع لتحليل العوامل التي أدت إلى قيام الهجوم البيزنطي على الشرق الأدنى في عهد تزييمسكس ، وتتبعنا في ذلك العوامل الدنيوية والدوافع الدينية . هذا ، وأولينا عناية خاصة لتوضيح موقف كنيسة القسطنطينية من فكرة الحرب المقدسة ، وتحليل أسباب موقفها السلبي منها .

ثم عالجنا في الفصل الخامس موقف تزييمسكس من الشرق الأدنى في المرحلة الأولى من حكمه قبل أن يقوم بحملاته الرئيسية ، واهتمامه حينئذ بالاحتفاظ بالمراكز الأممية البيزنطية هناك لاستعمالها كنقطة ارتكاز للحملات التي قام بها كما بيننا خطورة الدور الذي قامت به قبائل بني حبيب العربية التي كانت من المحالفين الذين عملوا في خدمة البيزنطيين ضد المسلمين .

أما الفصل السادس فقد خصصناه لدراسة حملات تزييمسكس على العراق . واستندى ذلك النظر في المشاكل التي تحيط بتاريخ هذه الحملات بسبب اختلاف المؤرخين المعاصرين من عرب وبيزنطيين وأرمن في تحديد عددها وترتيبها وانجازاتها ، الأمر الذي أدى إلى تضارب آراء المؤرخين المحدثين .

وانتهينا في ذلك إلى آراء أوضحناها في مواضعها الخاصة . كما غنينا ببيان طبيعة رد الفعل الاسلامي الذي حدث نتيجة للحملات البيزنطية على العراق .

وكان الفصل السابع والأخير ، خاصاً بدراسة الحملة الكبيرة التي قام بها تزييمسكس على الشام . وتبعنا في هــ هذا الفصل خط سير الحملة ، والظروف التي تقدمت فيها ، وأهم ما حققته ، ومن ذلك الاتفاقية بين حكام دمشق والبيزنطيين . كما تعرضنا للمشكلة التي لازالت موضع إختلاف المؤرخين إلى الآن ، وهي الخاصة بتحديد مدى تقدم الامبراطور تزييمسكس في الأراضي الفلسطينية وأنهينا هــ هذا الفصل بتقدير نتائج تدخل تزييمسكس في الشام والشرق الأدنى الاسلامي بصفة عامة .

هذا وأوردنا في آخر الكتاب عدداً من الملاحق . والقسم الأول منها ، ويتكون من وثائق ونصوص لها أهميتها في هذه الدراسة بصفة خاصة ، ودراسة العلاقات بين أوروبا المسيحية والشرق الأدنى الاسلامي بصفة عامة . ومن أهم ملاحق هذا القسم رسالة الامبراطور تزييمسكس للملك الأرميني أشوط الثالث ، بعد أن أعدنا ترجمة عربية كاملة لها . وهذه الرسالة تعتبر من أهم مصادر دراسة موضوع العدوان الصليبي البيزنطي على الشرق . ويشمل القسم الثاني من الملاحق دراسات وتحقيقات متنوعة . ومما جاء فيه تحقيق إسم « إقليم أقور » الذي أطلقه بعض الكتاب المعاصرين العرب على إقليم الجزيرة في شمال العراق . كما قدمنا تحقيقاً لبعض الألقاب البيزنطية التي جاء ذكرها في المصادر العربية المعاصرة مثل الزراورة والطراخنة والطراخنة ، وبيننا الأسماء التي عرفت بها في الامبراطورية البيزنطية والمسؤوليات التي اضطلع بها من حمل هذه الألقاب .

وإلى جانب الاعتماد على المصادر التاريخية المختلفة ، من عربية وغير عربية المتعلقة بهذه الدراسة ، أستعنا بما كتبه الرحالة والجغرافيون وخاصة المعاصرون منهم ، لتصوير حالة بلاد الشرق الأدنى وأهميتها وقت حملات تزييمسكس . والواقع أن بعض هذه الكتب الجغرافية ، أمدنا بمعلومات قيمة مفيدة . وفضلاً عن ذلك فقد حرصنا عند ذكر التواريخ الهجرية الهامة ، أن نضع ما يقابلها من التواريخ الميلادية ، لتسهيل المهمة بالنسبة للدارسين والباحثين في تاريخ هذه الحقبة من العصور الوسطى بشرطها الاسلامى والأوروبى .

وأرى أن مما يقتضيه الواجب ، أن أسجل فى هذا المقام شكرى وإمتنانى للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ السابق بجامعة القاهرة ، والاستاذ جمال الدين الشيال أستاذ التاريخ الاسلامى وعميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية . فقد كان الدكتور محمد مصطفى زيادة هو الذى أقترح على موضوع البحث الذى أقدمه هنا ، كما تفضل وزودنى بنصائحى العلمية المفيدة للتغلب على عدد من الصعاب التى واجهتها . وكان الدكتور جمال الدين الشيال كريماً عندما رجعت اليه لاستشارته فى عدد من المشاكل الدقيقة التى قابلتها أثناء كتابة الفصل الثالث من الكتاب وهو « الشرق الأدنى الاسلامى قبيل هجوم تزييمسكس . » ولم يرضن على سيادته بالنصح وحسن التوجيه .

ولعل هذه الدراسة التى نضيفها إلى المكتبة العربية تكون عرة بعظة وذات فائدة للامة الاسلامية العربية ، وهى تواجه اليوم المحاولات الاخيرة التى يبذلها المستعمر الاجنبى للنيل من وطنها . فإن تفسر كلة الاسلام

والعروبة والانصراف عن الصالح العام إلى المصالح الخاصة ، هو الذى يمكن
البيزنطيين والصليبيين اللاتين من بعدهم ، من وطننا فى العصور الوسطى .
والواجب على كل أمة أن تستفيد من تجاربها وأخطائها فى الماضى لتتجنبها
فى حاضرها ومستقبلها . وما أحوج الامة العربية اليوم لوحدة الصف
والتكاتف تحت القيادة الرشيدة ، لتسطيع أن تواجه بقوة ونجاح ما يحيق
بها من أخطار . وقد جاء فى الكتاب الكريم : « ان هذه تذكرة فمن شاء
اتخذ إلى ربه سبيلا » .

همر كمال توفيق

رمل الاسكندرية

أكتوبر ١٩٦٦

المحتوى

ص	ص
٥ - ١	تمهيد :
٢١ - ٧	الفصل الأول : نهضة الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادى
٤٩ - ٢٣	الفصل الثانى : عهد الامبراطور تزييمسكس
٩٣ - ٥١	الفصل الثالث : الشرق الأدنى الاسلامى قبيل هجوم تزييمسكس
١٠٩ - ٩٥	الفصل الرابع : العوامل التى أدت إلى الهجوم البيزنطى على الشرق الأدنى الاسلامى فى عهد تزييمسكس
١١٩ - ١١١	الفصل الخامس : تزييمسكس والشرق الأدنى الاسلامى فى المرحلة الأولى من عهده
١٥٢ - ١٢١	الفصل السادس : حملات تزييمسكس على شمال العراق (٩٧٢ - ٩٧٤ م)
١٧٣ - ١٥٣	الفصل السابع : حملة تزييمسكس على الشام (٩٧٥ م)
	ملاحق :

١ - نصوص ووثائق :

١٨٦ - ١٧٢	الملحق الأول : رسالة الامبراطور يوحنا تزييمسكس إلى آشوط الثالث
١٩٠ - ١٨٧	الملحق الثانى : وثيقة بشأن فرض قيود على التجارة بين البنادقة والمسلمين

الملحق الثالث : خطبة في الجهاد لابن نباتة ١٩١ - ١٩٤

الملحق الرابع : القصيدة « الفريدة الاسلامية » ١٩٥ - ٢٠٠

الملحق الخامس : رسالة الخليفة المطيع إلى ركن الدولة البويهى ٢٠١ - ٢١٠

ب - دراسات وثائق متنوعة : ٢١١ - ٢١٧

الملحق السادس : تحقيق سنة تغلب تزييمسكس على الروس

الملحق السابع : تحقيق اسم « اقليم أقور »

الملحق الثامن : الزراور والزراورة

الملحق التاسع : الطراخنة

الملحق العاشر تحقيق رواية متى الرهوى عن « أميرة آمد الحمدانية »

الملحق الحادى عشر : تحقيق اسم مدينة بلنياس

المصادر والمراجع : ٢١٩ ٢٣٦

خـرائط : ٢٣٧ ٢٣٨

تمهيد

قبل أن يبشر البابا أوربان الثاني بالحروب الصليبية في مجلس كليرمونت ويدعو لها في غرب أوروبا بأكثر من مائة عام ، قامت الامبراطورية البيزنطية بهجوم كبير ضد المسلمين في الشرق الأدنى حاولت أثناءه استرجاع الأراضي المسيحية المقدسة، وحققت في ذلك نتائجاً لها قدرها من الأهمية . وقد كان لهذا الهجوم من الخصائص المميزة ما جعل بعض المؤرخين المحدثين ينظرون إليه على أنه مرحلة مبكرة من العدوان الصليبي الأوربي سبقت تلك الحروب الصليبية التي قام بها غرب أوروبا . ويقول المؤرخ الفرنسي رامبو عن حروب الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩ م) ضد المسلمين في الشرق أنه : « بدأ بأعماله هذه عصر الحروب الصليبية بالنسبة للشرق والغرب على حد سواء ، أي بالنسبة للهليينستيين والفرنجة » .^(١) وقد أسهم الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣-٩٦٩) بدور له أهميته في تنفيذ هذه السياسة البيزنطية .^(٢)

وكان من أبرز الأباطرة البيزنطيين الذين لعبوا دوراً كبيراً في هذا المضمار يوحنا تزيمنسكس John Tzimiscès (٩٦٩ - ٩٧٦ م) . ولقد لفتت جهوده في محاربة المسلمين ، ورغبته الأكيدة في استرجاع الأراضي المسيحية المقدسة ، والمشاعر الدينية التي ظهرت أثناء حملاته الشرقية ، أنظار بعض كبار المؤرخين المحدثين الذين اعتبروا هذا الامبراطور رائداً من الرواد الأول للحركة الصليبية التي قامت أساسياً بغرض استرجاع الأراضي المقدسة . ومن أول هؤلاء المؤرخين مؤرخ الحروب الصليبية المعروف جروسيه الذي

(1) Rambaud, L. Empire Grec aux dixième siècle : Constantin Porphyrogénètes (Paris, 1870) 436.

٢ - أنظر للدولف ، الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الأراضي المقدسة (الاسكندرية ، ١٩٥٩) .

أطلق على حمليات تزييمسكس ضد المسلمين في الشرق عنوان «الحروب الصليبية البيزنطية في عهد يوحنا تزييمسكس»^(٣).

أما فاسيليف فقد قال: «ان هذا الامبراطور لكي يحقق هدفه النهائي ألا وهو تحرير بيت المقدس من أيدي المسلمين، قام بحرب صليبية حقيقية»^(٤). هذا ويتحدث أستر وجورسكي عن وجود «روح صليبية حقيقية» في الحملة التي قام بها تزييمسكس على الشام^(٥). وقد أضاف رالنمان إلى هذه الآراء رأيه القائل بأن حروب تزييمسكس المذكورة ترقى إلى مرتبة الحروب الدينية^(٦).

ومهما يكن من شيء فإن هذه النثرة إلى المهجوم الذي قامت به الامبراطورية البيزنطية والذي هدفت أثناءه لإسترجاع الأراضي المسيحية المقدسة، على أنه من نوع الحروب الصليبية الغربية، لم يكن أمراً قاصراً على المؤرخين المحدثين. فان وليام الصوري، اللاتيني مؤرخ القرن الثاني عشر الميلادي، عندما دون تاريخه عن الحركة الصليبية ومملكة بيت المقدس اللاتينية، قد ابتدأ كتابه بتاريخ الأراضي المسيحية المقدسة منذ القرن السابع الميلادي ذاكراً صراع هرقل ضد الفرس والدور الذي قام به لإسترجاع الصليب المقدس ومدينة بيت المقدس^(٧). كما اعترف هذا المؤرخ بالدور الذي قام به بعض الأباطرة البيزنطيين الآخرين من أجل المسيحية في الأراضي المقدسة

(3) Grousset, Histoire des croisades (Paris, 1934) vol. 1 pp. XVI — XX.

(4) Vasiliev, History of the Byzantine Empire (Madison, 1951), p. 310.

(5) Ostrogorsky, History of the Byzantine State (Oxford, 1956 Eng. trans. Hussey) p. 263.

(6) Runciman, A History of the Crusades (Cambridge, 1951) vol. I, p. 32.

(7) William of Tyre, History of Deeds Done Beyond the Sea (Eng. trans. Babcock & Krey) vol. I, p. 60.

في فترات تالية مثل الامبراطور رومانوس الثالث وقسطنطين التاسع في النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .^(٨)

ومن الضرورى أن نشير في هذا المقام للاختلاف الكبير بين ما أصبح يعرف باسم الحروب الصليبية البيزنطية ، التى لعب تيمسكس دوره الهام فيها ، والحروب الصليبية التى قامت بها العناصر اللاتينية في أخريات القرن الحادى عشر الميلادى . ويرجع هذا الاختلاف إلى موقف كل من كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية وروما الكاثوليكية من هذه الحروب وتلك . ففي المجتمع الاوروبى اللاتينى كانت الكنيسة الكاثوليكية وعلى رأسها البابوية هى المسئولة عن قيام فكرة الحركة الصليبية وتنفيذها والإشراف عليها ، الأمر الذى جعل المؤرخين ينظرون إلى الحروب الصليبية على أنها سياسة خارجية ثابوية . فبالرغم من أن الدين المسيحى فى أصله كان دين سلام ، ونصت تعاليمه الأولى على أن الحروب ما هى الا مذابح عامة تزهق فيها الأرواح البشرية، الأمر الذى حرّمه الرب ولم يرض عنه الآباء الأول للكنيسة المسيحية ، فقد تغير موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة لمبدأ القتال على مر السنين . ووافقت هذه الكنيسة على مبدأ القتال على شريطة أن يكون لخدمتها وخدمة المسيحية . وقد حدث هذا التطور فى موقف الكاثوليك على أثر قيام دول مسيحية فى أوروبا وضرورة الدفاع عنها ضد غير المسيحيين . بل لقد أخذ البابوات يشجعون الناس على الاشتراك فى الحروب الدينية التى بشروا بها ومنحوا من يشترك فيها امتيازات روحية ومادية . فمنذ منتصف

٨ — المرجع السابق ج ١ ص ٦٠ ، ص ٦٩ — ص ٧١ . والملاحظ أن وليام الصورى لم يذكر فى تاريخه الدور الذى قام به كل من نقفور فوقاس ويوحنا تيمسكس فى التوسع فى الشرق وما حققاه من انتصارات جعلت البيزنطيين يطالبون بحق حكم ما استقر فى أيديهم من البلاد الشامية . والظاهر أن هذا للمؤرخ تعتمد أن يتجاهل هذه المسألة على أثر تمسك البيزنطيين بهذا اللطاب بعد وصول الصليبيين الغربيين إلى الشرق وتأسيسهم للمملكة الصليبية وما قام من صراع بين البيزنطيين والصليبيين حول السيطرة على هذه البلاد .

القرن التاسع الميلادي ، صرح البابا ليو الرابع بان من يموت أثناء الدفاع عن الكنيسة سوف ينال ثوابا من الرب . وبعده ببضع سنوات أعلن البابا يوحنا الثامن أن من يموت في الحرب المقدسة يرقى إلى رتبة الشهداء .
اوتطور أمر الحرب المقدسة في غرب أوروبا وأخذت البابوية توجهها لمحاربة المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية .^(٩) وما لبثت ان وجهت البابوية الحرب المقدسة إلى الشرق لنصرة المسيحية هناك واسترجاع الاراضى المسيحية المقدسة من أيدي المسلمين . وهذه المرحلة الأخيرة من الحرب المقدسة هي التي عرفت باسم الحروب الصليبية بمعناها الدقيق .

أما الكنيسة الأرثوذكسية وعلى رأسها بطريرك القسطنطينية ، فقد وقفت موقفا يختلف تماما عن موقف الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة لـكرة القتال ومبدأ الحرب المقدسة . فان الكنيسة الأرثوذكسية تمسكت بنص الدين المسيحي وتعاليم السيد المسيح التي حرمت القتال ، ورفضت هذه الكنيسة السماح بالحرب حتى ولو كان ذلك من أجل الوطن المسيحي ضد أعدائه من غير المسيحيين . وهي بطبيعة الحال لم توافق على منح أى ثواب لمن يشترك أو يموت في هذه الحرب . بل أن القديس باسيل St. Basil الذي يعد من أكبر واضعى القوانين الكنسية في الشرق ، في حين أنه اعترف أن من واجب الجندي أن يطيع أوامر المسئولين ويشترك في القتال ، فإنه نص على أن المحارب الذى يقتل نفسا بشرية أثناء الحرب ، يتحتم عليه أن يمتنع عن حضور القداس لمدة ثلاث سنوات ، وذلك كنوع من العقاب الروحي يفرض عليه للتكفير عما أتاه معتبرا ذلك ذنبا يجب التكفير عنه^(١٠) . وكان من الطبيعي أن يؤثر هذا الموقف الذى اتخذته الكنيسة من القتال على الرأي العام البيزنطى ، حتى يبدو أن مهنة الجندي والتفوق

(9) Villey, La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie Juridique (Paris, 1942) p. 71.

(10) St. Basil, Letter no 188, in M.P.G. vol. XXXII, col. 681:

فيها لم تكن بالأمر الذي يكسب صاحبه الفخر والمجد بنفس الدرجة التي وجدت في أوروبا اللاتينية . وأن الأميرة البيزنطية أنا كومنيننا Anna Comnena ابنة الامبراطور الكسيوس كومنين ، والتي تعتبر بحق نموذجاً حسناً للطابع والعقلية البيزنطية المستنيرة ، حقيقة أنها أبدت اهتمامها بالأمور العسكرية كما سجلت تقديرها لانتصارات أبيها في الحروب، وذلك في التاريخ الذي صنفته والذي يعرف باسم الألكسياد . إلا أن هذه الأميرة اعتبرت الحرب أمراً مخزياً ، ويجب ألا يلجأ إليه الحاكم إلا كآخر وسيلة بعد فشل كافة الوسائل السلمية ، كما قالت بأن اللجوء إلى الحرب هو في حد ذاته اعتراف بالفشل في إدارة الشؤون السياسية للدولة (١١) :

وهكذا استمرت الكنيسة البيزنطية في موقفها بالنسبة للقتال حتى العقد السابع من القرن العاشر الميلادي ، عندما ظهرت في الامبراطورية البيزنطية لأول مرة بوضوح فكرة استرجاع الأراضي المسيحية المقدسة، والشعور بأن القيام بالقتال لتحقيق ذلك عمل يستحق الثواب الديني . وكان ذلك بالذات في عهد كل من نقفور فوقاس ويوحنا تيمسكس . وبالرغم من ذلك فلم تغير هذه الكنيسة من موقفها المعارض . وهكذا فإن الباحث عن المدخل لدراسة الحروب الصليبية البيزنطية لا يجد في سياسة خارجية حاولت تنفيذها الكنيسة البيزنطية ، على النحو الذي حدث في أوروبا اللاتينية حيث كانت البابوية هي القوة الدافعة المسؤولة عن قيام الحركة الصليبية اللاتينية . وإنما يقيم المدخل الحقيقي لدراسة الحروب الصليبية البيزنطية وما قام به تيمسكس من جهود لاسترجاع بيت المقدس ، في التطور الكبير الذي حدث في الامبراطورية البيزنطية نفسها على أثر اعتلاء الأسرة المقدونية العرش والنهضة الكبرى التي حققتها في القرن العاشر الميلادي .

(11) G. Buckler, Anna Comnena (Oxford 1929) pp. 97 - 9.

الفصل الاول

نهضة الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى

اقامة حكومة مركزية قوية - اعادة تنظيم الاجناد « الثيمات » -
الجيش البيزنطى - التقدم الفكرى - اهم مظاهر التوسع الخارجى

أعلنت الإسرة المقدونية عرش بيزنطة سنة ٨٦٧ م وأمتد حكمها حتى سنة ١٠٥٦ م . وتعتبر المرحلة الاولى من حكمها وهى نحو قرن ونصف قرن ، من سنة ٨٦٧ حتى سنة ١٠٢٥ م ، ألمع فترة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية السياسى والحضارى حتى لقد أطلق عليها المؤرخون اسم « العصر الذهبى » للامبراطورية البيزنطية . وهكذا كانت هذه الامبراطورية تعيش فى القرن العاشر الميلادى والرابع الأول من القرن الحادى عشر فى عصر نهضة قوية . وحيث أن هذه النهضة كانت الأساس الذى بنى عليه تزعيمكس أعماله وقام بهجومه على المسلمين فى الشرق محاولا استرجاع الأراضى المسيحية المقدسة ، فمن الواجب أن نتعرض لأهم مقومات هذه النهضة وأبعادها .

ويرجع جزء كبير من الفضل فى قيام هذه النهضة وتحقيق قوة الامبراطورية فى هذه المرحلة إلى الأباطرة الذين حكموا خلالها . فقد كانوا على قدر كبير من الكفاءة كما كانوا فى مجموعهم ذوى خبرة فى الأمور السياسية والإدارية فضلا عن كونهم من المحاربين المرموقين . وكانت نفوسهم نازعه لتحقيق عظمة الامبراطورية . وقد ثابروا فى جهودهم وساعدت أعمالهم الداخلية وسياستهم الخارجية على تدعيم قوتها وتقاسم حضارتها وامتداد نفوذها خارجيا .

ومن أهم ما حققوه فى الداخل كان نمو وانتشار الولاء للإسرة المقدونية

الحاكمية التي أصبح البيزنطيون ينظرون إليها على أنها الأسرة صاحبة الحق الشرعى لحكم البلاد . وكان هذا تجديدا سميذا فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، كما كانت له نتائج الطيبة فى إيجاد استقرار نسبي ، بعد أن طانت الامبراطورية الكثير من الفوضى التي قامت بسبب الثورات والانقلابات الداخلية . وإذا كانت قد وجدت أثناء العهد المقدونى حالات محدودة أغتصب السلطة فيها بعض الأباطرة الدخلاء ، فإنه لم يجرؤ أحد منهم على أن يستبعد من العرش سلالة باسيل الأول مؤسس الأسر المقدونية الحاكمة . وأن رومانوس ليكاپينوس Romanus Lecapenus قد حكم رسميا بالاشتراك مع قسطنطين السابع ، ولو أنه فى حقيقة الأمر قد شغله عن ممارسة السلطة الفعلية بتشجيعه على الاشتغال فى الدراسة وتحصيل العلم أما نقفور فوفاس ويوحنا تزييمسكس فقد سمحا لمثل البيت المقدونى ليكونوا حكاما اسميين ، فى الوقت الذى حاولا فيه أن يضيفا على حكميهما صبغة شرعية بالزواج من أميرات من البيت المقدونى ومما يدل على مدى ثبات حكم هذه الأسرة أنه أصبح من الممكن للنساء أن يرثن العرش ويحكمن الامبراطورية على نحو ما حدث فى عهد زوى Zoo وثيودورا Theodora (١) .

وعهد أباطرة هذا العهد إلى القبض بيد قوية على زمام الأمور وإقامة حكومة قوية ذات نظم واضحة ولم يسمحوا لأية حركات انفصالية أن تهدد سلطتهم المركزية . وقد استفادت الامبراطورية الكثير من وحدة قيادتها واتجاهاتها . وكانت فى خدمة الامبراطور هيئة من الإداريين المدربين تدريباً حسناً عملوا فى ظل نظام مركزى دقيق . وفى العاصمة كان الوزراء الذين أحاطوا بالامبراطور والذين كانوا يرأسون الإدارات المختلفة ، بدرسونه ويدبرون الشؤون العليا للدولة وينقلون مشيئة سيدهم الأعلى - الامبراطور - إلى كافة أنحاء

(1) Enslin, « The Emperor & Imperial Administration » Byzantium (ed. Baynes & Moss, Oxford, 1953), p. 271.

الدولة. وكان يعمل تحت امرة الوزراء عدد كبير من الإدارات المصلحية حيث كانت تدرس الشؤون العامة بكافة تفاصيلها وتتخذ القرارات فيها . وقد حكمت الأمبراطورية البيزنطية مثل روماني العصور السابقة بواسطة نظام بيروقراطي قوى. وعمد الأباطرة المقدونيون لتعزيز نظمهم الادارية وسياستهم الداخلية عامة بأعمال تشريعية عظيمة : وفي عمل ذلك ، رجعوا إلى المجموعة القانونية الكبرى التي جمعتها الامبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي، ووفقوا بينها وبين الظروف الجديدة التي طرأت على الامبراطورية في عصرهم. فقد أُصدر باسيل الاول المجموعة القانونية الأولى التي ظهرت في عهد الأسرة المقدونية ، وهي التي تعرف باسم Procheiros Nomos . ثم نسمع عن مجموعة أخرى تعرف باسم Epanagoglio . وكان الامبراطور ليو السادس هو الذي أُصدر المجموعة القانونية الكاملة والتي ظهرت باسم الباسيليكا Basilica التي أصبحت منذ ظهورها المرجع الأعلى للقانون البيزنطي^(٢).

هذا وقد بقي نظام « الثيمات » Themes - الذي عرفه العرب باسم الأجناد أو البنود^(٣) - هو الأساس في ادارة الولايات البيزنطية. وفي كل « ثيم » تركزت السلطة في يد « الاستراتيجوس » Strategos ، الذي كان يعينه الامبراطور ويسأل أمامه مباشرة . والملاحظ أن نظام « الثيمات » تعرض لبعض التطور أثناء العصر المقدوني . والباحث المتتبع لهذا النظام في هذا العصر يواجه مشكلتين رئيسيتين : الأولى وهي كثرة التغير في « الثيمات » وازدياد عددها. والمشكلة الأخرى هي قلة المادة التاريخية التي تركتها المصادر في هذا الموضوع. ومهما يكن من أمر ، فاننا نستطيع أن نحدد عاملين أساسيين أديا إلى ازدياد

(2) Runciman, Byzantine Civilization (London, 1936), p. 77.

٣ - أنظر المسعودي : فصل « ذكر بنود الروم وحدودها ومقاديرها » في كتابه التنبيه والأشراف (بغداد ، ١٩٢٨) ص ١٥٠ - ص ١٦ .

عدد «الثيرمات» . والعامل الأول ويرجع إلى سياسة الأباطرة أنفسهم . وذلك أن الأباطرة في هذا العصر لم يرضوا عن بقاء «الثيرمات» الكبيرة في أيدي حكامها خشية أن يستغل هؤلاء الحكام مالدسهم من إمكانيات محلية لناواة سلطة الامبراطور والخروج عليه أو لتهديد كيان الامبراطور نفسه . ولذا فنحن نجد الأباطرة يقسمون «الثيرمات» الكبرى إلى «ثيرمات» ذات حجم أصغر ، الأمر الذي نجم عنه ازدياد في عدد الثيرمات . والعامل الثاني الذي أدى إلى ازدياد عدد الثيرمات كان ما حدث من تحول بعض المناطق الإدارية العسكرية الأصغر حجما والواقعة على حدود الامبراطورية إلى «ثيرمات» هذا التحول الذي صاحب توسع الامبراطورية وازدياد مساحتها . ويمكن تعريف المناطق العسكرية التي تقل عن الثيرمات على النحو الآتي *clisurachies, archentates, duchies, catepanates; drungariales* . (4)

وكانت أهم هذه المناطق هي الوحدات التي تعرف باسم *clisurae* (مفردتها *clisura*) . (5) وهذه أصلا في اللغة اليونانية معناها الدرب أو الممر في الجبل . وقد أستعملت في العهد البيزنطي بمعنى الحصن الواقع على الحدود والمنطقة التي تحيط به ، ثم عم استعمالها بمعنى الولاية الصغيرة الواقعة على الحدود ، وعرف حاكمها باسم *clisurarch* وكانت سلطته أقل من سلطة الاستراتيجوس . والظاهر أنه لم يجمع في أول أمره بين السلطتين العسكرية والمدنية . والمعروف أن بعض الكلبيزورات تحولت إلى «ثيرمات» . مثل الحال في سلوقيه *Seleucia* وسباستيا *Sepastea* في آسيا الصغرى ، وكان ذلك على أثر ازدياد

٤ - للمؤرخ فرلوجا *Ferluga* دراسة ممتازة في موضوع هذه الوحدات العسكرية باللغة الروسية - أنظر : 4 note Ostrogorsky, p. 219;

٥ - ذكر ابراهيم العدوي أن العرب قد عرفوا وحدة الكلبيزورا باسم كبلرج ، ولكنه لم يحدد المصادر التي تؤيد رأيه . أنظر : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية (القاهرة ، ١٩٥١) ص ٧٠ .

أهميتها . والمعروف أيضا ان مع التوسع البيزنطى نحو الشرق الإسلامى ازدادت أهمية الثغور البيزنطية فى هذا الاتجاه ، وقد أنشأت الامبراطورية « ثيما » جديدا عرف باسم ثيم اقليم الجزيرة Mesopotamia .^(٦) وبصفة عامة نستطيع القول بأنه هناك ما يشير إلى أن الامبراطورية البيزنطية فى أواسط القرن العاشر الميلادى ، كانت تنقسم إداريا إلى ثلاثين « ثيما » ، ثمانى عشر فى آسيا وأثنا عشر فى أوروبا .^(٧)

وعنى أباطرة هذا العصر بشكل خاص بفنون القتال وتكوين وتدريب الجيوش البيزنطية التى اعتمدوا عليها لتحقيق سياسة التوسع الخارجى . وقد قال أحد أباطرة القرن العاشر الميلادى : « ان الجيش للدولة كالرأس للجسد ، إذا انتابه الضعف تعرضت الدولة للخطر »^(٨) . وقد أهتمت بيزنطة طوال العصور الوسطى بدراسة الفنون الاستراتيجية وأدوات القتال وتنظيم الجيش بعناية ودقة ، وخلفت لنا فى ذلك مؤلفات لها أهميتها ، دونها جماعة من المهتمين بالشئون العسكرية . وتساعدنا هذه المؤلفات فى تتبع المراحل الرئيسية فى تطور تاريخ الفنون العسكرية البيزنطية . وفيما يتعلق بالعصر المقدونى بالذات ، فقد ترك لنا الامبراطور ليو السادس (حوالى سنة ٩٠٠م) دراسة هامة تعرف باسم

٦ - نبدأ فى السماع عن وجود هذه « الجند » فى الفترة الواقعة بين سنة

٨٩٩ - ٩١٢ م . أنظر : : Ostrogorski, p. 220, n. 1.

(7) Vasiliev, Byz. Emp., p. 350.

وبشأن تطور نظام « الثيمات » فى هذا العصر أرجع كذلك إلى :

Bury, The Imperial Administrative System in the Ninth Century (London, 1911) pp. 146 - 47; Brooks, E. W. Arabic Lists of the Byzantine Themes. Journal of Hellenic Studies XXI (1901); Diehl, L' Originê du régime des themes dans l'Empire Byzantinê. (Etudes Byzantines. Paris, 1905).

(8) Lingenthal, Z., Jus Graeco Romanum, Novelle Constantino VII, III, p. 261.

Tactica أى فنون الحرب.^(٩) وهناك أيضا مصنفان آخران يرجعان إلى عهد
 ثقفور فوقاس يعرف أحدهما باسم « De Velitatione Belli »^(١٠) والآخر
 باسم « Liber de Re Militari » أى كتاب الشؤون العسكرية.^(١١) وقد أهتم
 هذا الكتاب الأخير بدراسة طرق غزو البلاد الأجنبية . وإن القواعد التى
 جاءت به تدل على الاهتمام بالتزام الدقة والحرص فى الهجوم على العدو كما تناول
 هذا الكتاب طرق حصار مدن وقلاع الأعداء باختلاف أنواعها وأبدى
 البيزنطيون مهارة فى صنع الأسلحة المختلفة وتخطيط القلاع وبنائها ، واستعمال
 النار الأغريقية فى الحروب والمجانيق الكبيرة فى أعمال الحصار والمجانيق الصغيرة
 فى قتال الميدان . وكانت هذه تمقل إلى ميادين القتال بمركبات خاصة تسهل حركتها .
 وكانت الجيوش البيزنطية تنقسم إلى قسمين : الأول وهو التاجماتا Tagmata
 وكان بمثابة قوة مركزية مركزها العاصمة وضواحيها ، والقسم الثانى ويعرف
 باسم « الثيماتا » Themata وهو جيوش « الأجناد » المختلفة وترتبط بها .
 وقد شمل القسم الأول فرق الفرسان الأربع : Scholas وهى التى اشتهرت
 باسم الاسكلارية ، والاكسكوبيتور Excubitor والأريشموس Arithmos
 والهيكاناتس Hikanates . وذاعت أهمية هذه الفرق منذ القرن التاسع
 الميلادى^(١٢) . وقد وجدت إلى جانبها فرقة المشاة التى تعرف باسم نوميرى
 Numeri . وهذه الفرق الخمس كانت تكون قوة الحرس الامبراطورى وتتألف
 الواحدة منها من نحو أربعة آلاف إلى عشرة آلاف مقاتل ويرأس كل منها
 ضابط كبير برتبة دمستق Domesticus . وأصبح قائد فرقة الاسكلارية
 القائد الأكبر للجيش فى القرن العاشر الميلادى . أما قوات « الثيماتا » أى
 جيوش الولايات ، فكان يرأس كل جيش منها الاستراتيجوس أى حاكم الولاية

(9) Tactica (in M.P.G.)

(10) Nicephorus Phocas, De Velitatione Belli (Printed with Leo
 Diocemus in Bonn Corpus.)

(11) Liber de Re Militari (Ed. Vari in Teubner series).

(12) Runciman Byz. Civil. n. 141

الذى كان يختار من الطبقة العسكرية . وكان جيش كل ولاية « ثيم » ينقسم بدوره إلى قسمين أو ثلاثة أقسام رئيسية يعرف كل منها باسم « تورما » Turma أو الكتيبة ، يقود كل منها قائد يعرف باسم Turmarch (١٣) .

وفضلاً عن ذلك كله فقد وجدت قوات أخرى خاصة للدفاع عن الحدود بما فيها من قلاع وأبراج وغير ذلك من التحصينات وهذه تعرف باسم قوة التخوم Acritai . وكان من الوحدات الإدارية العسكرية التى ظهرت فى أقاليم الحدود « الكليزورات » Gaballarii وبيأشرها القواد الذين يعرفون باسم « Gllaurarchs » . هذا وقد وجدت كذلك فرق من المحالفين « foederali » وكانت تمسك أيضاً فى أقاليم الحدود وترافق الامبراطور عند الخروج للغزو . وكانت جيوش الولايات « الثيماتا » تستعمل أساساً للدفاع . وفى حالة الهجوم كانت فرق الحرس الامبراطورى تخرج من القسطنطينية بقيادة الامبراطور أو دمستق الاسكلارية وتلاحق بها قوات من جنود الولاية والجنود المختلفة .

وبصفة عامة نستطيع القول أن قوة الجيوش البيزنطية كانت تعتمد على الخيالة الثقيلة (الدارعة) Gaballarii . وكان أفرادها يلبسون المغافر (١٤) أو الزرد تحت الفلمنسوة ، كما يلبسون دروعاً من الزرد . وكان كل ضابط ومساعد له يلبس على جبهته علامة من المولاذ تميزاً له . وكان المحاربون البيزنطيون يرتدون عباءات من الصوف فى الشتاء وأخرى من التيل فى الجو الحار . وكانوا يستعملون السيف والخنجر والقوس والرمح . وكان المشاة فى معظم الحالات يستعملون النبال والحراب . وكانت هناك فرق من المشاة الثقيلة ممن يلبسون الدروع ويحملون الباط والرماح والسيوف والتروس . وكان يعهد اليهم بحراسة المسالك أو الدروب الجبلية التى يتعذر على الفرسان العمل فيها . أما النار

١٣ - المرجع السابق ص ١٤٠ .

١٤ - المفرد مغفر ومغفرة ، وهو الزرد الذى يلبسه المحارب تحت الفلمنسوة

الآغريقية فكانت تستعمل أساساً في حالات الدفاع والتخلص من خطر الحصار. (١٥)

ومهما يكن من أمر فيجب ألا نبالغ في تقدير القوة العددية للجيش البيزنطية في القرن العاشر الميلادي. فهي مع مراعاة أن أعدادها اختلفت بين الزيادة والنقصان حسب ما اقتضته الأحوال والظروف، فهناك من المؤرخين من يرون أن عدد الجيوش البيزنطية لم يزد عن مائة وعشرين ألف مقاتل، منها مائة وأربعين ألفاً كان عليهم واجب القتال ضد المسلمين في الجبهة الآسيوية. (١٦) ولكن مع من هذه القوة التي تمتعت بها الجيوش البيزنطية فيجب أن ننتبه إلى ما كان يهددها من مشاكل. فإن جنود الولاية كانوا عادة مرتبطين بسادتهم الأقطاعيين ويدينون بولائهم المباشر لهم وكان الأمر دائماً يقتضي اليقظة والحزم من الأباطرة للحيلولة دون قيام حركات تمرد محلية كما كان هناك خطر من جانب عناصر القوات المرتزقة التي جاءت من بلاد أوربية وآسيوية مختلفة والتي استخدمها الإمبراطور إلى جانب العناصر الوطنية. فإن هذه العناصر المرتزقة كان لا يمكن التسليم بولائها التام، إذ كانت دائماً على استعداد لخدمة من يدفع الثمن الأعلى. وبالرغم من ذلك فقد كانت الجيوش البيزنطية تمثل قوة عسكرية خطيرة في هذه الفترة، وذلك يرجع إلى حسن أعدادها وتدريبها، وتحمسها للحضارة الهلينية والعميقة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي. وكان من أسباب قوة بيزنطة العسكرية وقنئذ توافر القيادة العسكرية الصالحة، إذ تابع على ولاية جيوشها عدد من القادة الأكفاء مثل يوحنا كوركواس ونقفور فوقاس ويوحنا تريمسكس.

(15) Runciman, Byz. Civil, p. 145.

(16) Diehl, «The Government & Administration in the Byzantine Empire»; Cambridge Medieval History, vol IV; pp. 740 - 41; Einslin «The Emperor & Imperial Administration»; Byzantium (ed. Baynes) p. 300; Runciman, Byz. Civil; p. 143.

هذا ويتضح من دراسة تاريخ الامبراطورية في القرن العاشر ما أصبحت تتمتع به إذ ذاك من إزدهار وإمكانيات اقتصادية ضخمة . وقد تحقق لها ذلك بفضل التطور الكبير الذي حدث في صناعاتها وتجارتها ، نتيجة لإدارتها الحكيمة. ونالت الامبراطورية في هذا القرن شهرة فائقة في عالم العصور الوسطى بفضل بدائع مصنوعات التي وصل بعضها إلى أيدينا ، من المنسوجات ذات الالوان الزاهية والتطريز المتقن والمصوغات المزخرفة والآنية البرزية المطعمة بالفضة وان الامبراطورية بالرغم من سياسة الاحتكار التي فرضتها حكومتها والقيود التي وضعها على التبادل التجاري ، نمت تجارتها بشكل ملحوظ . وكان مما ساعدها على ذلك موقع عاصمتها القسطنطينية بين الشرق والغرب عند منافذ طرق التجارة العالمية ، وأسطولها التجاري النشط . وقد أصبحت القسطنطينية من أكبر مستودعات التجارة العالمية كما نجحت في الاستحواذ على نسبة كبيرة من ثروة العالم . (١٧) .

هذا وقد صاحب التطور في الصناعة والتجارة تقدم هام في الحياة الفكرية . ذلك أنه حدث ميلاد جديد في كافة نواحي النشاط الفكري على أثر انتهاء الصراع حول عبادة الأيقونات وبفضل التعرف من جديد على العلوم الكلاسيكية . وقد أعيد تعمير جامعة القسطنطينية التي أستاذت نشاطها وقام عدد من كبار الأساتذة بتدريس العلوم والفلسفة والخطابة وغيرها . وسعى اليهم طلاب العلم من شتى أنحاء الامبراطورية ومن البلاد العربية كذلك . ولمع في هذا المجال الفكري بشكل خاص اسم الامبراطور قسطنطين السابع ، وبفضل جهوده وتوجيهه زاد نشاط العلماء في القرن العاشر حتى أصبح هذا القرن عصر الموسوعات الهامة التي وضعت في التاريخ والقانون والنحو

١٧ - أنظر في هذا الموضوع :

C. Diehl, The Byzantine Empire (Eng. trans. Ives, New York; 1945) pp. 95 - 96.

والعلوم وتاريخ القديسين. ومن أهم العلماء الذين برزوا في هذا العصر كان فوتيوس Photius وبسپاوس الفليسوف ، والمؤرخ ليون الشماس Leon the Deacon . هذا هو أهم ما حققته الإمبراطورية البيزنطية في العهد المتمدن وبالأخص في القرن العاشر الميلادي في مضمار الإصلاحات والإنجازات الداخلية . وقد أهتم أباطرة هذا العصر كذلك بالسياسة الخارجية التي حرصوا فيها على تنفيذ سياسة توسع عامة وهدفوا لأن يجعلوا الإمبراطورية البيزنطية الدولة صاحبة الكلمة الأولى في الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى جانب مد نفوذها غربا في البلاد الأوربية المجاورة لها . وفي نفس الوقت عمل هؤلاء الأباطرة على تحقيق مجد الحضارة الهلينية والعتيدة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي . وقد أدت هذه السياسة الخارجية إلى اتساع كبير في مساحة الإمبراطورية كما أدت إلى ازدياد قوتها وهيبتها .

وأبدى أباطرة هذا القرن اهتماما كبيرا في منازلة المسلمين في الشرق وطاردهم من معاقلمهم في آسيا الصغرى ومد حدود الإمبراطورية البيزنطية شرقا إلى إقليم الجزيرة في شمال العراق والبلاد الأرمينية التي كانت خاضعة للمسلمين ، وكذلك إلى البلاد الشامية ، هذا إلى جانب العمل على تخليص المراكز البحرية الواقعة في شرق حوض البحر الأبيض من أيدي المسلمين . ولقد شعر هؤلاء ببداية هذا الهجوم البيزنطي منذ المرحلة الأولى من حكم الأسرة المقدونية ، إذ أفتتح سياسة التوسع ضدهم باسيل الأول مؤسس هذه الأسرة . فقد قام هذا الإمبراطور بحملات ناجحة في آسيا الصغرى ، إلا أن هذا الهجوم البيزنطي كان على نطاق محدود في مرحلته الأولى . والسبب في ذلك يرجع إلى انشغال الإمبراطورية في محاربة العناصر الباغارية . ويتكنا القول أن البداية الحقة للهجوم البيزنطي على حدود الإسلام في الشرق كانت في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي . ومنذ هذا الوقت بدأ ظهور قواد

بيزنطيين عظام أبلوا بلاء عظيماً في القتال مثل يوحنا كوركواز John Curcuas الذي كان على حد وصف إحدى الحوليات المعاصرة تراجان الجديد أو بليزاريوس الجديد^(١٨) . وفي المدة التي تولى فيها الامبراطور قسطنطين السابع الحكم بنفسه واصلت بيزنطة عملياتها الحربية ضد المسلمين بنجاح ملحوظ بفضل قيادة يوحنا تزييمسكس . ونتيجة لحروب بيزنطة حينئذ تقدمت حدودها شرقاً ووصلت جيوشها إلى البلاد الأرمينية كما تمكنت من عبور نهر الفرات ، أي تلك الجهات التي لم تشهد أية قوات بيزنطية لمدة ثلاثة قرون منذ الفتح العربي . وتمكن البيزنطيون إذ ذاك من الاستيلاء على عدة مدن مثل أرض روم وملطية والرها .

وفي عهد رومانوس الثاني (٩٥٩-٩٦٣م) الذي كان امبراطوراً ضعيفاً ، أحرزت بيزنطة انتصارات أخرى بفضل تقفور فوقاس الذي عهد إليه بقيادة الجيوش البيزنطية . فان هذا القائد نجح في الاستيلاء على جزيرة كريت سنة ٩٦١م . وكان ذلك نصراً كبيراً إذ كانت هذه الجزيرة مركزاً هاماً للقوات البحرية الإسلامية لمدة نحو قرن ونصف قرن وكانت من أهم نقاط الارتكاز البحرية للمسلمين في المياه الشرقية للبحر الأبيض . كما أبحر تقفور شرقاً وتقدم في إقليم الجزيرة وفي شمال الشام ، وتمكن من احتلال حلب إحتلالاً مؤقتاً سنة ٩٦٢م . وان كانت بيزنطة لم تحتفظ بكل تلك البلاد التي أستولت عليها تقفور وذلك بسبب هودته إلى القسطنطينية ، فانه كان مقدراً لهذا القائد أن يبدأ بعد اعتلائه للعرش صفحة من ألمع صفحات بيزنطة العسكرية ضد المسلمين أثناء حكمه (٩٦٣ - ٩٦٩م) . فقد تمكن هذا الامبراطور في المرحلة الاولى من حملاته في قيليقية من الاستيلاء على المصيصة وطرسوس . وأستولت قوائمه على جزيرة قبرص سنة ٩٦٥م وخلصتها من الحكم الاسلامي . وكان ذلك تدعيماً حيوياً

(18) Theophanes Continuatus. Historia (Bonn ed.) pp. 427 - 28:

للفوز والسيادة البحرية للامبراطورية ، كما أمن ذلك المواضع لآلات البحرية البيزنطية في هذه الانحاء . وأن الأهمية الرئيسية لفتح قلاية وقبرص ترجع إلى أن الطريق قد أصبح مفتوحا لتنفيذ الخطة التي رتب لها البيزنطيون منذ فترة طويلة ألا وهي التقدم إلى الاراضى المسيحية المقدسة واسترجاعها . وشعر المسلمون في إقليم الجزيرة في شمال العراق بشدة وطأة هجمات نقفور ، كما واصل هذا الامبراطور هجماته على شمال الشام . وقد كملت جهوده في هذه المنطقة الأخيرة بنجاح له أهميته ، إذ نجح البيزنطيون سنة ٩٦٩ م في الاستيلاء على مركز من المراكز الرئيسية هناك ألا وهو مدينة أنطاكية التي لها أهميتها بالنسبة للمسيحيين إذ كانت لها بطريركيتها ، كما كانت مركزا من المراكز المسيحية الهامة منذ العهد الأول للمسيحية . وقد ظلت تابعة للحكم الاسلامى نحو ثلاثة قرون حتى لقد بدا للبيزنطيين أنهم فقدوها إلى الأبد . وفضلا عن ذلك فقد نجح البيزنطيون في فرض السيادة على إمارة حلب بمقتضى اتفاقية صفر ٣٥٩ هـ (ديسمبر ٩٦٩ - يناير ٩٧٠) . فان هذه الإمارة وإن كانت استمرت تحت حكم أمير مسلم ، إلا أنه أصبح يتبع هو وإمارته امبراطور القسطنطينية ، بمقتضى تلك الاتفاقية المذكورة ، التي فرضت عليه والتي حفظها لنا المؤرخ كمال الدين بن العديم (١٩) . وقد كان نقفور فوقاس حازما على التوغل في البلاد الشامية وفتح بيت المقدس . ويصف لنا ابن الأثير فزع المسلمين في الشام من تحركات نقفور بقوله : « دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولاقاتله » . (٢٠) إلا أن القدير لم

(١٩) كمال الدين بن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب (ت سامى الدمان - ط . دمشق (١٩٥١) ج ١ ص ١٦٣ - ص ١٦٩ - ويخصوص التحليل الكامل لهذه الاتفاقية نظر للمؤلف : الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة ص ١٤ - أس ٤٧ .

(٢٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (ط الأولى المطبعة الازهرية المصرية - ١٣٠١ هـ ج ٨ ص ٢٣٥ .

يعمل هذا الامبراطور ليحقق آماله ، وقد وقعت مسئولية مواصلة هذه السياسة الشرقية على طاق خليفة تزييمسكس .

هذا وأحرزت الامبراطورية البيزنطية في حروبها مع البلغار انتصارات لها أهميتها وخاصة في النصف الثاني من القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الميلادي . والواقع أن الصراع ضد البلغار كانت له خطورته وذلك للقوة التي أصبحت عليها دولتهم بعد أن تم المزج بين العناصر البلغارية والصقلبية وقيام الوحدة الدينية بهذه الدولة على أثر اعتناق الديانة المسيحية . وكان مما أدى إلى ازدياد قوة دولة البلغار ما وصلت إليه من تمحضر نتيجة لاتصالها بالامبراطورية البيزنطية . وأغررت قوة الدولة البلغارية ملوكها على أن يتنازعوا السيادة على شبه جزيرة البلقان مع الأباطرة البيزنطيين . وقد بدأ الصراع في عهد القيصر البلغاري سيميون Symeon (٨٩٣ - ٩٢٧ م) الذي حاول الاستيلاء على القسطنطينية نفسها وأعلن نفسه « قيصر البلغار وأمبراطور الرومان » (٢١) . وقد استمر الصراع ضد البلغار أمداً طويلاً دام حتى عهد الامبراطور باسيل الثاني الذي أكسبته حروبه وانتصاراته على البلغار شهرة خاصة ، فأصبح يعرف باسم سفاح البلغار Bulgaroctonos . وتعقد الصراع ضد البلغار بالنسبة لبيزنطة على أثر طلب الامبراطور نقفور للمساعدة من الروس التابعين للأمير الروسي الأكبر حاكم كييف واسمه سفياتوسلاف ، الذي استمرأ البلاد البلغارية التي غزاها ورفض أن يبرحها ، وهكذا وعند اعتلاء الامبراطور تزييمسكس العرش كان الخطر الروسي يهدد الامبراطورية البيزنطية فأصبح على هذا الامبراطور أن يواجه كلا من الروس والبلغار .

هذا وقد استأنف الأباطرة البيزنطيون في الغرب السياسة البيزنطية

التقليدية التي تهدف الى فرض النفوذ البيزنطى فى هذا الاتجاه . ذلك أن البيزنطيين لم يتنازلوا أبداً عن حقوقهم فى حكم ايطاليا . وأن ضعف الأباطرة الكارولينجيين المتأخرين ، والقوضى السياسية التى سادت جنوى ايطاليا بسبب تنافس الامراء اللومباردين على امتلاكه ، وكذلك خطر المسلمين المتزايد فى هذا الاتجاه ، كل ذلك أغرى أباطرة القسطنطينية على التدخل لدعم النفوذ البيزنطى فى هذا الاتجاه . ولم يتردد الامبراطور باسيل الاول فى اتباع هذه السياسة ، وسار على هداه من تبعه من الأباطرة .

ولجأت الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر ، فى العمل على مد نفوذها خارجياً ، إلى وسائل أخرى إلى جانب الاعتماد على جيوشها وقوتها العسكرية . وبفضل دبلوماسيتها الماهرة ، اتسم نطاق نفوذها الى أبعد من حدود البلاد التى غزتها بمسافات بعيدة . وقد حشدت حول حدود الامبراطورية مجموعته من الدول التابعة Vassal States ، كانت بمثابة خط الدفاع الأمامى عنها . وعملت هذه الدول التابعة بدورها على نشر نفوذ بيزنطة السياسى وحضارتها فى أنحاء العالم . وفى ايطاليا كانت البندقية أهم أتباع الامبراطورية البيزنطية ، وفى الشمال الغربى من شبه جزيرة البلقان وعلى طول ساحل البحر الأدرياتي نجد دولتى الصرب والكروات الصقلبيتين حليفتين نافعتين للامبراطورية وخاصة ضد البلغار . وفى الشرق بدأ الارتباط بين بيزنطة وأرمينية . ويجب ألا ننسى أن إمارة حلب نفسها أصبحت تابعة للامبراطورية بمقتضى المعاهدة التى عقدت بينها فى أواخر سنة ٩٦٩ م .

هذا وقد امتد نفوذ بيزنطة الحضارى إلى ما وراء الأقاليم التى أصبحت تحت الحماية البيزنطية . ويرجع ذلك إلى ما قام به المبشرون من رجال الدين من نشاط . وأفضل دليل على ذلك هو تحول الروس إلى العقيدة المسيحية على المذهب

الأرثوذكسى . ويظهر فى هذا المجال اسم القيصرية أولجا Tsarina Olga التى اعتنقت المسيحية على أثر زيارتها للقسطنطينية سنة ٩٥٧ م . كما كان قنصير فلاديمير أمير كييف العظيم فى نهاية القرن العاشر ، مرحلة أساسية فى اعتناق الروس للمسيحية إذ أن هذا الأمير قد فرض هذه الديانة على أتباعه . وأن دولة الروس التى أصبحت دولة مسيحية منذ ذلك الوقت ، قد شكلت نفسها على نمط الحضارة البيزنطية بما فيها من عقيدة أرثوذكسية وفن وآداب وطرق المعيشة .

وهكذا فقد كانت هذه النهضة البيزنطية بما لها من مقومات وإنجازات فى القرن العاشر الميلادى ، هى الأساس الذى بدأ عليه الإمبراطور يوحنا تيمسكس حكمه لينفذ سياسته الداخلية والخارجية التى تجلّى فيها بوضوح اهتمامه بمواصلة الهجوم البيزنطى على المسلمين فى الشرق الأدنى واسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة .

الفصل الثانى

عهد الامبراطور تزييمسكس

- اصل تزييمسكس وحياته الاولى .
- الظروف التى اعتل فيها العرش .
- سياسة تزييمسكس الداخلية .
- سياسة تزييمسكس الخارجية .

لم يكن تزييمسكس من الأسرة المقدونية صاحبة الحق الشرعى فى حكم الامبراطورية، بل كان من القادة العسكريين الأكفاء الذين تمكنوا من الجلوس على عرش الامبراطورية فى ظل الأسرة الحاكمة، مع الابقاء على ممثلى البيت الحاكم والسماح لهم بسلطة التسمية . وقد كان مما يسر على هؤلاء القادة الأمر، أن الامبراطورية ألقت منذ فترة سابقة فكرة وجود أكثر من امبراطور فى وقت واحد، يكون لأحدهم الساطة الحقيقية وهو الذى يميز بلقب «أوتوقراطور باسيليوس» Autocrator Basileus، والآخر أو الآخرون ويكونون بمثابة شركاء خاملون لا يتدخلون فى شئون الحكم^(١) .

وقد جاء تزييمسكس من بيت من أكبر البيوت الأرستقراطية فى الامبراطورية البيزنطية . فهو ينتمى من جهة أبية إلى أسرة كوركواز Curcuas ومن جهة أمه إلى أسرة فوقاس Phocas التى جاء منها سلفه الامبراطور ثقفور . هذا ويرجع تزييمسكس مثل

(١) عهد البيزنطيين إلى تطبيق هذه الفكرة حتى يتفادوا فترة شعور فى تولي العرش قد تؤدي إلى خلافات واضطرابات داخلية . هذا إلى جانب ان هذا النظام كان يساعد فى تثبيت الحكم فى افراد الأسرة الحاكمة . انظر عن هذا النظام

كثيرين من الأباطرة والقواد العسكريين الذين ظهروا في التاريخ البيزنطي إلى أصل أرمني . وقد ولد حوالي سنة ٩٢٤ م في هيرا بوليس Hiérapolis وهي بلدة أرمنية صغيرة تقع في إقليم خوزان Khozan ، تلك البلدة التي نسبت فيما بعد إلى هذا الامبراطور وأصبحت تعرف باسم Tchmechkatsak أي مسقط رأس تزييمسكس^(٢) فالمعروف أن الاسم الحقيقي لهذا الامبراطور في اللغة الأرمنية هو Tchémehkik أو Tchémeschaguig^(٣) . وعرف في غالبية المصادر العربية باسم ابن الشمشقيق^(٤) ، كما اشتهر عند عامة المسلمين بابن الشمشكي^(٥) . والملاحظ أن الصيغة التي اشتهر بها هذا الاسم عند المسلمين قريبة من الصيغة الأرمنية . أما البيزنطيون فقد حرفوا اسم الامبراطور إلى تزييمسكس Tzimiscés .

ونشأ تزييمسكس فارساً ، ومنذ حداثة احترف الجندية مثل غيره من أبناء العائلات الاقطاعية الكبيرة في الامبراطورية . وقد تمرس القتال ضد

(٢) G. Schlumberger, L'Epopée Byzantine à la fin du dixième siècle (Paris, 1896) pp. 2 - 3.

(سوف أشير إلى هذا للرجع فيما بعد باسم شلومبرجيه) - انظر كذلك

M. Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie (Paris, 1953) p. 787.

(وهذا للرجع سوف أشير إليه فيما يلي باسم كانار) .

(٣) هذه الكلمة معناها في اللغة الأرمنية القصير . انظر شلومبرجيه ص ٤ . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٩٤ - ارجع كذلك إلى :

L. Bréhier, Vie et Mort de Byzance (Paris) 1946, p. 198.

(٤) عرف للأورخ بحبي الانطاكي هذا الامبراطور باسم الشمشقيق . كما ورد اسم ابن الشمشقيق في تاريخ كل من ابن القلانسي وابن الاثير - انظر : بحبي الانطاكي المذيل على كتاب التاريخ المموج على التحقيق والتصديق : تأليف البطريق أفتيشبوس للمكفي بسعيد بن البطريق (ط . بيروت سنة ١٩٠٩ م) ص ١٣٦ - ص ١٣٧ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (ط . بيروت سنة ١٩٠٨ م) ص ١٢ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٩ ، ص ٢٨٠ .

(٥) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٠٦ .

المسلمين ، وأخذ نجمة يلمع أثناء اشتراكه في قيادة الحملات العسكرية الكبرى التي وجهتها الامبراطورية ضد قيليقية والبلاد الشامية في السنوات الأخيرة من حكم الامبراطور قسطنطين السابع ، تلك السنوات التي وقعت أثناءها المحاولات المستميتة التي قام بها سيف الدولة الحمداني لمواجهة خطر الروم. (٦) وقد أنعم الامبراطور على تزييمسكس بلقب بطريق كما عينه ستراتييجوس على « نيم » الجزيرة الذي ضم اليه اقليم هنزيط Hanzit المجاور له. (٧)

وهيأت حروب تزييمسكس في الجبهة الشرقية الفرصة له للاتصال بقريبة نقفور فوقاس ، وجمعت بينهما الزمالة في قيادة جيوش البيزنطية ، وسرعان ما توطلدت أواصر الصداقة بينهما . والمعروف أن تزييمسكس كان هو الذي ألح على نقفور لكي يتولى عرش الامبراطورية بعد وفاة رومانوس الثاني سنة ٩٦٣ م . وبعد أن أعتلى نقفور عرش بيزنطة ، سلم لتزييمسكس المنصب الذي كان يشغله ألا وهو « دمستق القوات الاسكلارية في الأناضول » *The Domestic of the Scholae of Anatolia* كما منحه لقب ماجستر « Magister » وكان من أعلى الألقاب تمنح للأعيان في بيزنطة. (٨) وقد ترتب على ذلك أنه صار عليه أن يتحمل مسؤولية قيادة الجيوش البيزنطية في الجبهة الشرقية . وأحرز تزييمسكس أثناء ذلك عدة انتصارات باهرة

(٦) امتدت هذه الفترة الأخيرة من حكم قسطنطين السابع التي باشر فيها مهام الحكم بنفسه من سنة ٩٤٥ حتى سنة ٩٥٩ م .

(٧) كان تعيين تزييمسكس على « نيم » الجزيرة على ما يبدو سنة ٩٥٦ م (سنة ٣٤٥ هـ) انظر : كانار ص ٧٨٧ - وبخصوص اقليم هنزيط فقد قال عنه باقوت : « هنزيط بالكسر ثم السكون وزاى ثم ياء مطاء مهملة من الثغور الرومية » معجم البلدان (ط . بيروت ج ٢٠ ص ٤١٨ - ويمتد هذا الاقليم شمالى نهر دجلة .

(8) Cambridge Medieval History, vol. IV, p. 78.

(سوف اشير هذا المصدر فيما يلي اختصارا على النحو الآتي : (C. M. H.

ظهر لقب ماجستر في القرن العاشر الميلادي - انظر :

Runciman, Byz. Civil. p. 84:

أعلنت من شأنه وزادت في محبته بين الجنود وشهرته بين الشعب . وقد استمر تزييمسكس في خدمة نقفور وهو يتمتع بمكانه رفيعة في الامبراطورية حتى سنة ٩٦٩ م ، حين حدثت تطورات أنهت بالقضاء على نقفور فوقاس ووضع نهاية لحكمه واعتلاء تزييمسكس العرش الامبراطوري .

لقد تذكر الامبراطور نقفور لقريبه وزميله السابق في السلاح وقائد جيوشه في الشرق في سنة ٩٦٩ م ، ولم يعد نقفور يؤثر تزييمسكس باهتمامه وتقديره . ويرى بعض المؤرخين أن الانتصارات العسكرية التي أحرزها تزييمسكس وشهرته التي كادت أن تضارع شهرة الامبراطور ، تسببت في تغيير قلب نقفور بالنسبة له لما دب في نفسه من غيرة . ومن الواضح كذلك أن ليوفوقاس ، أخا الامبراطور والذي كان يحمل لقب قربلاط *europalates* ويشغل مكانه رفيعة في حكومة نقفور ، أضمر كراهية شديدة لتزييمسكس ودأب على النيل منه ، وبذل كل جهد لافساد العلاقة بين تزييمسكس والامبراطور . (٩) وفي نفس العام المذكور جرد نقفور قائده تزييمسكس من رتبة العسكرية وطرده من البلاط الامبراطوري وأصدر أمره بأن يعيش منفياً في خلقدونه في ممتلكاته في آسيا الصغرى محمداً اقامته إلى هذا المكان . وبدلاً من مركزه العسكري المرموق ، عين نقفور قائده في مركز مدني هو اللغثيت *Laogothete* المختص بإدارة البريد . (١٠) وبطبيعة الحال أدى ذلك إلى استياء تزييمسكس وغمضه على الامبراطور واعتبره ناكراً للجميل . وأخذ تزييمسكس يفكر في الانتقام لنفسه ، وتقاتلت رغبته في هذا الانتقام مع رغبة الامبراطورة ثيرفاو *Theophano* التي أرادت التخلص من زوجها .

9. C. M. H., vol. IV, p. 78; Schlumberger, Un Empereur byzantin au dixième siècle, Nicéphore Phocas. (Paris, 1890) p. 746 - 47.

(١٠) المرجع السابق ص ٧٤٧

كانت ثيوفانو امرأة خطيرة ، وهى أصلا من طبقة العامة . وكانت تتمتع
بقسط وافر من الجمال إلا أنها كانت ذات طموح ودهاء ، كما عرف عنها الانحلال
الخلقى . واستلقت جمالها نظر الامبراطور رومانوس الثانى الذى عرف عنه
ضعف الشخصية ، واتخذ منها زوجة له وقد وقع تحت تأثيرها بشكل كامل .
ولإرضائها أمر بإبعاد والدته الامبراطورة هيلينا من المسرح السياسى ، كما
أرغم خمسة من أخوته على دخول الحياة الديرية .^(١١) وبعد وفاة رومانوس ،
اختارها نقفور زوجة له ، الأمر الذى أدهش معاصريه ، نظرا لما عرف عنه من
التقوى والزهد ، وما كانوا يعرفونه عنها من السمعة السيئة . وقد سجل شعور
المعاصرين بخصوص ذلك الزواج فى النقوش التى كتبت على قبر نقفور والتى
تقول بأن الامبراطور تمكن من قهر كل شئ ما عدا المرأة^(١٢) . وكان
من الطبيعى ألا يوفق هذا الزواج . فان ثيوفانو مع ما عرف عنها من فجور
ونزعة حسية قوية لم تجد ما يشبع رغبتها فى شخص الامبراطور نقفور بما له
من قبح خلقه وخشونة طبع وميل للتكشف وكثرة التغيب للاشتراك فى حملاته
المسكرية . وإن رفض الامبراطور للنوم فى الفراش الامبراطورى وتفضيله
على ذلك افتراش جلد نمر على أرض الحجرة الملحقة بمخدعه ، لابد وأن كان
مصدرا استياء لهذه المرأة^(١٣) . وكان من الطبيعى أن تبحث ثيوفانو عن عشيق
لها يحقق لها نزواتها ، وقد وجدته فى شخص تزيتمسكس الذى كان يختلف عن

(11) Ostrogorsky, p. 251; G. Diehl, Figures byzantines 4th ed.,
(Paris; 1909) vol I.; pp. 51 - 75.

(12) Krumbacher, K., Geschichte des byzantinischen Literatur,
p. 308.

(١٣) فان نقفور فى الفترة الاخيرة من حياته ملشككا فىمن حوله ، والظواهر أنه
أراد ألا يفاجئه من يتآمرون على حياته وهو فى فراشه ، وهذا هو السبب الذى جعله
يرفض النوم فيه : انظر :

Schlumberger, Nicephore Phocas, pp. 744 - 45.

تقفور شكلا وطابعا . فان تزيمسكس بالرغم من قصر قامته الملحوظ ، كان يتمتع بوسامة وشخصية جذابة وحيوية متدفقة ، كما كان أعزبا منذ أن ماتت زوجته الأولى ^(١٤) . ولا بد أن حب ثيوفانو لتزيمسكس وتعلقها به جعلها ترغب في تدبير مؤامرة معه للتخلص من زوجها .

هذا وتضيف بعض المصادر العربية المعروفة باهتمامها في تتبع أخبار الدولة البيزنطية، سببها ما آخردفع الامبراطورة ثيوفانو على القيام بمؤامرتها . ويرتبط هذا السبب بخوفها على مصير ولديها من زوجها الأول وهما باسيل - الذي اعتلى العرش فيما بعد باسم باسيل الثاني - وقسطنطين الثامن . فان هذين الأميرين كان ينظر اليهما على أنها الامبراطوران صاحبا الحق الشرعى لحكم البلاد . وكان تقفور عندما اعتلى العرش مستعينا بجيشه وأنصاره ، اضطرا لأن يعلن نفسه كمجرد قيم وحام لهذين الامبراطورين . ^(١٥) وكان المفروض أن يرجع الحكم اليهما من بعده . ولكن تقفور اتخذ من الترتيبات ما لم تطعن اليه الامبراطورة على ولديها إذ أنه أخذ يعين بعض أفراد أسرته في المناصب الرئيسية بالامبراطورية كما منحهم الألقاب الكبرى . فقد عين أخاه ليوفوفاس ديمستقا على الغرب ومنحه لقب القربلاط *curopolates* كما كرم أباه بمنحه لقب قيصر ^(١٦) . ويذكر المؤرخ العربى المسيحى يحيى الأنطاكي ، الذى عاش فى أنطاكية التى كانت خاضعة للحكم البيزنطى والتى كان من المتيسر له فيها الاطلاع على

(١٤) كانت زوجة تزيمسكس الأولى واسمها ماريا من عائلة سكليروس *Sclerus* الأفظاهية ، وهى أخت القائد الكبير بارداس سكليروس الذى لمع اسمه فى عهد تزيمسكس .

(١٥) G. M. II., vol; IV, p. 79;

(١٦) نفس المرجع السابق ص ٧٨ - بخصوص لقب *curopolates* فكان يعنى عميد القصر وكانت أصلا من الألقاب المخصصة لأقارب الامبراطور ، انظر Runciman, Byz. Civil, p. 8٤

أخبار البيزنطيين ، أن نقفور عقد العزم على أن يجعل أخيه نائباً عنه في القسطنطينية ، ويجعله وصياً على الأميرين أثناء تغيبه في غزواته. والظاهر أن مسلك ليوفوقاس وموقفه لم يكن مما تطمئن الامبراطورة إليه . كما أن هذا الأمير كان يكن عداوة كبيرة لتزيمسكس . ولذا اعترضت ثيوفانو على تعيينه وأظهرت تخوفها لنقفور بقولها : « إنى أتخوف عليك الحوادث ولا أطمئن إلى أخيك على ولدى ولا آمن به لأنه إذا رأى نفسه منفرداً بتدبير الأمر في اللات أخاف أن يتغلب على الأمر دونها ولا سيما وله أولاد » . (١٧) وبذكر كذلك نفس المؤرخ أن الامبراطورة لما تمسكت باعتراضها أتهرها نقفور مغضباً بقوله « انك الآن تضطرينى إلى أن أخصى الصبيين وأجعل الملك لأخى . » (١٨) وللهم أن ما رواه المؤرخ المذكور في هذا الصدد إنما يعكس صورة لتخوف الامبراطورة على مصير ولديها وبالتالي على مصيرها إذا ما لحق بهما أى سوء .

وهكذا فقد جمع بين تزيمسكس والامبراطورة ثيوفانو الحب ، كما جمعت بينهما كراهيتهما لنقفور والرغبة في التخلص منه لتحقيق مصالحهما . وتدل المصادر البيزنطية والعربية على أن ثيوفانو هى التى اتخذت عنصر المبادأة في رسم وتنفيذ المؤامرة التى انتهت باغتيال نقفور واعتلاء تزيمسكس العرش . فقد اعتمدت هذه المرأة على جمالها ودلالها لتؤثر على نقفور وتجعله يرضى مرة أخرى عن تزيمسكس . وأخذت ثيوفانو تشير إلى رابطة الدم بينهما وصدقاتهما وزمالتها السابقة . وقد استجاب نقفور لطلب زوجة وأصدر أمر باستدعاء

١٧ - بحسب الانطاكي ص ١٣٦ .

١٨ - المرجع السابق ص ١٢٦ - راجع كذلك رواية ابن الأثير حيث روى عن نقفور أنه هزم على آل يحمى ابنى الملك المقتول لينقطع نسلهما ولا يعارض أحد أولاده في الملك) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٩ - وطبقاً لالتاليد البيزنطية كانت نشترط اللباقة البدنية لتتويج أى امبراطور ، ولا يمكن لأخى أو الأعمى ان يصبح امبراطوراً .

تزييمسكس إلى القسطنطينية. وأسرع الأخير بالذهاب إلى العاصمة . وقد تحايلت ثيوفانو حتى اتصلت سرا بعشيقتها . ويقول يحيى الانطاكي أنها « كشفت لهما في نفسها من الخوف على ولديها من لاون (ليو) أخى الملك. » (١٩) وعرضت الامبراطورة على تزييمسكس فكرة التخلص من الزوج . وسرعان ما أوفقا على تفاصيل المؤامرة التى تحقق لهما ذلك ، كما أوفقا على الزواج وأن يصير تزييمسكس امبراطورا .

وتمكن تزييمسكس من الحصول على عدد من الشركاء ليعاونوه فى تنفيذ المؤامرة . وكان هؤلاء من الساخطين على نفقور ، ومن ابرزهم كان القائد ميخائيل بورتزيس Michael Burtzes المعروف فى المصادر العربية باسم ميخائيل البرجى ، الذى كان قد لعب دورا هاما فى الإستيلاء على انطاكية . وكان الامبراطور قد تنكر له ذلك ولم يحسن معاملته . وكان من شركاء المؤامرة كذلك ليو بيدياسيموس Leo Pediasimos ، وليو بلنطس Leo Balantes . ويضيف يحيى الانطاكي إلى هذه الاسماء قائدا يعرف باسم اسحق بن بهرام وكان قد اشترك كذلك فى فتح انطاكية. (٢٠)

وتمت الترتيبات النهائية بين المتآمرين ، وحددوا ليلة ١٠-١١ ديسمبر سنة ٩٦٩ م موعدا لتنفيذ المؤامرة . وقد يسرت الامبراطوره وجماعة من أعوانها من الطواسية ، للمتآمرين التسلل إلى داخل القصر. (٢١) وتمكن هؤلاء

١٩ - يحيى الانطاكي ص ١٣٦ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٩

٢٠ - يحيى الانطاكي ص ١٣٦ - انظر كذلك

Schlumberger, Nicephore Phocas. pp. 750 - 51; Epopée; p. 19.

٢١ - فى شرح الطريقة التى تسلك بها تزييمسكس إلى الداخل القصر الامبراطورى قال يحيى الانطاكي : « فأصعدت (ثيوفانو) فى الليل ابن الشيشة بق مع هلام له من طاقه فى البلاط على البصر واوصلتهم إلى الملك . » اما ابن الاثير فيقول ان تزييمسكس قد دخل مع شركاء وهم يلبسون زى النساء وأن ثيوفانو قد أوهمت نفقور انهم نسوة من اهلها جئن للزيارة - يحيى الانطاكي ص ١٣٦ - ص ١٣٧ ، ابن الاثير ج ٨ ص ٢٣٦ - ص ٢٣٩ - ض ٢٤٠

من الوصول في هدوء إلى حجرة نوم الامبراطور نقفور حيث أجهزوا عليه .
وقد تم ذلك بسرعة وأمر تزيمسكس بوضع رأس نقفور في النافذة ليشهدها
الناس ويجعلهم أمام الامر الواقع . ودفن نقفور بعد ذلك سرا في
كنيسة الرسل القديسين^(٢٢) . وبذلك انتهى عهد هذا الامبراطور بما كان
له من أمجاد ، في الوقت الذي عمل فيه تزيمسكس على القبض على مقاليد الامور
وتولى السلطة .

والملاحظ أنه بالرغم من هذا العمل الذي أتاه تزيمسكس وشركاؤه في اغتيال
نقفور الأمر الذي عدته الكنيسة البيزنطية جريمة نكراء تستلزم التكفير
عنها ، فإن تزيمسكس لم يجد في طريقه لإعتلاء العرش مقاومة جدية أو ثورة
يقوم بها الشعب أو الجيش . وفي تفسير ما حدث ، نحن نعرف أن نقفور بالرغم
من ورعه وتدينه وعزوفه عن حياة الترف وما عرف عنه من مسلك سوى واهتمامه
بالإصلاحات الدينية فضلا عن الانتصارات العسكرية الكبرى التي حققها
للإمبراطورية ، فإنه لم يكن حاكما محبوبا في الإمبراطورية . ذلك أن عهده في
أساسه كان عهدا عسكريا سخر فيه إمكانيات الدولة لخدمة سياسة التوسع
الخارجي . وقد بالغ هذا الامبراطور في فرض الضرائب على الشعب لمقابلة نفقات
حملاته العسكرية . وقد اشتدت الوطأة على البيزنطيين لما عموهم من عوز . بل
إن الحكومة نفسها قد اضطرت لخفض قيمة عملتها^(٢٣) . ومع هذه الاوضاع
كان من الطبيعي ألا يحدث استياء عام أو اضطرابات نتيجة لإغتيال نقفور .

والواقع أن تزيمسكس كان رسم الخطة اللازمة التي تمكنه من تولي العرش على
مقاليد الحكم فور القضاء على الامبراطور الراحل . فبعد أن جلس الامبراطور

(22) G. M. II., vol. pp. 77 - 79:

(23) Ostrogorsky, p. 260. " ,

الجديد على العرش ، أعلن تزيمسكس سئلاً فعل نقفور من قبل ، أنه يعتبر نفسه وصياً على الإمبراطورين الشرعيين القاصرين باسيل وقسطنطين الثامن وأنه على هذا النحو يصبح عليه تدبير أمور الدولة . (٢٤) وفي ترتيب حكومته اعتمد تزيمسكس على الأمر باسيل ، وهو الابن غير الشرعى للإمبراطور رومانوس ليكايتنوس . وكان باسيل هذا خفياً مشهوداً له بالدهاء والجشع والحرص الشديد على جميع المال ، ولكنه كان يتمتع بشهرة سياسية عظيمة ترقى إلى درجة العبقرية . (٢٥) وقد عينه تزيمسكس رئيساً لوزرائه . هذا وكان باسيل من قبل أهم أنصار نقفور فوقاس الذى عينه كبيراً لأمنائه Parakoimomenos ، (٢٦) ثم رئيساً لمجلس السناتو . إلا أن نقفور تذكر له ، وعلى ذلك انحاز باسيل إلى تزيمسكس وأصبح من أكبر أعوانه فى المؤامرة التى دبرها ضد نقفور . وعلى ذلك فتمت اعتلاء تزيمسكس العرش أصبح باسيل رئيساً لحكومته واليد اليمنى له .

وقد ساعد باسيل الإمبراطور تزيمسكس فى رسم الخطوات الأولى التى اتخذها بعد اعتلائه العرش لتثبيت حكمه . وطبقاً للأوامر التى أصدرها كبير الوزراء ، نودى بتزيمسكس إمبراطوراً فى كل حى من أحياء العاصمة . كما منع باسيل التجمعات العامة وتوعد أى شخص يحاول القيام بأعمال العنف أو الاضطراب

٢٤ - شلومبرجيه ص ٤ ، G. M. II., vol. IV, p. 79
ونجد صدى التصريح الذى أدلى به تزيمسكس فى هذه المناسبة فى المصادر العربية .
فقد جاء فى تاريخ يحيى الأنطاكي قول تزيمسكس : « أنا عبدها وأخدم بين أيديها
إلى أن يشتد وبصلها للقيام بامتها » ص ١٣٧ . كما قال ابن الأثير : « -أس فى الملك
الأكبر من ولدى الملك لافقول وحصار المدبر له ابن الشمشيق » ج ٨ ص ٢٤٠

٢٥ - شلومبرجيه ص ٥ - ٦ - انظر كذلك Ostrogorsky, p. 252

٢٦ - أصبح صاحب هذا اللقب وهو كبير الخصيان فى القصر الإمبراطورى يشغل مركز كبير الوزراء منذ أواخر القرن التاسع وأثناء القرن العاشر الميلاديين . انظر
Runciman, Byz. Civil., p. 92

بالإعدام (٢٧) . وكان يقصد من وراء هذه الخطوات أن يتفادى ما قد يحدث من الاضطرابات على النحو الذى وقع عند اعتلاء نقفور فوقاس العرش . ثم قام تزيمسكس بالتخلص من كافة الموظفين من أنصار الامبراطور السابق وشغل مراكزهم برجال ممن يثق بهم . كما أمر تزيمسكس بنفى ليوفوقاس وأبنائه باستثناء بطرس الذى كان خصياً لا يخشى بأسه . وهكذا قطع الامبراطور الجديد مرحلة كبير فى توطيد سلطته ولم يتبق عليه إلا الحصول على مشاركة الكنيسة حتى ينفى على حكمه الصبغة الشرعية المطلوبة فى الحكم البيزنطى .

كان يرأس كنيسة القسطنطينية وقتئذ بوليكتيس ، Polyeucte . وكان هذا البطريرك قد عانى الكثير من الامبراطور نقفور فوقاس الذى دأب على التدخل فى الشؤون الكنسية والحد من امتيازات رجال الدين ، مما أسخط عليه الطبقة الايكاريكية بوجه عام . ولكن ، بالرغم من ذلك كله ، وكون بوليكتيس رجلاً مسناً يعانى من الشيخوخة وضعفها ، فإنه وقف موقفاً حازماً ضد تزيمسكس . فقد فرض عليه شروطاً شديدة حتى يسمح له بالدخول فى كنيسة أياصوفيا لينال بركة الكنيسة ويلبس التاج الامبراطورى فيها . ذلك أن بوليكتيس كان رجلاً ورعاً وحازماً وشديد التسك بالعقيدة الأرثوذكسية ، وبالرغم من عدم رضائه عن نقفور فوقاس ، فإنه لم يوافق على الجريمة التى ارتكبها تزيمسكس وأعوانه لیسلبها إلى العرش . والظاهر كذلك ، على ما يبدو ، أن بوليكتيس وجد هذه المناسبة فرصة لكي يسترجع للسلطة الايكاريكية اعتبارها بعد ما حدث لها من مناعب فى عهد نقفور ، وعلى

(٢٧) بخصوص التفاصيل التى رواها للأورخ البيزنطى المسامر ليون الشماس

Leo the Deacon فى هذا الموضوع ارجع إلى شلومبرجيه ص ٨ ، ص ٩ .

ذلك فعندما ذهب تزيمسكس إلى كنيسة أيا صوفيا ، رفض البطريرك الإشراف على أى حفل دينى لتتبرج الامبراطور مالم ينفذ الشروط التى فرضها عليه . وكانت هذه الشروط على نوعين : النوع الأول وينص على معاقبة المتآمرين ، والنوع الآخر خاص باسترجاع امتيازات الكنيسة . وبمخصوص الشروط الاولى ، فإن البطريرك ، أمام ادانة رأى العام فى بيزنطة لتزيمسكس باشتراكه فى مصرع نقفور ، فرض على تزيمسكس أن يقسم يميناً مقدساً للدلالة على براءته من جريمة قتل نقفور ، كما فرض عليه أن يتبرأ من القتلة الذين اشتركوا فيها . وفضلاً عن ذلك ، وجه اليه عبارة شديدة اللهجة خاصة بالامبراطورة ثيودورا قائلاً فيها : « فلتطرد فوراً من القصر المقدس الزوجة الزانية الآثمة التى دبرت ووجهت كل أمر ، والتى كانت بالتأكد المحرك الأول للجريمة ١ » (٢٨) وبمخصوص النوع الثانى من الشروط وهو الخاص بالامتيازات الكنسية ، فقد طلب البطريرك من تزيمسكس الغاء جميع المرسومات الامبراطورية التى أصدرها نقفور ضد الكنيسة ورجال الدين للحد من سلطتهم وامتيازاتهم العلمانية . كما أزم تزيمسكس باستدعاء جميع الأساقفة الذين ارسلوا إلى المنفى فى عهد نقفور ، وإعادتهم إلى مساكنهم الدينية . وفضلاً عن ذلك أمره بتوزيع ثروته من ممتلكات خاصة وعقار على الفقراء ولتعمير الكنائس الكبرى فى القسطنطينية . (٢٩)

وأمام هذا المركز الحرج الذى واجهه تزيمسكس فى باكورة عهده ورغبة منه فى توطيد أركان حكمه ، فضل هذا الامبراطور التسليم بجميع مطالبات البطريرك حتى يحصل على مباركة الكنيسة . وقد ضحى بحبه وأمر بنى

٢٨ - شلوهبرجيه ص ١٤ - ص ١٥

(29) C. M. II: vol. IV; pp. 70 - 80:

ثيوفانو، التي كان لها من العمر وقتئذ نحو سبعة وعشرين سنة، إلى إحدى الأديرة بمجزيرة بروتي Proti القريبة من القسطنطينية، ثم أبعثت بعد ذلك إلى أرمينية. وقد ألغى الامبراطور الجديد مرسومات نقفور الموجهة ضد رجال الدين كما أرسل في استدعاء الأساقفة المنفيين؛ وبدون أى وازع ديني، أقسم تزيمسكس يميناً بأنه لم يرفع يده ضد نقفور. هذا وقد أعلن ادانته لعدد من الذين اشتركوا معه في المؤامرة، وأعدم اثنين منها وهاليو بلنطس Leo Balantes وأتزيبو ثيودوروس Atzyppotheodores. (٣٠) وبعد أن تم كل ذلك قام بوليكتيس بتتويج تزيمسكس امبراطوراً في كنيسة أياصوفيا في حفل عيد الميلاد سنة ٩٦٩ م أى بعد الجريمة بنحو اسبوعين. ولا بد أن بوليكتيس شمر اذ ذاك بالسعادة لنجاحه في اجبار الامبراطور على تنفيذ مطالبه وسياسته الدينية. والواقع أنه حقق بما انجزه انتصاراً للكنيسة على القوة العلمانية بعد أن عانت الكثير من تدخل الأباطرة وخاصة نقفور فوقاس. وقد شبه المؤرخ أسترو جورسكى هذه الحادثة بين بوليكتيس وتزيمسكس، بمحادثه كانوسا التي كانت بين جريجورى السابع وهنرى الرابع فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر، للتشابه بين الحادثتين من حيث نجاح الكنيسة فى اثبات كيائها وفرض شروطها على حساب سلطة الامبراطور. (٣١) ومهما يكن من شىء، فإن ما يهمنا فى هذا الصدد هو نجاح تزيمسكس فى الحصول على بركة الكنيسة الأمر الذى عول عليه

٣٠ - شلومبرجيه ص ١٩

(31) Ostrogorsky, p. 260.

يجب ألا نسلم بفكرة أن هذا المؤرخ قد قصد حرفية هذا التشبيه أو أن هاتين الحادثتين كانتا متطابقتين تماماً، وذلك لما كان هناك من فوارق كبيرة بين سلطى البابا فى روما والامبراطور فى الغرب من ناحية، والبطريك والامبراطور فى الدولة البيزنطية من ناحية أخرى.

كثيراً لإكتساب صبغة شرعية تساعد على تثبيت سلطته وهو في المرحلة الأولى من حكمه ، والاستقرار على العرش البيزنطى .

كان تزييمسكس يضاهى سلفه الأمبراطور نففور في الكفاءة العسكرية والبراعة في قيادة الجيوش . إلا أنه كان يتفوق عليه كرجل دولة وسياسى . وعرف عن نففور التعجل والإندفاع في اتخاذ قراراته ، أما تزييمسكس فقد كان يتميز بمهارة وحنكة سياسية ساعدته إلى جانب مميزاته العسكرية . وحظى تزييمسكس كإمبراطور بتقدير المؤرخين البيزنطيين . ومثال ذلك ما كتبه عنه المؤرخ ماناسى Manassès الذى شبهه بفردوس جديد تنساب منه أنهار العدل والحكمة والفطنة والبسالة ، ثم أضاف : « أنه لو لم يدنس يديه بقتل نففور لتألق في الأفق ككوكب لا مثيل له » (٢٢) .

وقد كان تزييمسكس مثل نففور أكثر اهتماماً بالسياسة الخارجية منه بالسياسة الداخلية . وإن أعماله وإنجازاته الداخلية كانت محدودة إذا ما قورنت بالأعمال الكبيرة التى حققها فى سياسته الخارجية . ونعرض فيما يلى أهم ما حققه فى الداخل والخارج .

بالرغم من أن تزييمسكس كان أكثر اهتماماً بالسياسة الخارجية فإنه قد أحرز نجاحاً فى تنظيم الشؤون الداخلية بدولته ومعالجة ما ظهر منها من مشاكل بحزم وحكمة وبفضل ما أوتى من مقدرة سياسية وحسن تدبير . وقد ساعده فى تحقيق ذلك باسيل البركويومنينوس كبير وزائه ، الذى عهد إليه تزييمسكس بالإشراف على شؤون حكومته وقت خروجه للقيام بحروبه فى الخارج حقيقة أن باسيل هذا استغل مركزه ليزيد من ثروته الخاصة بشكل فاصح وغير

مشروع، إلا أنه كان قديرا في مساعدة الأمبراطور في إدارة شؤون الدولة، كما كان مخلصا في خدمته . هذا ورغبة منه في زيادة تدعيم مركزه داخليا ، تزوج تزييمسكس من الأميرة ثيودورا، وهي ابنة الأمبراطور قسطنطين، السابع وعمره الأمبراطورين الصغيرين باسيل الثاني وقسطنطين الثامن . وكانت تحدوه في ذلك الرغبة في إضافة صبغة شرعية لحكمه عن طريق الزواج من إحدى أميرات البيت المقدوني الذي كان له مكانة خاصة في قلوب البيزنطيين .

وقد حرص تزييمسكس على ألا يفعل مثل نقفور ويثقل كاهل الشعب البيزنطي بالأعباء ذلك حتى يتجنب سخطه واستياءه . وكان تزييمسكس كريما في معاملة رعاياه حريصا على كسب شعورهم . وقد قدم الكثير من المنح والهدايا من أمواله الخاصة لكثيرين من كافة طبقات المجتمع البيزنطي . كما ألغى هذا الامبراطور الضريبة المعروفة باسم *Kapnikon* وهذه هي ضريبة الدخان التي فرضت منذ قرن ونصف على كل مدخنة أو موقد في الامبراطورية ، وقد عانى منها البيزنطيون أمدا طويلا . (٣٣) وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه السياسة إلى ازدياد محبة البيزنطيين له واستقرار نفوذه داخليا .

واهتم تزييمسكس بالقضاء على أية اضطرابات داخلية تهدد حكمه . ويتضح اهتمامه هذا في موقفه من المحاولة التي قام بها آل فوقاس للانتقام لمقتل نقفور والقضاء على تزييمسكس . فان أسيرة فوقاس كانت أقوى من أن ترضخ أمام الأمر الواقع وتسلم ببقاء تزييمسكس على العرش بعد مقتل نقفور . وكان من الطبيعي أن تقوم ضد تزييمسكس عندما تتاح لها الفرصة . وهكذا فعندما كان الامبراطور يستعد للحرب ضد الروس ، قامت ثورة داخلية خطيرة تزعمها

بارداس فوقاس ابن ليو القرباط أخى الامبراطور الراحل، وكان تزيمسكس قد أمر بإبعاد بارداس إلى اقليم بونطس Pontis بعد موت عمه نقفور . إلا أن أفراد أسرته وبعض رجال الدين، اتخذوا ما يلزم من الترتيبات لتأمينه من الفرار من سجنه . وذهب بارداس أثر فراره إلى قيصرية حاضرة قبادوقية الواقعة في اقليم جبلى حصين في آسيا الصغرى ، والتي كانت تابعة منذ أمد بعيد لحكم أسرة فوقاس . (٣٤) وقد جعل بارداس هذه المدينة مركزاً لثورته وأعلن نفسه امبراطوراً مثلما فعل عمه من قبل في نفس المدينة سنة ٩٦٣ . (٣٥) وتجمع حوله عدد كبير من الأتباع من المنتفعين والمغامرين . وقد تسببت حركة بارداس في حرج شديد بالنسبة للامبراطورية ، في الوقت الذى كان عليها فيه أن تواصل الحرب ضد الروس . وعلى كل حال ، فقد اتخذ تزيمسكس ما يلزم من خطوات للقضاء على هذا الخطر الداخلى . واعتمد في ذلك على قائده الكبير ونسيبه السابق بارداس سكليرس Bardas Sclerus وأرسله في الحال ضد مدعى العرش الثائر . (٣٦) وأظهر الامبراطور في هذه الأزمه ما عرف عنه من سياسة إلى جانب ما هو معروف عنه من حزم . ففى الوقت الذى أرسل فيه قائده بارداس سكليرس على رأس جيش قوى فإنه أمر هذا القائد أن يتسل بأخصار بارداس فوقاس ويستميل كبار أعوانه ببذل الأموال والوعد بالعفو عنهم . وآتت هذه السياسة ثمارها ، وأخذ الأتباع

(٣٤) C. M. H., vol, p. 81

٣٥ - شلومبرجيه ص ٦٣ - ص ٦٤

٣٦ - نجد أخبار ثورة بارداس فوقاس في المصادر العربية مثلما جاء في تاريخ يحيى الانطاكى حيث قال : « ولما ملك يانيس بن الشمشقيق عصى عليه بردس بن لاون القربلاط وهو ابن أخى نقفور الملك واجتمع اليه خلق كثير ونزل قرب القسطنطينية . فجرى اليه يانيس الملك وأرسل اليه بردس السقلاروس في جيوش ضخمه فهزمه ١٠٠٠ ص ١٧

يتنصرون من حول باراداس فوقاس الذى تابعته قوات الإمبراطور إلى حصن تريابون Tyriaion الواقع إلى الجنوب الغربى من قيصرية وضيق عليه الخناق . ولما تبين عدم جدوى المقاومة فضل الاستسلام لبارداس سكليروس نظير الإبقاء على حياته وحياة أنصاره . وقد أبعده الأمير الثائر وأفراد أسرته إلى دير بجزيرة خيوس . (٣٧) وبهذا الشكل نجح تزييمسكس فى القضاء على هذا الخطر الداخلى الكبير ولم يسمح له باستفحال أو الاستمرار فترة طويلة تهدد كيان الإمبراطورية . حقيقة أن فى العام التالى ، وفى الوقت الذى كان فيه تزييمسكس قائما على حصار الروس فى سلاسترا ، حاول ليوفوقاس القربلاط أن يسترجع سلطته بعد أن تمكن وابنه تقفور من الفرار من منفاهما وجمعهما حولهما بعض الأنصار وتسلا داخل القصر الإمبراطورى . إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل منبذ بدايتها ، لتعرف باسيل كبير وزراء تزييمسكس عليها . وقد أُلقت قوات الحكومة القبض على ليوفوقاس وسُملت عينيه وأُعيد إرساله إلى المنفى . (٣٨)

ولقد آثر تزييمسكس منذ بداية عهده التفاهم مع رجال الدين وعدم الاصطدام بهم على النحو الذى فعله تقفور فوقاس ، وتتضح هذه السياسة فيما حدث عند اعتلائه للعرش . إلا أنه ليس معنى ذلك أن هذا الإمبراطور كان على استعداد للتنازل عما له من نفوذ وسلطة فى الأمور الدينية . وإن

٣٧ - هناك اختلاف فى تحديد السنة التى قامت فيها ثورة بارداس فوقاس . فهناك من المؤرخين من يرون أنها كانت سنة ٩٧١ م وذهب شلمبرجيه وفوجت ، أنظر شلمبرجيه ص ٧٦ ، C. M. H., vol IV, p. 81. ولكن هناك من المؤرخين من يرى أنها كانت سنة ٩٧٠ م وأن استسلام بارداس الثائر كان فى أواخر نفس السنة (٩٧٠ م) - أنظر :

L. Bréhier, Vie et Mort de Byzance (Paris 1947), p. 199;

(38) Bréhier, ibid., p. 199; C. M. H.; vol: IV, p: 81;

المدقق في دراسة هذا الموضوع يمكنه أن يتبين كيف أن هذا الامبراطور كان حريصاً على استعمال سلطته للتدخل في المسائل الدينية الكبرى كلما تطلب الأمر ذلك وبالشكل سمحت به الظروف . فمنذ مات خريستوفوروس Christopher بطريرك كنيسة أنطاكية التي كانت قد ضمت الممتلكات البيزنطية منذ أواخر عهد نقفور فوقاس ، كان تزيمنسكس هو الذي اقترح على بطريرك القسطنطينية بوليكتيس ، تعيين رئيس كنيسة أنطاكية الجديد ، وهو الناسك تاودروس Theodore of Colonia وكان تزيمنسكس يعرفه جيداً . (٢٩) وقد راعى الامبراطور في اختياره أن يكون من يرشحه شخصاً تقياً يصلح لهذا المنصب الديني الهام .

ولما مات بوليكتيس في ٢٨ يناير ٩٧٠ م ، قدم تزيمنسكس المرشح الجديد لمنصب بطريرك القسطنطينية وهو باسيل ، على المجلس الديني الذي عقد لاختيار خليفة لبوليكتيس . والملاحظ في اختيار تزيمنسكس في هذه المرة ، أن باسيل كان راهباً من رهبان دير أو ليمبوس في بيثينيا ، وكانت له مكانة خاصة لما عرف عنه من زهد وتقشف ، كما كان من أصدقاء الامبراطور المقربين . ويقول المؤرخ البيزنطي المعاصر ليون الشماس ، أن تزيمنسكس زكى هذا المرشح للمجلس الديني الذي عقد في القصر الامبراطوري ، مشيداً به ومعدداً لميزاته الشخصية ، وبأنه كان يعرفه معرفة شخصية . وأضاف هذا المؤرخ أن تزيمنسكس قال في هذه المناسبة : اني أقر أن الله القوى خالق السموات والارض قد خلق سلطتين كبيرتين في هذا العالم : السلطة الكنسية والسلطة الامبراطورية . والأولى وعليها شفاء الأرواح

٣٩ - كان تعيين بطريرك أنطاكية الجديد في ١٢ ربيع الأول سنة ٣٥٩ هـ (٢٣ يناير سنة ٩٧٠ م) - يعنى الانطاكي ص ١٣٨ - انظر كذلك شلومبرجيه ص ٢٨ - ص ٢٩ .

والأخرى وعليها الاهتمام بالأبدان . وهكذا فما لم تتعرض احداها للضرر ،
تحققت صلاحية العالم . وعلى ذلك فما دام ذلك الذي كان يشرف على
الكنيسة قد قضى نحبه ، فإن من حق ذلك الذي له عينان من نار ، والذي
لا يخفى عنه شيء ، أن يحل مكان البطريرك الفقيد بطريركا جديدا ، يفوق
الجميع وأجدرهم بالنهوض بأعباء هذا المنصب السامي . واني لأعرف شخصاً
جديراً كل الجدارة بهذا المنصب ، فلقد خبرته طويلاً ، وأنا أنصبه اليوم
بطريركا ، حتى لا تظل الفضائل غير العادية التي يتميز بها هذا الرجل ، والذي
منحه الرب التدبير - فضلا عنها - موهبة التنبؤ بالغيب ، حبيسة ركن مظلم
في الوجود . والحق أنه تنبأ لي بعدد كبير من الأحداث الجسام ، فتحققت
نبوءاته جميعا في الأوقات التي حددها » . (٤٠)

ووافق المجلس الديني المنعقد على تعيين البطريرك باسيل في ١٣ فبراير
سنة ٩٧٠ م . (٤١) والظاهر أن الإمبراطور كان يعتقد أن البطريرك الجديد
سوف يكون سهل الانقياد له ، كما كان ينتظر أن أمور الكنيسة ورجال
الدين سوف تستقر وتنتظم في عهده . ولكن الأمور تطورت على عكس
ما كان يتوقع . وقد قام نزاع بين الإمبراطور والبطريرك انتهى بعزل
الآخر من منصبه سنة ٩٧٤ م . وكان من أسباب هذا الخلاف الذي وقع
بينهما ، تصرف البطريرك أثناء الصراع الذي قام بين تزيمسكس والبابوية في
التسابق على فرض النفوذ في أبوليا وكلاريا في جنوب إيطاليا . فإن بطريرك
القسطنطينية قد رفض مجازاة تزيمسكس في تحقيق رغبته في قطع العلاقات

٤٠ - المرجع السابق ص ٢٢

G. M. II., vol: p. 80.

٤١ - شلومبرجيه ص ٣٥ - ص ٢٦ ،

مع كنيسة روما وهناك أيضا رواية تشير إلى أن البطريرك باسيل اتصل بأحدى الشخصيات الكبيرة في الامبراطورية وعرض عليه التاج الامبراطورى . (٤٢) وإذا صح ذلك ، فإن المسألة لا بد وأن أعتبرت خيانة عظمى هذا وقد أمد تصرف البطريرك مع رجال الكنيسة الامبراطور بسبب آخر لا تتخلص منه فإن باسيل بعد توليه منصبه ظهر منه تزم شديد وأراد أن يفرض على الأساقفة وغيرهم من رجال الدين نظاما شديدا صارما . وبالبح في مراقبة سلوكهم إلى حد أدى إلى الشعور بالضيق بينهم . وقد ضج هؤلاء بالشكوى وتقدم عدد منهم بشكواهم إلى الامبراطور طالبين منه التدخل .

وأمر الامبراطور باستدعاء البطريرك للثول أمامه ومحاكمته . ولكن باسيل رفض ودفع في رفضه بأنه لا يجوز محاكمته ، طبقا للشريعة المسيحية ، إلا أمام مجلس مسكونى ، الأمر الذى كان يستلزم دعوة بابا روما . وبطبيعة الحال لم يوافق الإمبراطور على ذلك ، وقام بعزل باسيل ونفيه من القسطنطينية إلى دبر سكا ماندر في سهل طروادة . وعين بعد ذلك بديلا لباسيل وهو أنطونيوس الذى كان من رهبان دير ستوديون Studion المعروف (٤٣) .

بينما فيما سبق موقف تزييمسكس من رجال الكنيسة وبالذات موقفه من بطريرك القسطنطينية . وحتى تكتمل صورة علاقة الامبراطور مع رجال الدين بصفة عامة ، لا بد وأن نشير إلى علاقته مع الطوائف الدينية الأخرى وبالذات جماعات الرهبان . لقد كان سلفه الامبراطور

(42) Fliche et Martin, Histoire de l'Eglise, vol. VII, p. 701.
Gfroere, Byzantinische Gesch.; vol. II, p. 255.

نقفور من قبل تربطه علاقات وثيقة مع القديس أثناسيوس الأثومى Athanasius of Athos الذي وضع أساس دير لورا المجيدة The Great Lauria . والمعروف عن تزييمسكس تدينه وعلاقاته الطيبة بالرهبان . وقد أصبح هو كذلك على صلة طيبة بالقديس أثناسيوس وسمح له بمواصلة بناء ديريه والتوسع فيه ، حتى أن عدد الرهبان زاد زيادة كبيرة في سنة ٩٧٠ م ، لدرجة تطلبت وضع لأئحة تنظيمية جديدة عرفت باسم Typikon . إلا أن الرهبان لم يتقبلوا هذه الأئحة تقبلاً حسناً ، ولم يهتموا بتطبيقها واعتبروا أن القديس أثناسيوس ولأئحته غاية في الشدة . ولجأوا إلى الامبراطور الذي بحث الأمر وتبين ما كان بهذه الأئحة من نقص . إلا أنه اتخذ جانب القديس أثناسيوس وناصره . وفي الاجتماع الديني الذي أمر تزييمسكس بعقده ، والذي حضره هذا القديس وبعض كبار رجال الكنيسة سنة ٩٧٢ م ، أصدر الامبراطور قراراً بالموافقة على لأئحة أثناسيوس ، كما أقر الإبقاء على جميع الامتيازات الخاصة بالدير المذكور والتي كانت منحه له الامبراطور نقفور . وفضلاً عن ذلك وافق تزييمسكس على أن يكون الدير هيئة دينية مستقلة تخضع لرئيسه . ولا زالت النظم التي حددت في هذا الاجتماع سارية ويجرى العمل بها إلى يومنا هذا . (٤٤)

ويتضح مما سبق عرضه أن تزييمسكس أهتم في سياسته لداخلية بالشئون الدينية والاصلاحات الكنسية ، مع حرصه على ممارسة ماله من نفوذ وسلطان على الكنيسة نفسها . وعلى العموم فإن علاقته برجال الكنيسة كانت أفضل نسبياً من علاقة نقفور فوقاس بهم .

ولقد كان في المجال الخارجي أن كرس تزيمسكس معظم جهوده وأبلى في ذلك بلاء حسنا أكسبه المجد والشهرة . وكان عليه في هذا المجال أن يكافح في جبهات متعددة ضد عناصر مختلفة ، وخاصة الروس والبلغار في شبه جزيرة البلقان ، والعناصر اللاتينية بما في ذلك الامبراطورية الغربية والبابوية في شبه الجزيرة الايطالية ، والمسلمين في الجبهة الشرقية .

كان من أهم المشاكل الخارجية التي ورثها تزيمسكس عن نقفور فوقاس مشكلة الخطر الروسي في الجبهة البلغارية . فهناك كانت الأمور قد تعقدت نتيجة لاستعانة نقفور بالروس تحت قيادة الأمير سفياتوسلاف . ذلك أن على أثر الانتصارات التي أحرزها الروس على البلغار استقر السابقون في البلاد البلغارية التي غزوها ، وأخذوا يتطلعون لمهاجمة أراضي الامبراطورية البيزنطية نفسها . وكان مما شجعهم على ذلك موت نقفور في ربيع سنة ٩٧٠ م تقدم الأمير سفياتوسلاف بقواته وأستولى على فيليمو بوليس الواقعة على الحدود البيزنطية ، ثم توغل في تراقيا ومقدونيا ، مخربا كافة البلاد التي وقعت في طريقه . وأصبحت قواته على مقربة من القسطنطينية نفسها . وجاء في إحدى الحوليات الروسية المعاصرة أن سفياتوسلاف « قد أوشك على الوصول إلى مدينة القيصر — أي القسطنطينية » . (٤٥) هذا وقد ظهر احتمال قيام تحالف روسي بلغاري ضد بيزنطة . وحاول تزيمسكس تسوية المشكلة الروسية بالإلتجاء إلى الطريقة الدبلوماسية وعقد اتفاقية مع سفياتوسلاف وعرض عليه أن يدفع له المبلغ الذي كان نقفور قد أتعق مع الروس عليه نظير مساعدتهم له في الحرب ضد البلغار . (٤٦) إلا أن هذه

«The Laurentian Chronicle»

٤٥ - هذه الحولية تعرف باسم

Vasiliev, Byz. Emp., p. 319

انظر :

٤٦ - شلومبرجيه ص ٤١

المحاولة باءت بالفشل ، حيث أن السيد الجديد في بلغاريا أعلن أنه لا يرضى بشيء أقل من أن يتخلى له البيزنطيون عن ممتلكاتهم في أوروبا بما في ذلك العاصمة نفسها ، وانسحابهم إلى ممتلكاتهم الآسيوية . (٤٧)

وهكذا أصبح من الضروري على تزييمسكس الالتجاء إلى قوة السلاح لمواجهة الروس . وكانت حملاته ضدهم من أبرع الحملات العسكرية في التاريخ البيزنطي . وكانت بداية هجوم تزييمسكس المضاد في ابريل سنة ٩٧١ م . ولم يستغرق هذا زمنا طويلا ، الا أنه كان شديدا في قوته وحاسما في نتائجه . بدأ تزييمسكس هجومه بالتقدم ضد مدينة برسلاف Preslav ، عاصمة البلغار التي كانت في أيدي الروس ، وتمكن من اقتحام المدينة بعد معركة عنيفة . وكان من الأسرى الذين وقعوا في قبضته القيصر البلغاري المعزول . وعهد تزييمسكس إلى استمالة العنصر البلغاري في صراعه ضد الروس ، ولذا فقد وافق على الابقاء على حياة هذا القيصر بل وعهد اليه بحكم البلغار . وكان لانتصار تزييمسكس في برسلاف وتعيينه لهذا القيصر وقعه عند البلغار الذين أخذوا يتخلون عن سفياتوسلاف . وتقدم تزييمسكس بعد ذلك من برسلاف إلى مدينة سليسترا Silistra (Duro storus) الواقعة على الدانوب ، والتي كان الأمير الروسي أعتمصم بها واتخذها قاعدة لمقاومته . وأحاطت قوات تزييمسكس بسليسترا برا في الوقت الذي حاصرتها فيه القوات البحرية البيزنطية بحرا مستعملة في حصارها النار الاغريقية . وضيق المحاصرون الخناق على الروس . وفي أواخر يوليو سنة ٩٧١ م فشلت آخر محاولاتهم للتخلص من الحصار الذي ضرب حولهم . وعلى ذلك اضطر سيفياتوسلاف للاستسلام للإمبراطور بمقتضى الاتفاقية التي وقعت بينها

في الشهر المذكور . (٤٨) وقد وصلت إلى أيدينا نصوص تلك الاتفاقية عن طريق إحدى الحوليات الروسية المعاصرة . (٤٩) ووافق سيفياتوسلاف على الانسحاب من البلاد البلغارية في الحال ، كما وعد ألا يعاود الظهور بمطافئ البلاد البلقانية ، وألا يشن أى هجوم على خرسون Cherson التابعة للإمبراطورية البيزنطية . وفضلا عن ذلك كله ، فقد وعده بمساعدة البيزنطيين عسكريا في القتال ضد أعدائهم . وسمح تزيمسكس بعد عقد هذه الاتفاقية بإرسال المؤن الغذائية للقوات الروسية التي كانت تتضور جوعا بسبب الحصار الذي كان مفروضا عليها . كما وافق على منح الروس إمتيازاتهم التجارية السابقة . وأتخذ سيفياتوسلاف بعد ذلك طريق العودة إلى وطنه . إلا أن قبائل الأتراك البجناكية Patzinaks فاجأته في الطريق وأوقعت به وقتلته ، واتخذ رئيسها من رأسه كأسا لشرابه . (٥٠) وممها يمكن من الأمر ، فقد حققت الانتصارات الكبرى التي أحرزها تزيمسكس على الروس فئدتين كبيرتين . الأولى وهي التخلص من الخطر الروسي الذي عرض كيان الإمبراطورية للخطر . والفائدة الثانية وهي فرض النفوذ البيزنطي على جميع أنحاء الجزء الشرقي من بلغاريا .

وقد نالت السياسة البيزنطية التقليدية المدايدة للبقاء على النفوذ

٤٨ - بشأن تحقيق السنة التي تغلب فيها تزيمسكس على الروس أنظر الملحق السادس .

٤٩ - بخصوص نصوص الاتفاقية البيزنطية الروسية ارجع إلى :

Russian Primary Chronicle (Eng. trans. Cross, 1953) p. 89 ff.

انظر كذلك شلومبرجيه ص ١٤٩ - ص ١٦٨

شلومبرجيه ص ١٧١ - ١٧٢ ؛ Ostrogersky, p. 262 (50)

البيزنطى فى جنوب ايطاليا وصقلية اهتمام تزيمسكس ، ولو أن الأحوال فى هذه الأنحاء لم تتطور بشكل خطير يستدعى تدخلا عسكريا كبيرا على النحو الذى حدث فى الميادين الأخرى . وللمحافظة على ما كان لبيزنطة من نفوذ فى إيطاليا ، لجأ تزيمسكس إلى الطرق الدبلوماسية للاتفاق مع الامبراطورية الغربية التى كانت تمثل إحدى القوى المنافسة له جنوب ايطاليا ، وذلك بعقد اتفاقية معها ، ودعمها بعقد زواج سياسى بين الطرفين الغربى والبيزنطى . فقد وصلت إلى بزنطة فى أواخر سنة ٩٧١ م سفارة لـ لـانية جديدة لتفتح من جديد باب المفاوضات التى كانت توقفت فى عهد نقفور فوقاس ، والخاصة بالتمهيد لعقد هذا الزواج . وتم الاتفاق على زواج ثيوفانو ، ابنة رومانوس الثانى وأخت الامبراطور باسيل الثانى ، من وريث العرش الامبراطورى فى الغرب الذى توج فيما بعد باسم الامبراطور أوتو الثانى Otto II . وأرسلت هذه الأميرة إلى ايطاليا وتم عقد قرانها فى روما فى ١٤ أبريل سنة ٩٧٢ (٥١) م . وهكذا فإن الصراع مع الامبراطورية الغربية الذى كان تطور فى ايطاليا بسبب موقف نقفور الشديد ، قد خمد على الأقل لفترة من الزمان ، مع المحافظة على الحدود فى حالتها الراهنة .

أما القوة السياسية الرئيسية الأخرى التى كانت تواجه البيزنطيين فى جنوب ايطاليا وصقلية ، وهى قوة المسلمين ، فلم تقم بتهديد كبير للنفوذ البيزنطى هناك وخاصة فى المرحلة الأولى من عهد تزيمسكس . إذ أن الفاطميين الذين دأبوا على فرض نفوذهم فى هذه الأنحاء ، نقلوا مركز حكمهم من شمال أفريقيا إلى القاهرة وعهدوا بحكم ممتلكاتهم فى صقلية إلى صهاهم .

وترتب على ذلك أن خفت حدة الهجوم الاسلامي هناك لفترة من الزمان. (٥٢)

ومنذ بداية عهده كان تزييمسكس متحمساً ، مثل سلفه نقفور فوقاس ، لمواصلة الهجوم ضد المسلمين في الشرق الأدنى واسترجاع الأراضى المسيحية المقدسة ، الأمر الذى سنوضحه فيما بعد . الا أن مشا كله الأوربية لم تمكنه من تكريس جهوده في الشرق في الفترة الأولى من عهده . وعلى كل حال ، فإن تزييمسكس أثناء هذه الفترة ، وفي علاقاته الأوربية حاول أن يستغل ما كان للامبراطورية من نفوذ ، لكي يمهّد لما كان ينوى القيام به من هجوم على الشرق ، وذلك باتخاذ خطوات خاصة لإضعاف قوى المسلمين العسكرية . ذلك أنه أدرك منذ بادىء الأمر خطورة آثار حركة التجارة التى قامت بها المدن التجارية الايطالية وخاصة البندقية مع المسلمين . اذ كان التجار من هذه البلاد يمدون المسلمين بما يلزمهم من الحديد والأخشاب اللازمة لبناء السفن ، كما أمدوهم بأنواع من الأسلحة مثل الدروع والتروس والسيوف والرماح وغيرها . حقيقة أن هذه التجارة عادت على التجار الايطاليين بالربح الوفير ، الا أنها كانت خطيرة في نتائجها ، من حيث أنها عملت على زيادة القوة العسكرية لدى المسلمين ، الذين كانوا أعداء للبيزنطيين . ولم يكن هذا الوضع بالذى يرضى عنه الاباطرة المقدونيون . وحيث أن البندقية كانت تحت السيادة البيزنطية ، فقد عمل تزييمسكس على التدخل لايقاف هذه التجارة . وتذكر المصادر التاريخية أن تزييمسكس أرسل في يوليو سنة ٩٧١ م وفداً خاصاً إلى البندقية للاحتجاج على هذه التجارة التى تقوم بها سفنها مع المسلمين .

٢ - بخصوص تفاهيل العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين في جنوب ايطاليا في عهد تزييمسكس أنظر : شلوميرجيه ص ٢٠٧ - ص ٢١٨ ، البار المربني : الدولة البيزنطية ص ٤٧٠ - ٤٧١ ، حسن ابراهيم حسن وطه احمد شرف : المعز لدين الله الفاطمي (القاهرة - ١٩١٨) ص ٦١ - ص ٦٦ .

وهدد هذا الوفد، باسم الأمبراطور، بإحراق هذه السفن وما عليها من شحنات إذا لم يحرم البنادقة تجارتهم المذكورة . وعلى ذلك اضطر البنادقة إلى أن يتخذوا من الاجراءات ما يلزم لترضية الامبراطور . وقد اجتمع الدوج Doge بطرس الرابع كانديانو Candiano مع المسؤولين في البندقية وعدد كبير من أعيان المدينة وأهلها . وبعد نقاش طويل ، اتخذ المجتمعون قراراً بعدم بيع السلع المحظورة للمسلمين . (٥٣) وأن هذا القرار يبين لنا ما كان تزييمسكس يمارسه من نفوذ على البندقية ، كما أنه في نفس الوقت يدل على مدى اهتمامه بالصراع الذي اعتزم القيام به ضد المسلمين في الشرق .

وعلى كل حال فبعد أن نجح تزييمسكس في القضاء على خطر الروس وثورة بارداس فوقاس ، وتسوية علاقائه مع الأمبراطورية الغربية ، أصبح في استطاعته أن يولي اهتمامه لشئون الامبراطورية في الشرق الأدنى . وبدءاً من منتصف سنة ٩٧٢ م كرس نشاطه لهذا الميدان حيث ظهر بنفسه على رأس عدة حملات لينازل المسلمين ويشرف شخصياً على تنفيذ السياسة البيزنطية .

٣٣ - انظر الوثيقة الخاصة بضغط تزييمسكس على البنادقة والتعهد الذي أنجزه منهم وحكومتهم بحظر الاتجار في سلع معينة مع المسلمين ، في الملحق الثاني للكتاب .

الفصل الثالث

الشرق الأدنى الاسلامى قبيل هجوم تيمسكس

اضمحلال الدولة العباسية وتغلب بنى بويه على العراق — حكم امير
الامراء البويهى بختيار — امارة الحمدانيين فى اقليم الجزيرة : ابو تغلب
الحمدانى وهشامكاه — الاضطرابات الداخلية فى العراق : الصراع بين
الأتراك والبويهيين وآثاره

اضطراب الاحوال السياسية فى الشام — الاختميدون وصراعهم مع اماره
حلب الحمدانية — القرامطة وتدخلهم فى الشام — نشاط القبائل العربية
بداية التوسع الفاطمى فى الشام — الصراع بين الفاطميين وخصومهم فى
الشام : مقاومة السنينيين وحروب القرامطة ، حركة المغامر التركى الفتكى
موقف المسلمين بالنسبة للجهاد ضد الهجوم البيزنطى — الحالة المعنوية
بين المسلمين امام الخطر البيزنطى

عند اعتلاء الامبراطور تيمسكس عرش الامبراطورية البيزنطية ، كانت
ظروف المسلمين فى الشرق الأدنى مهيأة إلى حد كبير لى يواصل هذا
الامبراطور عملية الهجوم التى كان البيزنطيون قد بدأوها ضد المسلمين فى
الشرق . فمنذ أواخر القرن التاسع الميلادى ، وفى الوقت الذى كانت فيه قوة
بيزنطة آخذة فى الإردىاء والنمو ، كان عهد قوة الدولة الاسلامية الكبرى
التي شيدها العباسيون الأول قد ولى ، وأخذت هذه الدولة تعاني من الانحلال
السياسى وما ترتب على ذلك من ضعف . فقد تجزأت تلك الدولة إلى
دويلات متنافسة متعددة ، فى الوقت الذى ضعفت فيه سلطة العباسيين
المركزية . ولقد أصبح خلفاؤهم مغلوبين على أمرهم فى العراق بل وفى
نفس عاصمة دولتهم ، حتى أصبحوا أشبه بالألعوبة فى أيدي العناصر التي

حكمت بغداد والعراق . فقد تغلبت على الجزء الشرقى من الدولة العباسية العناصر الفارسية ووطدت سلطتها على حساب نفوذ الخلفاء العباسيين . وقد قام السامانيون فى الجزء الشرقى من بلاد فارس متخذين من بخارى وممرقند عاصمتين لهم وحكموا فترة أستغرقت معظم القرن العاشر الميلادى (٩٠٣ - ٩٩٠ م) . كما قامت أسرة فارسية أخرى فى الجزء الغربى من بلاد فارس وأخضعت العراق وبغداد لحكمها . وكانت هذه هى الأسرة البويهية الشيعية التى استمر حكمها فى بغداد من سنة ٩٤٥ حتى سنة ١٠٥٥ م .

حقيقة أن أمراء هذه الأسرة البويهية لم يقنعوا على حكم بنى العباس فى بغداد ، إلا أنهم أستأثروا بالسلطة الفعلية من دونهم . وللاستشهاد على مدى ضعف العباسيين حينئذ ، يكفى أن نشير إلى ما حدث فى عهد أول أمرائهم ، معز الدولة . فان هذا الأمير الذى أصبح يشغل وظيفة « أمير الأمراء » أصر على ذكر اسمه مع اسم الخليفة فى خطبة الجمعة ، وأن يسك اسمه كذلك على العملة .^(١) بل لقد تمكن من القبض على الخليفة المعاصر له وهو المستكفى وعزله وسمل عينيه ، وقام بعد ذلك بتعيين خليفة له وهو المطيع (٩٤٦ - ٩٧٤ م) .^(٢) ولا يخفى ما كان فى ذلك من الضعف والإذلال اللذين عانى منهما الخلفاء العباسيون فى عصر بنى بويه . والواقع أن البويهيين طوال حكمهم واصلوا سياستهم القائمة على إبعاد الخلفاء عن ممارسة شؤون الحكم ، وصاروا يولونهم ويعزلونهم وفق هواهم بعد أن صارت السلطة الحقيقية لهم .

وقد كان لظهور العناصر الفارسية على مسرح الحوادث السياسية

١ - مسكويه : كتاب تجارب الأمم (نشرة ف اميدروز - القاهرة القاهرة ، ١٩١٥ ج ٢ ص ٨٤ - ٨٥

٢ - كان خلع المستكفى فى ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) - ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٦ - ص ١٧٧ ، مسكويه ج ٢ ص ٨٦ - ص ٨٧

واستحوذهم على السلطة في بغداد وما يتبعها في العراق ، آثاره السيئة على حدود الاسلام المشتركة مع الامبراطورية البيزنطية . فإن محور اهتمام هذه العناصر كان بلاد فارس والاقليم التابعة لها . ولم يكثرثوا كثيراً بشئون شمال العراق (اقليم الجزيرة) أو البلاد الشامية أو ما يليها من البلاد الاسلامية . وفضلاً عن ذلك فإن المنافسات التي قامت بين أمراء البيت البويهي لم تكن بالتي تساعد في التغلب على مشاكلهم المحلية والاهتمام بشئون اقليم الجزيرة والشام التي أصبحت هدفاً للهجوم البيزنطي .

وكان أمير الأمراء البويهي المسئول عن شئون الخلافة العباسية ببغداد والعراق عامة أثناء الهجوم الذي قام به كل من نقفور فوقاس وزيتمسكس هو عز الدولة بختيار^(٣) وهو ابن معز الدولة وثاني الأمراء البويهيين الذين حكموا في العراق . وكان أقل من أبيه خبرة ودراية بالشئون السياسية بدولته ، ولم تتوفر لديه المقدرة لمواجهة المشاكل المختلفة التي كان عليه أن يواجهها . وأن الوصية التي اوصاه بها أبوه عند موته ، والتي وصلت إلى أيدينا ، تشير إلى السياسة التي نصحه أبوه باتباعها كما تدل على المشاكل والعناصر التي كانت يخشى منها على حكمه . وقد قال المؤرخ مسكويه في ذلك « كان أبوه معز الدولة حين أيقن بالتلف ، ووصاه بطاعة ركن الدولة واستشارته في كل ما يعرض له من مهم ، وكذلك بطاعته لابن عمه عضد الدولة ، لأنه أسن منه وأقوم بالسياسة . ووصاه بأقرار كاتبه أبي الفضل العباسي بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس ، فإنهما أكفئ من غيرها وأعرف بوجوه الخدمة . ووصاه بمداواة الديلم وإزاحة عنهم عند أوقات استحقاتهم ،

٣ — كانت مدة حكم بختيار هي ٣٥٦ - ٣٦٧ هـ = ٩٦٦/٩٦٧ - ٩٧٧

لئلا يخرقوا هيبتهم بالشغب وطلب الفتن. ووصاه بالإحسان إلى الأتراك ، فإنهم
حجرة عسكره ، وإذا رابه الديلم ريب أمكنه أن يقيمهم . ووصاه بالإحسان إلى
الأتراك بكبار الحاشية وصغارهم وأن يجزيهم على طاعتهم ورسومهم . « (٤)

وبالرغم من توجيهات أبيه وما أوصاه به وما كانت تقتضيه الظروف
الداخلية والخارجية بدولته من حذر وحزم وحسن تصرف ، أنصرف
بختيار إلى حياة المجون . وكان ما أظهره من سوء التصرف وسوء تدبير
أمور الدولة ، موضع نقد ولوم من جانب عدد من مؤرخي هذا العصر
أمثال مسكويه وابن الأثير . (٥) كما أن ذلك أدى إلى اضطراب الأحوال
الاقتصادية وظهور ضائقة مالية عاتية منها البلاد ، هذا إلى جانب ما تسبب
فيه بختيار من إثارة العناصر المعادية له مما أدى إلى كثرة الفتن والاضطرابات
بداخل مملكته . ونشهد أثناء عهده إستياء العناصر التركية التي كانت
تكون جزءاً كبيراً من جيش بغداد والتي كان على رأسها الخاحب التركي
سبكتكين وقد تطور هذا الشعور وأدى إلى اشتباكات عسكرية وقتال
بين الأتراك والديلم من أنصار بختيار . كما عانى المسلمون في عهده بختيار
من كثرة قيام الاشتباكات بين أهل السنة والشيعة واشتراك العامة فيها .
وقد أسهمت جماعة « العيارين » كذلك بقدر كبير في اضطراب الأحوال
ببغداد . وهذه الجماعة نوع من نظام الفتوة يشبه جماعة « الأحداث »
التي ظهرت في بعض مدن الشام . وكانت عناصر العيارين تتجمع عادة من
المحاربين من العناصر الفقيرة . وبشكل عام كان مسلموهم أكثر عنفاً

٤ - مسكويه ج ٢ ص ٢٢٤ - راجع كذلك الرواية المشابهة لهذه الرواية التي
جاءت في ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٧

٥ - مسكويه ج ٢ ص ٢٢٤ - ص ٢٢٥ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٧

من « الأحداث » في الشام . وقد لعب العيارون دوراً هاماً في تشكيل جبهة معارضة أهلية ضد السلطات الحكومية ، كما أسهموا في بعض الحالات في الجهاد في مناطق الثغور . وقد كان للعيارين نشاط ملحوظ في أحداث العراق عامة وبغداد خاصة خلال الفترة التي تعرضت فيها بلاد الجزيرة لهجوم الامبراطور نزيغسكس . (٦) وفصلاً عن ذلك ، فلم يكن لبختيار صاحب السلطة العليا على البويهيين ، إذ كان عليه أن يعمل حساب همه ركن الدولة صاحب الري وهمذان ، وابن همه عضد الدولة الذي كان يحكم فارس . وقد كان هذا الأخير على قدر كبير من القوة ، وكان مصدر إزعاج كبير لبختيار . فان عضد الدولة كان طموحاً راغباً في التوسع وضم أملاك لبختيار . وكان عضد الدولة هو الذي تمكن في النهاية من بلوغ أكبر درجة من القوة تصل إليها دولة البويهيين .

هذا وقد نجح الحمدانيون في إقتطاع إمارة أو دويلة خاصة بهم باقليم الجزيرة في شمال العراق مركزها مدينة الموصل^(٧) . واستمرت هذه الإمارة

٦ - امتد نشاط العيارين في الفترة الممتدة من القرن الرابع الهجري (١٠ م) إلى القرن السادس الهجري (١٢ م) . وبخصوص تفاصيل ما قام به العيارون في عهد هجوم نزيغسكس راجع أحداث السنوات ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ هـ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٤ ، ص ٣٤٨ ، ٢٥٠ - ص ١٥٥ ، مسكويه ج ٢ ص ٢٣٤ - ص ٢٣٧ ، ص ٣٠٤ - ص ٣٠٥ ، ص ٣٢٨ ، كتاب الفتوة (تد . مصطفى جواد وغيره - ١٩٦٠ م) ص ٢٤ ، ص ٢٧ ، ص ٣٠ وغيرها - انظر كذلك التعليق على نظم العيارين في الهجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٧ الحاشية (١) ،

Fr. Taeschner, « Ayyar », The Encyclopaedia of Islam (New Edition) vol. I, 794.

- عرف اقليم الجزيرة الواقع في شمال العراق عند بعض الجغرافيين العرب باسم « أقورة » ولتحقيق هذا الاسم انظر الملحق السابع .

من سنة ٩٢٩ إلى سنة ٩٩١ م . وكان المسئول عنها وقت هجوم تزييسكس الأمير أبو تغلب الابن الأكبر لناصر الدولة الحمداني . (٨) وقد وقع على عاتق هذه الإمارة العبء الأكبر في مواجهة الهجوم البيزنطي على شمال العراق . وبشكل عام لم تكن الأحوال الداخلية أو الخارجية لهذه الإمارة بالتي تسمح لها بالاستعداد أو التفريغ لمقابلة الخطر البيزنطي . فقد عانت من الصراع الداخلي الذي قام بين أبناء ناصر الدولة الذين انقسموا إلى قسمين متنافسين ، أحدهما يناصر أبا تغلب والآخر ويناصر أخاه حمدان . وعلى أثر انتصار أبي تغلب على أخيه لجأ الأخير إلى أمير الأمراء البويهى بختيار طالبا المساعدة (٩) . وكان من الطبيعى أن يرحب بختيار بهذه الفرصة ليتدخل في شئون إمارة الموصل ويفرض سلطانه عليها متذعرا برغبته في نصرة الأمير حمدان . وترتب على ذلك إعلان الحرب بين بختيار وأبي تغلب . فقد توجه بختيار على رأس حملة إلى الموصل في ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ (ديسمبر سنة ٩٦٣ م) بغرض الاستيلاء عليها . ولما بلغت أبا تغلب هذه الأخبار ، أخلى المدينة من الميرة ثم رحل عنها وتمكن بختيار من دخولها . أما أبو تغلب فقد أنتهز فرصة تغيب عدوه عن بغداد وخلوها من جنده ، فأتجه وعسكر عندها . وكاد أن يستولى عليها . واستمر الخلاف بين الطرفين إلى أن اتفقا على عقد صلح ، كان من شروطه رحيل بختيار عن الموصل ورجوع أبي تغلب إليها ، وعقد زواج سياسى ، حيث وافق بختيار على زواج ابنته من أبي تغلب . كما أنعم بختيار على أبي تغلب بلقب سلطان . وتم رحيل بختيار عن الموصل في ١٧ رجب ٣٦٣ هـ (١٣ أبريل سنة ٩٧٤ م) . (١٠)

٨ - مدة حكم أبي تغلب كانت (٣٥٨ - ٣٦٩ هـ = ٩٦٨ / ٩٦٩ - ٩٧٩ / ٩٨٠)

٩ - كان انتصار أبي تغلب عليه أخيه سنة ٣٥٩ هـ (نوفمبر ٩٦٩ - ٩٧٠ م)

١٠ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٩ - ص ٢٥٠

وثلث هذه المشكلة السياسية مشكلة أخرى أكبر منها وأكبر خطراً على إقليم الجزيرة والعراق عامة . فلقد تعرضت هذه البلاد لمرحلة خطيرة من الإضطراب الداخلي نتيجة لتصارع القوى السياسية المختلفة بها . وبدأت هذه المرحلة قبيل الحملة الكبرى، التي قام بها الامبراطور نيمسكس في خريف سنة ٩٧٤م على بلاد الجزيرة وأراد أثناءها أن يستولى على بغداد نفسها، واستمرت إلى ما بعد رجوع هذا الإمبراطور إلى بلاده . وقد شهدت هذه المرحلة اصطداماً بين أهل السنة والشيعة ، كما شهدت نشاط العيارين في بغداد . وفضلاً عن ذلك فقد وقع قتال خطير بين الديلم وعلى رأسهم بختيار ، والأتراك وعلى رأسهم الحاجب سبكتكين ، ومن بعده القائد التركي أفتكين . واشتركت في هذا التصارع الداخلي قوات ركن الدولة البويهى صاحب الرى وهمذان وقوات عضد الدولة البويهى صاحب فارس، وكذلك قوات بعض الأمراء العرب بما فيهم أبي تغلب صاحب الموصل ، على أثر استدعاء بختيار لهم وطلب النجدة منهم . ومن الواضح أن هذا الإضطراب العام الذي ساد العراق في هذه الفترة الحرجة التي وقع فيها هجوم نيمسكس قد أدى إلى إضعاف مقاومة المسلمين في البلاد الواقعة في طريق تقدم البيزنطيين ، وذلك لانشغال المسؤولين في العراق بصراعهم الداخلي . وقد ترتبت على ذلك نتائج وخيمة بالنسبة للمسلمين .

ولتفسير هذه المرحلة المذكورة من الإضطراب يجب أن نرجع أولاً إلى الضائقة المالية التي عانى منها بختيار وازدادت شدة ، في الوقت الذي طالب فيه الجنود باجورهم المتأخرة . وقد تخرج مركز بختيار . وإلى جانب ذلك، فقد كان بختيار متضايقا من نفوذ زعماء الأتراك وعلى رأسهم سبكتكين وما كان تحت أيديهم من اقطاعات وثروة . ولذا ، فلما أشار عليه بعض

مستشاريه بالقبض عليهم ومصادرة اقطاعاتهم حتى يحدد من نفوذهم ويزيد من موارده المالية ، صادف ذلك هوى في نفسه ، وعلى ذلك ، فقد أصدر وهو بالأهواز أمراً بالقبض على زعمائهم ومصادرة أموالهم واخراج عدد منهم من البلاد التابعة له . وكتب بختيار إلى أتباعه في بغداد بذلك مع النص على مصادرة اقطاع سبكتكين وعزله من الحجابة .

وكان لهذه الإجراءات التي اتخذها بختيار رد فعل كبير بين الاتراك ، وسرعان ما نشب الصراع بينهم وبين عناصر الديلم في كثير من بلاد العراق . فقد جمع سبكتكين أنصاره من الاتراك في بغداد لمقاومة البويهيين . وانحازت اليه كذلك طوائف العامة من السنين . أما الشيعة فتحيروا للجماعة بختيار . وقد تمكن سبكتكين من التغلب على أخوى بختيار في بغداد ونهب بيوتها وأحرقها وأخرجها وأقاربها من المدينة . وأثناء هذا الإضطراب الداخلي ببغداد، نسمع عن مهاجمة جماعات العيارين للتجار واعتدائهم على أموالهم ومنازلهم وحريمهم . وقد جاء في تاريخ ابن الجوزي في وصف نشاطهم اذ ذاك ، أن العيارين « ركبوا الخيل وتلقبوا بالقواد وأخذوا الخفر من الاسواق والدروب » ولما خشى الخليفة المطيع على نفسه من اضطراب الاحوال وحاول الخروج من بغداد ، قبض عليه أنصار سبكتكين الذي اجبره على التنازل عن الخلافة لابنه الطائع في ٥ أغسطس ٩٧٤ م (١٣ ذي القعدة ٣٦٣ هـ) . واعترف الخليفة الطائع بسبكتكين أميراً للأمرء ، كما منحه لقب ناصر الدولة . وهكذا فقد صارت للاتراك الغلبة على بغداد (١١) .

١١ - مسكويه ج ٢ ، ص ٣٠٣ - ص ٣٢٨ ، ابن الاثير ج ٨ ص ١٥٠ - ص ٢٥٢ .
يحيى الانطاكي ص ١٤٢ - ص ١٤٣ ، ابن كثير : ابدية والنهاية ج ١٨ ص ٢٧٩

وأمام هذه الأحداث ، اضطر بختيار للقيام من الاهواز والإتجاه إلى بغداد لمواجهة التطورات التي كادت أن تعصف بملكه ، ووصل إلى واسط . وإلى جانب ذلك طلب المساعدة من عمه ركن الدولة وابنه عضد الدولة فناخسرو . وجهاز ركن الدولة عسكرياً مع وزيره ابن العميد ، وكتب إلى ابنه عضد الدولة يحثه على القيام لمساعدة بختيار ، إلا أن عضد الدولة نلصقاً في عمل ذلك . فإنه مع ما أظهره من استعداد لمجده ، كان في حقيقة الأمر ، يرغب في تحقيق مصالحه الذاتية ، وضم العراق لملكاته الخاصة . وعلى ذلك فقد أثر عضد الدولة الانتظار حتى تضعف قوة المتحاربين في القتال ، فيتدخل بعد ذلك . وطلب بختيار كذلك المساعدة من ولاية الأطراف التابعين له بما فيهم أبي تغلب الحمداني أمير الموصل ، وزوج ابنته : ووعده بختيار أبا تغلب بأن يسقط عنه الجزية التي كان يفرضها عليه . (١٢) وقد رحب أبو تغلب بهذه الفرصة ليتدخل في هذا الصراع ويستغله لصالحه . وسارع بارسال أخيه أبا عبدالله الحسين إلى تكريت على رأس جيش ، مترقباً خروج الأتراك من بغداد لمقابلة بختيار لينزل عليها ويحتلها . (١٣)

ولقد خرج الأتراك تحت قيادة سبكتكين وساروا لمقابلة بختيار عند واسط . ولما توفي سبكتكين قدموا للرئاسة عليهم أفتكين ، الذي كان أحد كبار الأتراك في بغداد . (١٤) وقد أخذ اسمه في الظهور في عهد بختيار .

١٢ - بخصوص المراسلات التي دارت بين بختيار والأمراء الذين طلب منهم المساعدة ، انظر مسكوية ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣٢

١٣ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٥

١٤ - ذكر هذا القائل في بعض المصادر الغربية باسم « الفتنين » واسمه بالكامل أبو منصور التركي الفراء ، وهو في الأصل مولى من الدولة بن بويه - وقد كانت وفاة كل من سبكتكين والخليفة المزمول للطبيع في دير الماقول وقد حملا بعد ذلك إلى بغداد - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٥ ، يحيى الأنطاكي ص ١٤٤

وكان هذا القائد فارساً مبرزاً تميز بالشجاعة وشدة المراس والمهارة في القتال ، كما كان رجل دولة يعرف كيف يقابل الظروف السياسية المختلفة بمهارة ومهارة . وكانت هذه المميزات هي التي جعلت الأتراك يعتقدون له ويولونه رئاستهم . واستمر القتال بين الأتراك والبويهيين عند واسط نحو خمسين يوماً ، كانت الغلبة فيه للأتراك .

وعلى أثر تخرج موقف البويهيين ، جدد بختيار طلب النجدة من عضد الدولة ، الذي رأى أن المرقف أصبح مناسباً لحضوره وتدخله . وعلى ذلك تقدم ومعه ابن العميد وزير أبيه ، على رأس قواتها إلى واسط . ولما بلغت هذه الاخبار أفتكين ، قرر الانسحاب إلى بغداد أما أبو تغلب الحمداني الذي كان قد ذهب إلى بغداد منذ فترة سابقة ، وعمل على فرض النظام والأمن بها أثناء غياب كل من بختيار والأتراك ، فإنه لما تبين عزم أفتكين على الرجوع إلى هذه العاصمة ، وتوقع قيام الموقعة الفاصلة بين الأتراك والبويهيين عندها ، فقد آثر العودة إلى الموصل . وكان من الأسباب التي دعت إلى هذا القرار هو ما صادفه من متاعب مع بعض أتباعه .^(١٥) وفي هذه الظروف رجع أفتكين إلى بغداد :

واجه أفتكين بعد عودته إلى بغداد مجموعة من الصعاب . فإذ أبا تغلب الحمداني ، بعد ذهابه إلى الموصل ، أخذ يرسل سرايا لمنع وصول الميرة إلى أفتكين . وأرتفعت أسعار الطعام ببغداد . وتحرك العيارون وعناصر المفسدين ونهبوا الناس . وزاد في سوء الحالة وصول قوات عضد الدولة وبختيار ومحاصرتها لقوات أفتكين . وأخيراً وفي المعركة التي قامت بين الأتراك

والبويهيين في ٣٠ يناير سنة ٩٧٥ م (١٤ جمادى الأولى ٣٦٤ هـ) دارت الدائرة على الأتراك وأعوانهم من العيارين وقتل كثيرون منهم . (١٦) وعلى أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالأتراك ، توجه أفتككين مع من تبقى لديه من المحاربين الأتراك إلى الشام ليحاول إنشاء إمارة جديدة له هناك . وفي نفس الوقت دخلت قوات بني بويه بغداد . وهناك تلاحقاً عضد الدولة الذي كان راغباً في ضم العراق إلى حكمه ، ولم ينصرف إلا تحت ضغط من أبيه ركن الدولة ، وبعد أن أقسم له بختيار وأخوه يمين الولاء وتعهداً بإقامة الدعوة له بعد ركن الدولة . (١٧) والملاحظ أن هذه التسوية السياسية ، لم تتم إلا بعد رحيل تزيتمسكس من شمال العراق بعدة شهور ، وقد كان هذا الصراع الداخلي بين المسلمين في العراق هو إحدى العوامل الرئيسية التي تساعدنا في تفسير ما أستطاع الامبراطور تزيتمسكس أن يحققه من انتصارات في حملته على العراق في خريف سنة ٩٧٤ م .

ونحن إذا إنتقلنا من العراق غرباً إلى البلاد الشامية ، وجدنا أن هذه البلاد بدورها كانت تعاني من اضطراب الأحوال السياسية وتفتقر إلى الاستقرار . فقد تنازعت السيادة عليها عدة قوى اسلامية مختلفة ممثلة في الاخشيديين والحمدانيين والقرامطة والقبائل العربية والفاطميين على أثر

١٦ - ابن الاثير ج ٨ ص ٢٥٦ - ص ٢٥٧ ، مسكوبه ج ٢ ص ٣٣٨ - ص ٣٤١ ، يحيى الأنطاكي ص ١٤٤ - ص ١٤٥ ، انظر كذلك الخطاب القدي كتبه أبو اسحق الصابي إلى الأمير ركن الدولة في موضوع الصراع بين الأتراك والبويهيين في «المختار من رسائل أبي اسحق ابراهيم الصابي» (ت . شكيب الرسلان ، ط . بيروت ، ١٩٩٨ م) ج ١ ص ١٠ - ٢٨ (سوف نشير إلى هذا المرجع الأخير فيما يلي باسم رسائل الصابي .

١٧ - مسكوبه ج ٢ ص ٢٤٣ - ص ٣٤٤ .

انتقلهم من المغرب إلى مصر. فإن الإخشيديين الذين حكموا في مصر (٩٣٥-٩٦٩ م) قد حرصوا على ضم الشام إلى حكمهم وتحقيق الوحدة بين البلدين على النحو الذي حدث في فترات متعددة من العصور التاريخية المختلفة . ولكن الإخشيديين سرعان ما اصطدموا في الشام بالحمدانيين الذين انتقل فرع منهم سنة ٩٤٤ م (٣٣٣ هـ) إلى الشام تحت قيادة سيف الدولة الحمداني . وقد انتزع هذا الأمير حلب وحمص وغيرها من المدن من الوالي الأخشيدى مؤسساً دولة الحمدانيين في شمال الشام ومركزها حلب . واستمرت هذه الدولة من ٩٤٤ إلى ١٠٠٣ م وأصبح لسيف الدولة حكم حلب وانطاكية واللاذقية وشيزر وحمص وحمص وكذلك أجزاء من قلاية واطليم الجزيرة . وأثناء حكمه (٩٤٤ - ٩٦٧ م) كان عليه بحكم موقع دولته الجغرافي أن يواجه ما قام به البيزنطيون من هجوم . وأبلى سيف الدولة في ذلك بلاء حسناً ، وحقق في المرحلة الأولى من حكمه أمجاداً سجلتها صفحات التاريخ كما أشاد بذكرها الشعراء ومنهم المتنبي . إلا أن سيف الدولة لم يكن في مركز يحسد عليه فإنه كان يحكم دولة محدودة الموارد . وفي نفس الوقت كان عليه أن يعمل حساب جيرانه المسلمين المنافسين له وخاصة الأخشيديين في جنوبي دولته الذين ظلوا يحاولون إعاقة فرض نفوذهم واسترداد ممتلكاتهم القديمة في الشام . كما كان على سيف الدولة أن يكبح جماح أمرائه الذين أرادوا الخروج عليه والاستقلال باقطاعاتهم .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان موت سيف الدولة في فبراير ٩٦٧ (صفر ٣٥٦ هـ) خسارة كبيرة لحقت بالمسلمين . فإن موت هذا القائد المحنك

الشجاعة كان مما هياً للبيزنطيين الفرصة لمواصلة تقدمهم هناك . كما أن ابنه سعد الدولة أبا المعالي الذي خلفه في الحكم (٩٦٧ - ٩٩١ م) لم يكن له من الكفاءة ما يمكنه من مواجهة الهجوم البيزنطي عند استئنافه . كما كانت تنقصه شجاعة أبيه ومهارة السياسة . وأخذ الضعف يدب في جسد دولة الحمدانيون في شمال الشام . وفقد الحمدانيون مدينة انطاكية الهامة للبيزنطيين في أخريات سنة ٩٦٩ م . كما أن الأمير قرغويه ، وهو أصلاً أحد غلمان سيف الدولة ، قد خرج على سعد الدولة واستولى على حلب عاصمة الحمدانيين في الشام ليقوم بها ست سنوات . واضطر سعد الدولة للإقامة بمصر النعمان وحمص . وان الصلح الذي تم بينه وبين قرغويه والذي خطب بمقتضاه لسعد الدولة على منابر حلب ، لم يؤد إلى تصفية الجو بينهما نهائياً . (١٨) هذا ولم يستطع قرغويه الاحتفاظ باستقلال تام في إدارة شئون حلب أمام التهديد البيزنطي ، واضطر للتسليم بمسأفرضه البيزنطيون عليه من سيادة وشروط أحواله إلى تابع للدولة البيزنطية . هذا وقد استمر النزاع بين الحمدانيين وامرائهم في الشام مما أدى قيام حرب أهلية بينهم . وأخذ كل من الجانبين يستعين بقوات خارجية من البيزنطيين والفاطميين بعد ظهورهم على مسرح الحوادث . ولم يكن هذا التدخل الخارجي لصالح أي من الطرفين ، وكان لدولة الحمدانيين الغرم والفاطميين والبيزنطيين الغنم .

وفضلاً عن الأخشيديين والحمدانيين ، فقد ظهر القرامطة كقوة هامة كان لها تأثيرها الكبير على مجريات الأحداث في الشام . وقد نشأ القرامطة أصلاً في العراق في المنطقة المحيطة بواسط في أواخر القرن التاسع الميلادي .

١٨ - كان هذا الصلح في ٣٥٩ هـ (بدأت في نوفمبر ٩٦٩ م) - انظر ابن

الأثيرج ٨ ص ٧٤١ ، كنار ص ٦٧١ - ص ٦٧٤ .

وهم شعبة من شعب الباطنية أو الشيعة الاسماعيلية • وينتسبون إلى حمدان قرمط (١٩). ويحيط الغموض بأصل عقيدة القرامطة وأهدافهم الأولى . إلا أن حركتهم أصبحت حركة دينية اجتماعية سياسية . وعلى أثر قيام الخلافة العباسية بمحاربتهم وتبعضهم ، اتجهوا تحت زعامة أبي سعيد الجنابي إلى شبه الجزيرة العربية حيث وضعوا أساس دولتهم في الاحساء بمنطقة البحرين على الخليج الفارسي • وقام حكم ورأى في بيت أبي سعيد هذا . كما أخذ القرامطة في بسط نفوذهم على كثير من أرجاء الجزيرة العربية . وأشتهر القرامطة منذ باكورة تاريخهم بالعنف وشدة المراس في القتال . وحفلت المصادر التاريخية المعاصرة بأخبار حروبهم وأغاراتهم المخربة ، والفظائع التي لم يتورعوا عن ارتكابها مع قوافل الحجاج ، وكانت اغارتهم على مكة نفسها ونزع الحجر الأسود من الكعبة واستلاؤهم عليه من اللآخذ الكبرى التي سجلها التاريخ ضدّهم (٢٠) وفي تصوير انطباعات المعاصرين من خطرهم وقوتهم العسكرية نذكر رواية أبي المحاسن حيث قال عنهم . « فكانت القرامطة إذا كانوا في ألف حطّموا مائة ألف وأنتصفوا » (٢١).

وعمل القرامطة على مد نفوذهم إلى الشام . وفي عهد أميرهم ، أحمد بن أبي سعيد الجنابي ، قاموا بحملتين لغزو هذه البلاد : وكانت الحملة الأولى

١٩ - الظاهر أن قرمط كلمة آرامية معناها الأستاذ السرى .

٢٠ - كانت اغارة القرامطة على مكة في ٣١٧ هـ (٩٢٠ م) . وقد احتفظوا بالحجر الأسود في دولتهم ولم يبيدوه إلا في (٣٣٩ هـ) - ابن الأثير ج ٨ ص ٧٧ ، ص ١٩٢ .

٢١ - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٥ .

في ٣٥٣ هـ (بدأت في يناير ٩٦٤ م) وأثناءها نلاحظ تعاون القرامطة مع الحمدانيين لمحاربة الأمير الإخشيدى المستول عن الممتلكات الإخشيدية في الشام ، وهو الحسن بن عبيد الله بن طنج . وتمكن القرامطة من إلحاق الهزيمة بقواته عند طبرية . وكانت الحملة الثانية أكثر أهمية من الحملة الأولى ، وقد وجهت كذلك ضد الإخشيديين . وتمكن القرامطة من فتح دمشق والرملة ، واضطر الإخشيديون لعقد صلح معهم على أساس أن يدفعوا لهم جزية سنوية . (٢٢) وكان هذا الصلح بمثابة اعتراف رسمي بامتداد نفوذ القرامطة إلى الشام في أواخر عهد الإخشيديين وقبيل ظهور الفاطميين هناك بوقت قصير . (٢٣)

ومن العوامل الرئيسية التي أدت إلى اضطراب الأوضاع السياسية في الشام في هذا العصر ، كانت انتفاضة القبائل العربية ومحاولتها التحرر من سيطرة أهل الخلافة وتحقيق استقلالها الذاتي . فقد ظلت الاحلاف القبلية الكبرى متماسكة . ونجد من القبائل اليمنية أو عرب الجنوب ، بنى طى في فلسطين ، وبنى كلب في أواسط الشام . أما عرب الشمال أو القيسيون فنجد

٢٢ - كان مقدار هذه الجزية السنوية ١٢٥ ألف دينار مصرى طبقا لتقدير للمؤرخ يحيى الأنطاكي ، أما ابن القلانسي فقد ذكر أنها ٣٠٠ ألف دينار - يحيى الأنطاكي ص ١٣٢ ، ابن القلانسي ص ١

٢٣ - ذكر يحيى الأنطاكي أن هذه الحملة الثانية للقرامطة بالشام كانت في ٣٥٧ هـ ، وحدد تاريخ المعركة التي استولوا على أثرها على الرملة بأنها كانت في ذى الحجة من السنة المذكورة (بدأ هذا الشهر في ٢٧ أكتوبر ٩٦٨ م) . أما المقريزي فقد أشار باختصار أن هذه الحملة في ٣٥٨ هـ - يحيى الأنطاكي ص ١٣٢ . المقريزي : أتعاض الخنفا باختيار الأئمة الفاطميين الخلفاء (ت د . الشيبال القاهرة ١٩٤٨ م) ص ٢٤٧ - ص ٢٤٨ (سوف أشير إلى هذا المصدر فيما بعد باسم أتعاض الخنفا)

منهم بنى كلاب في شمال الشام وبنى نمير وبنى عقيل في الجزيرة العراقية . (٢٤) هذا وكان الحمدانيون أنفسهم من قبيلة تغلب ، وهي إحدى القبائل العربية المعروفة ، ونجحوا في تأسيس دولتين لهم على ما سبق ذكره . ولعبت هذه القبائل العربية المتعددة دوراً هاماً في تشكيل تاريخ الشام السياسي في هذا العصر ، واستغلت ما وجد من الانقسامات والقوى السياسية المتنافسة لتحقيق مصالحها الذاتية . فإن كل من الحكام الحمدانيين والاشيديين والقرامطة ، وكذلك الفاطميين والبيزنطيين ، كثيراً ما اعتمدوا في تكوين أحلافهم السياسية على هذه القبائل . بل أن شيوخ تلك القبائل قد زجوا بأنفسهم في هذه الأحوال السياسية المضطربة ، وكثيراً ما اتخذوا عنصر المبادأة في عقد الأحلاف أو الدخول في خصومات بالشكل الذي قدروا أن يعود عليهم بالنفع :

هذا وظهر على مسرح الأحداث في الشام عنصر جديد له أهميته ممثلاً في الفاطميين . ذلك أن القائد الفاطمي جوهر الصقلي قد تمكن من القضاء على دولة الإشيديين في مصر ، وفرض الحكم الفاطمي على هذه البلاد (٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) ، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي على منابرها بدلاً من الخليفة العباسي . ويسجل ذلك تاريخاً هاماً في منطقة الشرق الأدنى عامة ، وذلك لأنه يحدد بداية قيام الحكم الفاطمي في هذه المنطقة ليستمر حتى سنة ١١٧١ م أي إلى حين القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر . وفي أثناء هذه الفترة ، قدر للعالم الإسلامي في المشرق أن يظل منقسماً على نفسه بين خلافتين ومذهبين متنافسين ، الخلافة العباسية السنية ببغداد ، والخلافة

(2) Gibb , « The Caliphate & the Arab States » , History of the Crusades (Ed. Setton, Philadelphia, 1958) vol, I p. 8 .

الفاطمية الشيعية ومركزها القاهرة . وكان هذا الوضع وما ترتب عليه من انقسام وتنافس ، من العوامل التي أدت إلى ضعف قوة المسلمين في الشرق الأدنى في عصر كل من الهجوم البيزنطي والهجوم الصليبي اللاتيني فيما بعد .

وكان لابد وان يتطلع الفاطميون الدائبون على نشر دعوتهم ونفوذهم ، بعد أن فتحوا مصر ، لمد دعوتهم إلى البلاد الشامية وضمها إلى حكمهم . وكان التوسع الفاطمي في هذه البلاد مسألة طبيعية وضرورية اقتضتها الظروف السياسية والأسباب الاستراتيجية . فإن حالة الشام بما هي عليها من انقسامات كانت من الطبيعي أن تغري دولة قوية مثل دولة الفاطميين على التدخل وضم هذه البلاد . هذا إلى جانب أن توحيد مصر والشام تحت حكومة واحدة كان ظاهرة تاريخية طبيعية تكررت في العصور السابقة . هذا وكان من المحتمل بعد نجاح الفاطميين في فتح مصر ، أنهم سيتعرضون لهجوم من جانب القوى المنافسة الموجودة في الشرق الأدنى من إسلامية أو بيزنطية . وأن الفاطميين بضمهم لبلاد الشام سوف يتمكنون من جعل الخط الأول للدفاع عن ممتلكاتهم في البلاد الشامية وليس في مصر .

وفضلاً عن ذلك كله ، فإن الفاطميين بما هم عليه من قوة ، وما علموه عن مشاكل المسلمين وانقسامهم في الشرق الأدنى ، قد حرصوا على القيام بدور المدافعين عن البلاد الإسلامية وحمايتها ضد العناصر المهددة لها وخاصة البيزنطيين والقياسم بالجهاد ضدهم . ويتضح ذلك في عهد الأمان الذي أعلنه جوهر في يوليو ٩٦٩ (شعبان ٣٥٨ هـ) بعد فتحه مصر ، وكان هذا العهد موجهاً لأهل مصر وغيرهم من المسلمين في بلاد الشرق^{٢٠} . وجاء في هذا العهد (٢٥) : « باسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب -

٢٥ - أنظر النص الكامل لهذا العهد في « انماط الحنفا » ص ١٤٨ - ص ١٥٣

عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله - صلوات الله عليه - لجماعة أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ومن غيرهم .. وهو أنه (المعز) صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفورة ، إلا لما فيه اعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، اذ قد تخطفتمكم الايدي ، واستطال عليكم المستذل واطعمته نفسه بالاقدار على بلدكم في هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر من فيه ، والإحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ؛ فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - بأخراج العساكر المنصورة وبإيقاد العساكر للمظفورة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين صممهم الخزي ، وشملتهم المذلة ، واكتنفتهم المصائب وتنابت الرزايا واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثاتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم فلم يغثهم إلا من أرمضة أمرهم ومضة حالهم ، وأبكى عينه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - فرجا - بفضل الله عليه ، وإحسانه لديه ، وما عوده وأجراه عليه - استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم ، وعذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى عليه المهل (٢٦) ويفرخ روح من لم يزل في خوف ووجل ... ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام وكروار الأعوام ، في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ، ولا يتعقب عليكم متعقب وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء

٢٦ - يقول المحقق (د . الشيبال) لعلمها « الوهل » أى الفزع - انماظ الخنفا

عليكم ، ولا في الإستطالة على قوِيكم فضلا عن ضعفكم ... » . ولا بد أن القائد جوهر كان يقصد أن يشير في هذا العهد الذي أصدره ، إلى أن الخطرين البيزنطى والقرمطى ، وهما أشد الأخطار على المسلمين في هذا العصر . والواقع أن العهد المذكور ، الذى يعتبر من الوثائق الهامة التى صنفها الفاطميون للدعاية لمذهبهم وحكمهم ، قد حمل كذلك تأكيذاً عن عزم الفاطميين على مد نفوذهم وتوسيعهم في بلاد المشرق بعد الاستيلاء على مصر . وكانت الشام هى أول البلاد الواقعة في طريق تقدمهم .

ولم يمض وقت طويل بين فتح مصر وقيام جوهر الصقلى لفتح الشام وضربها إلى الحكم الفاطمى . فقد أرسل هذا القائد فور استقرار الفاطميين في مصر حملة إلى البلاد الشامية في الجزء الأول من سنة ٣٥٩ هـ (بدأت في نوفمبر سنة ٩٦٩ م) تحت قيادة جعفر بن فلاح الكتامى الذى كان من كبار قادة المعز ، وقد عرفت عنه الشجاعة وحسن قيادة الجيوش . وكان الهدف الأول لحملة جعفر هو الإستيلاء على بقايا الممتلكات الإخشيدية في فلسطين وأواسط الشام ، التى كانت تحت حكم الأمير الإخشيدى الحسن بن عبد الله . وقرر هذا الأمير مقاومة الجيش الفاطمى والدفاع عن ولايته . إلا أن الإمكانيات التى كانت تحت تصرفه لم تكن بالتي تمكنه من تحقيق ذلك نظرا لما وجدته من مصاعب في فرض كلمته على الولاة الإخشيديين في المدن المختلفة بعد سقوط دولة الإخشيديين في مصر . وأهم هؤلاء الولاة كان شمول الإخشيدى الذى حكم في دمشق والذى كان يضم الحقد للأمير الحسن ، والصباحى الذى كان يلى بيت المقدس ، وفاتك والى طبرية (٢٧) .

اتجه الأمير الأخشيدي الحسن إلى مدينة الرملة ليتخذ منها مركزا لمقاومة الأخطار التي هددت أمارته . وكان لهذه المدينة أهمية خاصة، وقد كتب عنها الجغرافي المعاصر ابن حوقل : « فلسطين أزكى بلدان الشام ربوطا ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس تليها في الكبير (٢٨) » . أما الجغرافي المقدسي فقد ذكر عنها : « والرملة هي قصبة فلسطين » . (٢٩) ووجه القائد الفاطمي جعفر قواته إلى هذه المدينة الهامة لمنازلة الأمير الحسن والاستيلاء عليها قبل أن يتابع عملياته العسكرية الأخرى في الشام . والملاحظ أن جعفرا إلى جانب اعتماده على قوة السلاح ، أرسل دعاة إلى ولاية البلاد الشامية « يمدحهم بالإحسان ، ويدعوهم إلى طاعة المعز » . (٣٠) وقد صادفت هذه الدعوة قبولا عند عدد منهم . كما أن الأمير الحسن لما طلب المساعدة من الولاة الإخشيديين ، تقاعد بعضهم عن نصرته مثل شمول والى دمشق والصباحي والى بيت المقدس . وعلى ذلك فلما ألتقت قوات الفاطميين بقوات الأمير الحسن في الرملة ، دارت الدائرة على الأخير وهزمت قواته وأسر مع كثيرين من جنده . وكان استيلاء الفاطميين على المدينة في ٢٤ مايو سنة ٩٧٠ م (منتصف رجب سنة ٣٤٩ هـ) . (٣١) وقبل أن يواصل جعفر طريقه لفتح سج غيرها من البلاد عين ابنه واليا على الرملة (٣٢) .

٢٨ - ابن حوقل النصيبى : كتاب صورة الأرض (ط . ثانية — إبريل ، ١٩٣٨) ج ١ ص ١٧١

٢٩ - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ط . إبريل ، ١٩٠٩ ص ١٦٤

٣٠ - انعاظ الحنقا ص ١٧٣

٣١ - المرجع السابق ص ١٧٣ — وبخصوص الشخصيات الكبيرة التي وقعت في الأمر إذ ذاك أنظر نفس المرجع ص ١٧١

٣٢ - ابن الفلاني ص ١

وكانت طبرية هي الهدف التالي لجعفر ، وهي المدينة الكبرى في الأردن (٣٢) وقد ملكها بدون أن يجد مقاومة كبيرة . وكان عليه بعد ذلك اخضاع إمارة دمشق . واتمهيد الطريق لتحقيق ذلك لجأ جعفر إلى كسب بعض القبائل العربية إلى جانب الفاطميين . ويذكر المقرئ أن جعفر أعمل على استمالة جماعة من بني مرة وفزارة لاستمالةهم ضد بني عقيل الذين كانوا يقيمون اذ ذاك ، باذن من الإخشيديين في حواريون والبثنية من أعمال دمشق ، وقد تابعهم بنو فزارة لومرة إلى حمص . (٣١) إلا أن الإتصال الأول بين جعفر وقواته وبين أهالي دمشق ، لم يكن بالذي يؤدي إلى اطمئنان الآخرين واستكانتهم إلى الغزاة الجدد . ذلك أن الدمشقيين لما بلغتهم أخبار تقدم جعفر ، خشوا بأسه وأرسلوا اليه وفداً من مشايخ البلد . ولكن هذا الوفد لم يعامل معاملة كريمة ، وتعرض لاعتداء جنود جعفر الذين سلبوهم ما معهم وما عليهم . ويقول المقرئ أنهم بعد مقابلة جعفر طادوا إلى بلدتهم وهم « غير شاكرين ولا راضين ، فبسطوا ألسنتهم بدم المغاربة حتى استوحش أهل دمشق . » (٣٥)

وقد كان من الطبيعي أن يقرر الدمشقيون بعد هذه التجربة الأولى السيئة التي مر بها وفدهم مع الفاطميين ، مقاومة الغزاة والدفاع عن كياناتهم . إلا أنه أصبح عليهم الإعتماد على أنفسهم في إدارة شؤون المدينة وتحمل مسؤولية الدفاع عنها . ذلك أن شمول والى المدينة الإخشيدى ، فضل الإنضمام إلى صفوف الفاطميين وخرج منها والتحق بجعفر في طبرية . وأصبحت

٣٣ - ابن حوقل ج ١ ص ١٧٣

٣٤ - انعاظ المنفا ص ١٧٤

٣٥ - المرجع السابق ١٧٤

دمشق على أثر ذلك مفتقرة إلى حاكم مسئول عنها . ولفترة من الزمن تسبب هذا الوضع في اضطراب الأحوال في المدينة . ويقول في ذلك المقرئى : « وصار البلد خاليا من السلطان ، فطمع الطامع وكثر الزهار ، وحمل السلاح به . » (٣٦) إلا أن أهالى المدينة عملوا على تنظيم حكومة لهم تشرف على شئونها وتنظم الدفاع عنها . وعهد الدمشقيون بالمسئولية إلى أحد أهالى البلد وهو الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمى ، الذى كان يتميز بالشجاعة ويتمتع بالاحترام والتقدير . (٣٧)

حقيقة أن الدمشقيين استعانوا بمن تبقى من جنود شمول في دمشق للدفاع عن المدينة ، إلا أن الاعتماد الأساسى كان على المقاومة الشعبية التى قام بها الاهالى وكان العنصر الرئيسى في هذه المقاومة « أحداث » المدينة . والأحداث من جماعات الفتوة العربية ، وهم كثيرى الشبه بالحرس الوطنى فى العصور الحديثة . وكانوا من الشبان المحاربين المتطوعين من أبناء المدينة . كما كانوا يعيشون فى ظل نظام خاص . وقد عرف الأحداث فى مدينة دمشق بنشاطهم فى الوقوف ضد استبداد الحكام المحليين وكذلك فى الدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة الأجانب . وازدهر نشاط الأحداث بشكل خاص فى الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجرى (من القرن العاشر

٣٦ - الزهار والزعة والزعر ، جمع زاعر ، وهو اللبس والاحتال والعيار .

انظر انعاظ الخنفاء ص ٧٤ ، حاشية ٤

٣٧ - ابن أبي القلانسى ص ١ ، الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ ، راجع رواية لمقرئى

حيث قال « وكان رئيس اهل الشام فى هذه الحروب ابو القاسم بن أبي يعلى العباسى ،

ومحمد بن عسودا ، وصمدله الشوا » انعاظ الخنفاء ص ١٧٥

إلى الثاني عشر الميلادي) . (٣٨) وقد عانى الفاطميون الكثير من المقاومة
المنيفة التي قام بها الأحداث ضدهم أثناء حكمهم بالشام ، وخاصة في الفترة
الاولى منه .

تقدمت قوات القائد جعفر مع من لحق بها من القبائل العربية المحالفة،
ونزل الجميع بحى الشامية عند دمشق في ١٤ أكتوبر ٩٧٠ م (١٠ ذى الحجة
٢٥٩ هـ) . وهناك نشب قتال عنيف بينهم وبين المدافعين عن المدينة استمر
عدة أيام : ولكن مالبث قوات جعفر أن تغلبت على مقاومة أهالى المدينة.
ونجح هذا القائد في دخولها وقرض شروطه عليها ، ومن أهمها اقامة الخطبة
للخليفة الفاطمى المعز وقطعها بالنسبة للخليفة العباسى المطيع . (٣٩) وكان
ذلك إيذانا بزوال ما تبقى من نفوذ العباسيين في دمشق وبداية قيام الحكم
الفاطمى بها . وعمل جعفر بعد ذلك على تنظيم ادارة المدينة وأقام مساكن
خاصة لجنده بظاهر سورها كما بنى لنفسه قصراً كبيراً من الحجارة يتناسب
مع هيبة قائد الجيوش الفاطمية في الشام . (٤٠)

وليست لدينا معلومات كافية عما فعله جعفر في الفترة التالية لاستيلائه

(38) C. Cahen, «Ahdath» The Encyclopaedia of Islam (New Edit.)
Vol. I, p. 25; H.A.R. Gibb, The Damascus Chronicle of the Cru-
sades (London, 1932), pp. 26 - 27.

انظر كذلك ابن القلانسي ص ٦ - ص ١٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ ،
كتاب الفتوة (ت د . مصطفى جواد وغيره . بغداد ١٩٦٠ م) ص ٢٧ ،
ص ٤٨ - ص ٤٩

٣٩ - اتعاظ الخنفا ص ١٧٥ - ١٧٦ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٣ - ويلاحظ
هنا ان ابن الأثير قد سجل فتح دمشق في ذى الحجة ٣٥٨ ، والصواب ان ذلك كان
في ٣٥٩ هـ حسب ما جاء في اتعاظ الخنفا ويحيى الأطاكي ص ١٣٨
٤٠ - اتعاظ الخنفا ص ١٧٧

على دمشق . ولكن من المؤكد أنه عمل على الدعاية للخليفة الفاطمي .
ومن الجائز أيضاً أن قواته حاولت الاستيلاء على بعض المراكز في البلاد
الواقعة في جنوبي وأواسط الشام . وعلى كل حال فهناك ما يدل على أن
الحمدانيين أقاموا الدعوة للخليفة الفاطمي في حلب وحمص بدلاً من
الخليفة العباسي . (٤١) كما أرسل جعفر قائد فتوح على رأس جيش لمنارة
مدينة أنطاكية في شمال الشام ومحاولة الاستيلاء عليها . (٤٢) إلا هذا الأخير
لم يوفق في مهمته بسبب مقاومة البيزنطيين والظروف التي اضطرت جعفر
لإستدعائه إلى دمشق . وعلى كل حال فإن وصول القوات الفاطمية إلى أنطاكية
في الشام يحدد أقصى مدى وصلت إليه هذه القوات في المحاولة الأولى التي
قام بها الفاطميون لاختضاع هذه البلاد .

حقيقة أن الفاطميين أحرزوا نجاحاً سريعاً في حملتهم الأولى التي قادها
جعفر بن فلاح على الشام ، نظراً لإستيلائهم في وقت محدود على عدد من أهم
مراكز الشام وتقدم قواتهم شمالاً حتى أنطاكية . إلا أن هذا النجاح لم
يقدّر له أن يستمر زمناً طويلاً وقد أصيب النفوذ الفاطمي بنكسة خطيرة .
فإن ظهور الفاطميين كقوة جديدة على مسرح الأحداث في الشام والانتصارات
التي أحرزوها على حساب القوى الموجودة هناك ، كان له رد فعل . وكان
لا يزال من الضروري على الفاطميين بذل المضاعف من الجهود وانتظار

٤١ - جاء ذلك في ذكر أحداث (٣٥٩ هـ) ، أنظر انماط الحنفا ١٧٩ ، ابن
الأثير ج ٨ ص ٢٤١ .

٤٢ - كان خروج حملة فتوح إلى أنطاكية في ربيع الأول ٣٦٠ هـ (يناير
٩٧١ م) . أنظر انماط الحنفا ص ١٧٧ - بخصوص القتال الذي حدث بين الفاطميين
والبيزنطيين ، فسوف نذكره تفصيلاً في الفصل التالي الخاص بالعلاقات بين البيزنطيين
والمسلمين .

المزيد من الوقت حتى يتمكنوا من تدعيم نفوذهم في هذه الأنحاء : ولتفهم ذلك يجب أولاً أن نتذكر أن القوات الفاطمية في تقدمها في الشام أتت حاملة الدعوة المذهب الشيعي وصحلت على نشره في البلاد التي أخضعتها . وأدى ذلك إلى نفور العناصر السنية ووقوفها موقفاً معارضا ، صامدة لمقاومة الدعوة الفاطمية والتخلص منه . وقد وصلت إلى أيدينا رواية طريفة توضح موقف السنيين ضد الفاطميين وقتئذ . فقد جاء في بعض المصادر أن أحد الزهاد من أهل السنة ، ويعرف باسم النابلسي ، الذي اشتهر بتحمسه لمذهبه قال : « إذا كان مع الرجل المسلم عشرة أسهم وجب أن يرمى في الفاطميين تسمية ويرمى العاشر في الروم » ولا يتردد هذا الزاهد في أن يعيد هذا القول على مسمع الخليفة المعز نفسه ، ويزيد عليه . « فأنكم غيرتم الملة وغيرتم نور الألية » ^(٤٣) وقد تمسك النابلسي بموقفه بالرغم من تعرضه لمتهم شديد ، ومات شهيداً عقيدته . وهذه الرواية تشير إلى شدة معارضة السنيين في الشام للحكم الشيعي ، وأن بعضهم على الأقل ، قدروا أن الفاطميين أولى بأن يحاربوا من البيزنطيين أنفسهم . ومهما يكن من أمر ، فإن النزاع المذهبي بين السنيين والشيعة كان من أهم العوامل التي تفسر الصعوبات التي صادفها الفاطميون في فرض نفوذهم على الشام وفضلاً عن ذلك فإن سياسة العنف التي اتبعتها الجند المغاربة ، وخاصة مع أهالي دمشق وإساءة معاملتهم ، كانت من العوامل التي أدت إلى زيادة سخط الناس على الفاطميين وترقبهم الفرص المواتية للتخلص منهم .

وقام القرامطة بدور بالغ الأهمية في مقاومة الفاطميين والعمل على منع قيام حكمهم في الشام في السنوات الأولى التي تبعت ظهورهم في الشرق

٤٣ - انظر ابن الجوزي : المنتظم (مذيّل على تاريخ ابن القلانسي ص ٤)

الأدنى . ولتحقيق ذلك لم يتورع القرامطة عن إرسال حملات عنيفة ضدهم مدن في كل الشام ومصر . حقيقة أن القرامطة في أول اتصالهم مع الفاطميين ، وقبل انتقال هؤلاء إلى مصر ، كانوا حريصين على إقامة علاقات طيبة معهم واحترموا زعامتهم الروحية . وكان من مظاهر ذلك أخذ القرامطة بمشورتهم في تعيين أمراءهم . إلا أن هذه الصورة تغيرت على أثر ظهور الفاطميين في المشرق . ولقد شاهدنا من قبل كيف نجح القرامطة في مد نفوذهم إلى الشام وكيف فرضوا جزية سنوية على الإمارات الاخشيدية هناك . وكان القرامطة بطبيعة الحال حريصين على الابقاء على ما لهم من نفوذ في هذه الأنحاء ، وكان ظهور الفاطميين في الشام واستيلائهم على دمشق وغيرها من البلاد بمثابة تحد لم وتهديد لمصالحهم . وقد طلب أميرهم الجديد الحسن الأعصم القرمطي (٤٤) ، من الفاطميين دفع الجزية التي كان يدفعها الاخشيديون للقرامطة من قبل ، ولكن طلبه قوبل بالرفض . وكان هذا هو السبب المباشر الذي أدى إلى قيام الحرب بين الجانبين القرمطي والفاطمي . أخذ الأعصم يستعد لمنازلة خصومه وطردهم من الشام . وأرسل إلى بغداد لطلب المساعدة . ويروى أبو المحاسن أن الخليفة العباسي المطيع ، الذي كان يكره كلا من الفاطميين والقرامطة امتنع عن بذل المساعدة المطلوبة ، وأنه قال في ذلك : « كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، فاما المصريين - يعني بني عبيد - فأما اتوا السنن وقتلوا العاهاء ، وأما هؤلاء - يقصد القرامطة - فقتلوا الحجاج ، وقلعوا الحجر الاسود ، وفعلوا ما فعلوا » (٤٥) إلا أن عز

٤٤ - عرف المؤرخ يحيى الأنطاكي هذا الأمير بلقب « الأعصم » وهذا خطأ والصواب « الأعصم » والاسم الكامل لهذا الأمير هو الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي - يحيى الأنطاكي ص ١٣٩ ، النجوم الزاهرة به ص ٧٤

٤٥ - لراجع السابق ج ٤ ص ٧٤

الدولة ببختيار ، الأمير البويهى فى العراق الذى كان يخشى على مركزه من تزايد الخطر الفاطمى ، قد تلاقى مصالحه مع مصلحة الأعصم وجمعتهما الرغبة فى التخلص من الفاطميين . ولذا قرر مساعدته بالسلاح والمال . وقد جاء أنه خصص له « ألف ألف درهم وألف جوشن وألف سيف وألف رمح وألف قوس وألف جمبة » (٤٦) كما طلب ببختيار إلى أبى تغلب أمير الحماة ان يبين بالموصل أن يمد الأمير القرمطى بمساعدة مالية قدرها اربعمائة ألف درهم . (٤٧) وبعد الحصول على هذه المساعدات ، تقدم الأعصم ببشبه مع من كان انضم اليه من أعداء الفاطميين من الإخشيديين الذين كانوا قد لجأوا اليه (٤٨) وكذلك جماعة من القبائل العربية . وسار على رأس هذه القوة الكبيرة لمنازلة القائد الفاطمى جعفر بن فلاح عند دمشق . وللا ملاحظ على هذه الحملة التى قام بها الأعصم ضد الفاطميين ، أن بالرغم من كون الدعوة الاسماعيلية من أهم دعائم دولة القرامطة ، فإنه أمر جنوده بمحمل الأعلام السود ، شعار العباسيين ، وكتب عليها اسم الخليفة العباسى للمطيع ، وتحتته كتب « السادة الراجعون إلى الحق » (٤٩) والمرجح ان الدافس الذى جعله يفعل ذلك هو رغبته فى التقرب إلى العناصر السنية فى الشام تلك العناصر التى كانت لا ترغب فى الحكم الشيعى .

٤٦ - ابن الفلانى ص ١

٤٧ - انعطاف الحنفا ص ١٧٨

٤٨ - المرجع السابق ص ١٨٨

٤٩ - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ - وللا ملاحظ أن إقامة القرامطة الدعوة العباسية من قبل هذا النجوم ، كانت موضع لوم ومؤاخذه فى الكتاب للطول الذى أرسله فيها بعد الخليفة المزال الأعصم . انظر النص السكنا . لهذا الخطاب فى « انعطاف الحنفا » ص ٢٥١ - ص ٢٦٥ .

أما القائد جعفر بن فلاح قائد القوات الفاطمية في الشام ، فعندما بلغته أخبار الاستعدادات التي أجراها الأعصم لقتاله ، فإنه أرسل إلى قائده فتوح ليستدعيه مع القوات التي كانت تعمل تحت امرته في محاربة البيزنطيين عند انطاكية . وأسرت هذه القوات بالعودة إلى دمشق ، وأخذ جعفر يستعد لمواجهة الهجوم المنتظر . وعلى اثر وصول القرامطة ، قامت معركة حاسمة في ناحية الدكة ، على مقربة من دمشق ، انتهت بهزيمة الجيش الفاطمي ومقتل جعفر وعدد كبير من جنده ، في ٣١ أغسطس ٩٧١ م . (٥٠) وتمكن الأعصم القرمطي على أثر ذلك من دخول دمشق واحتلالها .

ويرجع السبب الأساسي في هزيمة الفاطميين عند دمشق إلى أن جعفر لم يتوقع أن يصحب القرامطة معهم في هجومهم كل هذه الأعداد الضخمة التي جاءوا بها ، ولم يجهز ما يكفي من القوات لمقابلتهم . وهكذا كان التفوق العددي سببا هاما في هزيمة الفاطميين . وعلى أية حال ، فإن الأعصم بعد دخول دمشق أمن أهلها وعمل على كسب مشاعرهم والتقرب لهم باقامة الدعوة للخلافة العباسية . ولعن الأعصم المعز وأباه على منبر دمشق وطعن فيهم بقوله : « هؤلاء من ولد القداح كذابون مخترقون أعداء الاسلام ، ونحن أعلم بهم ، ومن عندنا خرج جدكم القداح » . (٥١) وقد فعل الأعصم ذلك تطبيقا لسياسته التي عمل فيها على التقرب إلى السنيين واكتساب ولائهم .

وكان الهدف التالي للأعصم هو الإستيلاء على مدينة الرملة التي كانت من المركز الهامة التي فتحها الفاطميون في جنوب الشام . وكان يحكمها من

٥٠ — ٦ ذى القعدة ٣٦٠ هـ — أنماط الحنفا ص ١٧٨ ، ابن القلانسي ص ١

ب ص ٢ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٢ .

٥١ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ ابن القلانسي ص ٢

قبل العادليين وقتئذ سعادة بن حيان المغربي ولما بلغته أخبار تقدم القرامطة خرج من المدينة إلى يافا ليتحصن بها . وعلى ذلك تمكن الأعصم من فتح الرملة وعين عليها واليا من قبله ، وأقام فيها كذلك الدعوة للخلافة العباسية^(٥٢) و لواقع أن على أثر هذه الحملة التي قام بها الأعصم ضد الفاطميين سنة ٩٧١ م وتدخله في البلاد الشامية ، أصيب النفوذ الفاطمي في هذه البلاد بنكسة خطيرة استمرت من آخر أغسطس ٩٧١ حتى شهر مايو ٩٧٤ م (١٠٢) ، أي منذ استيلاء القرامطة على دمشق حتى استرجاع الفاطميين لها وعملهم على إعادة تثبيت حكمهم في الشام . وفي هذه الفترة المذكورة نلاحظ ضعف النفوذ الفاطمي في الشام بسبب تدخل القرامطة ، كما أن الأعصم القرمطي تمكن من اتباع سياسة الهجوم ، وقام أكثر من مرة بمهاجمة الماطميين في البلاد المصرية نفسها .

كان الهجوم الأول الذي قام به الأعصم على الفاطميين في مصر ، عقب استيلائه على الرملة . وقد زحف بقواته واستولى على مدينة القلزم - السويس - والقرما^(٥٣) ، وأصبح له التحكم في برزخ السويس كما خضعت له مدينة تنيس . وتوغل القرامطة داخل البلاد حتى وصلوا إلى القاهرة . وهناك فقط أمكن لجوهر أن يقف ضد الغزاة ويصد هجومهم . وساعده

٥٢ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٢ ، ابن القلانسي ص ٢ ، انماظ الخفا ص ١٧٩

٥٣ — امتدت هذه الفترة من ذي القعدة ٣٦٠ هـ إلى رمضان ٣٦٣ هـ .

٥٤ — كان الاستيلاء على القلزم في ذي الحجة ٣٦٠ هـ (ب.ا في ٢٥ سبتمبر

٩٧١ م) والاستيلاء على القرما في محرم ٣٦١ هـ (بدأ في أكتوبر ٩٧١ م)

أنظر انماظ الخفا ص ١٨١ ، ابن القلانسي ص ٢ .

في ذلك الخندق العظيم الذي حفره حولها. (٥٥) ونجح جوهر في التغلب على المهجوم الذي دام به القراء بلف في ٢٤ ديسمبر ٩٧١ م والحق بهم خسائر كبيرة حتى أن أعوانهم من الكافوربة والاشيادية أنفضوا من حولهم. (٥٦) وأرشد الأعصم على أعقابه بعد تكبد خسائر كبيرة ، ورجع إلى الأحساء . واستغل جوهر الفرصة ليرسل جيشا استرجع مدينة يافا . إلا أن ذلك لم يكن نهاية الخطر القرطبي . فان دمشق قد ظلت تحت حكم كل من ظالم بن موهوب العقيلي وأبي المنجب القرطبي اللذين كانا يحكماها من قبل الأعصم . كما أن الأخير عند خروجه من مصر ، كان ينوي العودة إليها ليجدد هجومه على الفاطميين .

وعندما رجع الأعصم إلى الشام أستولى على الرملة ثم أخذ يعد العدة لمهاجمة مصر مرة أخرى . (٥٧) وقد جهز أسطولا قويا لمهاجمة تنيس وغيرها من سواحل مصر ، كما جمع جيشا ضخما جمع اليه ما أستطاع إستمالته من القبائل العربية . ولكن كان على الأعصم هذه المرة أن يواجه موقفاً جديداً في مصر . إذ أن الخليفة الفاطمي كان قد انتقل من المغرب إليها مع المزيد من القوات الفاطمية . وأهتم هذا الخليفة بمناهضة القرامطة

• • — ذكر المقرئ الحديث عن اختطاط القاهرة أن جوهر كان هدفه من ذلك « أن يصير (القاهرة) حصناً فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاثلهم من دونها ، فأدار السور الابن على مناخه الذي نزل فيه بمسكره . . . واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتراب مساكن القرامطة إلى القاهرة وما وراء من المدينة » المخطط (ط مصر ١٢٢٤) ج ٢ ص ١٧٩ - ص ١٨٠ .

• • — يوافق هذا التاريخ ٣ ربيع الأول ٢٦١ هـ - ابن الفلاني ص ٢ ، المقرئ : انماظ الحنفيا ص ١٥٠

• • — كانت حملة الأعصم الثانية على مصر في سنة ٢٦٢ هـ (أكتوبر ٩٧٣ م) . سبتمبر ٩٧٤ م) . ابن الفلاني ص ٣

والقضاء على خطرهم حتى يتمكن من تثبيت أركان دولته في مصر والشام .
وأنتصر الفاطميون على أسطول القرامطة عند تنيس . (٥٨) وبعث المعز في
هذه الفترة للأعصم رسالته المطولة المعروفة ، والظاهر أنه أراد من وراء
ذلك إثارة القرامطة على رئيسهم ، وكذلك التهديد باستعمال القوة للقضاء
على الأعصم وجيشه . ومهما يكن من أمر فإن الأخير لا يبدو أنه أهتم
برسالة المعز والتهديد الذي جاء بها ورد عليه : « وصل كتابك الذي قسـل
تخصيله وكثر تفصيله ، ونحن سائرون اليك على أثره والسلام . » (٥٩) وقام
الأعصم بعد ذلك بهجومه بما لديه من قوات ضخمة ، وبث السرايا في البلاد
لنهبها ، في الوقت الذي أتمجعت فيه قواته الرئيسية إلى القاهرة وعسكرت على
مقربة من خندقها . وكان خطر القرامطة كبيراً لكثرة أعداد جيشهم وما
أشتهروا به من الشدة في القتال . وأمام هذا الموقف العصيب ، لجأ المعز إلى
الحيلة وعمل على تفريق كلمة العدو . وقد أنصل بأحد حلفاء الأعصم
الخطرين ، وهو القائد العربي حسان بن الجراح الطائي ، الذي كانت تحت
إمرته أعداد كبيرة من المقاتلين العرب ، وبذل له مائة ألف دينار على أن
يخـذل حليفه في القتال : ومقابل ذلك المبلغ الضخم انسحب محاربو بني
طـي . (٦٠) وأمكن للقوات الفاطمية على أثر ذلك أن تلحق الهزيمة بالقوات

٥٨ — انعاظ الحنفا ص ١٩٤ - ص ١٩٥

٥٩ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢

٦٠ — بذكر كل من ابن القلانسي وابن الأثير أن الفاطميين ، لما استكثروا
المبلغ الذي وعدوا به حسان بن الجراح ، قاموا بتزييف عدد من الدنانير وأن هذا
القائد قد جازت عليه الحيلة - أنظر ابن القلانسي ص ٣ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢

القرمطية في المعركة التي قامت بين الطرفين. (٦١) واضطر القرامطة للانسحاب من مصر ، وأرسل الخليفة المعز ورائهم جيشاً قوامه عشرة آلاف محارب لمطاردتهم تحت امره قائده إبراهيم بن جعفر فلاح . وتناقل هذا في سيره لخوفه من أن يرجع عليه القرامطة نظراً لما أشتهروا به من جرأة وشدة . وعلى كل حال فقد فضل هؤلاء الانسحاب والعودة إلى بلادهم . ولم يضطر الفاطميون بعد ذلك لمواجهة خطرهم من جديد الا في أوائل عهد الخليفة العزيز .

وبعد هزيمة القرامطة في مصر وانسحابهم إلى الاحساء ، هزم المعز على القضاء على ما كان لهم من نفوذ في الشام وإعادة الحكم الفاطمي إليها . وكانت دمشق هي المركز الرئيسي لما تبقى من المقاومة القرمطية هناك ، ولذا وجه المعز جهوده للاستيلاء عليها . وكان الأعصم قد عين عليها منذ فترة سابقة أبا المنجا القرمطي وظالم بن موهوب العقيلي . ولكن على أثر الخلاف الذي قام بين هذين الرجلين حول خراج المدينة ، ناصر الأعصم أبا المنجا وأبقاه على حكم دمشق وأبعد ظالم العقيلي بعد أن أعتقله مدة من الزمان . (٦٢) وقد رأى المعز أن يستغل هذه الظروف واستياء ظالم العقيلي ليستعين بالقبائل العربية التي كانت تحت امره ظالم في إسترداد المدينة . وعينه المعز واليا على دمشق وأرسله لامتلاكها باسم الفاطميين . وقد وصل ظالم إلى المدينة في ٣ يونيو ٩٧٤ م ، وتمكن من دخولها والقبض

٦١ — كانت هذه الواقعة في رمضان ٣٦٣ هـ (٢٦ مايو / ٢٤ يونيو ٩٧٤ م) —

ابن القلانسي ص ٣

٦٢ — انماظ الحنفا ص ٢٥٠

على واليها القرمطي أبي المنجا وأتباعه، وأقام بها الحكم باسم الفاطميين (٦٣) وللأسف فإن الروايات التي جاءت بها المصادر العربية، التي وصلت إلى أيدينا، لا تساعدنا بشكل كاف لرسم صورة كاملة دقيقة لعملية فتح الفاطميين للبلاد الشامية، في الفترة الأولى من تاريخ ظهورهم في الشرق الأدنى، تلك الفترة التي صاحبت الهجوم البيزنطي الذي قام به الامبراطور تزييمسكس. فقد أقتصرت هذه المصادر في ذلك على بيان الظروف التي استولى فيها الفاطميون على الرملة وطبرية ودمشق ويافا، ولم تذكر شيئاً عن فتحهم لغير ذلك من البلاد والمدن مثل بيت المقدس أو طرابلس. إلا أن الباحث المدقق، يستطيع أن يستنتج مما جاء في المصادر التاريخية أن الفاطميين لا بد وأن تعرضوا لبلاد ومدن شامية أخرى وأنهم نجحوا في إخضاعها لحكمهم، خاصة بعد أن تم لهم القضاء على مقاومة الإخشيديين والقرامطة واستمالة عدد من القبائل العربية. فقد جاء في خطاب الامبراطور تزييمسكس عن حملته على الشام، أن المقاومة الرئيسية التي صادفها في فلسطين قد جاءت من جانب «الأفريقيين الملاعين» يقصد القوات الفاطمية، (٦٤) مما يشير إلى قيام الفاطميين في هذه الأنحاء. كما نرجح أن الفاطميين قد نجحوا في مد سلطانهم على كثير من المدن والمراكز الساحلية حتى مدينة طرابلس على الأقل. فمن الثابت أنهم تمكنوا من الاستيلاء على طرابلس في هذه الفترة، اذ تذكر المصادر صراحة أنه كان يتولاها من قبلهم ريان الخادم. (٦٥) كما أن تزييمسكس ذكر أن القوات الإسلامية التي قاومته في طرابلس كانت

٦٣ — يوافق هذا التاريخ ١٠ رمضان ٣٦٣ — أنظر: ابن الفلاس م ٤

٦٤ — في الرهوى م ١٦

٦٥ — ابن الأثير ج ٨ م ٢٥٤، ابن الفلاس م ١٠

قوات « افريقية » أى فاطمية (٦٦) والواقع ان امتداد الحكم الفاطمى على المراكز الساحلية فى الشام كان مسألة طبيعية نظرا لقوة البحرية الفاطمية فى عهد المعز (٦٧).

ومها يكن من أمر رجوع الحكم الفاطمى إلى دمشق ، وامتداده إلى مناطق أخرى فى الشام ، فان الفترة التى امتدت من استرجاع الفاطميين لدمشق فى يونيو ٩٧٤ م حتى مجئ الامبراطور تزييس-كس إلى الأراضى المسيحية المقدسة فى العام التالى ، قد شهدت مشاكل جديدة بالنسبة للفاطميين . وترجع هذه المشاكل إلى الاضطرابات الداخية التى قام بها أهالى دمشق . كما ترجع لظهور القائد التركى أفتكين على مسرح الحوادث فى الشام .

أصبحت دمشق فى الفترة المذكورة مسرحا للكثير من الاضطرابات الداخلية نتيجة للاشتباكات التى قامت بين المغاربة والدماشقة وما صاحب ذلك من كثرة التغيير فى ولايتها والمسئولين عنها . فان القائد الفاطمى ابراهيم بن جعفر بن فلاح ، بعد اطمأن إلى رجوع الإصم القرمطى إلى بلاده ، جاء بجيشه من المغاربة إلى دمشق (٦٨) ولا بد أن المعز أمره بذلك حتى يعاون ظالم العقيلي فى المحافظة على دمشق ، وحتى لا يستأثر ظالم بحكم هذه الامارة . إلا أن الجنود المغاربة لم يحسنوا التصرف فى مسلكهم مع أهالى المدينة وأساءوا اليهم ، وارتكبوا من أعمال النهب ما تسبب فى تدهورهم .

٦٦ - متى الرهوى ص ١٨

٦٧ - ذكر المقرئى أن الأسطول الفاطمى فى عهد المعز كان يتجاوز عسده ستمائة قطعة - أنظر : المخطط ج ٢ ص ١٩٣

٦٨ - كان وصول القائد الفاطمى أبى محمود ابراهيم بن جعفر بن فلاح إلى دمشق فى أواخر شهر رمضان ٣٦٣ هـ (يونيو ٩٧٤ م) . أنظر : ابن الفلانى ص ٤

وسرعان ما قامت الاشتباكات وتكررت بين الجنود المغاربة والدماشقة وخاصة عناصر الاحداث الذين كان على رأسهم اذ ذاك شخص يعرف بالمارود (٦٩) وحاول ظالم أن يحدد من سوء تصرف المغاربة ويقمع الفتن، وليس من المؤكد إذا ما كان قد أراد بهذا العمل أن يتقرب إلى الدمشقيين ليستقل بدمشق عن حكم العاطميين، أم أنه كان يريد اقرار الأمن في الولاية التي كان مسئولا عنها. ومما يمكن من أمره، فالمعروف أنه لم ينجح في تسوية الخلافات وقمع المتن، كما أن تصرفه لم يلق الرضا من جانب القائد العاطمي. وقد تمكن هذا الأخير من اقرار اتفاقية بينه وبين الدمشقيين لعزل ظالم العقيلي عن ولايته وإخراجه من البلد. وحل محله بعد ذلك القائد جيش بن الصمصامة، وهو ابن أخت القائد ابراهيم جعفر وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٣٦٤ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٤ م - يناير ٩٧٥ م) (٧٠).

إلا أن الأمر لم يستقر بدمشق في عهد الوالي الجديد جيش بن الصمصامة، وتجددت الاشتباكات بين المغاربة وأهالي المدينة، الأمر الذي استدعى تدخل المأمون. وكتب هذا الخليفة إلى قائده ريان الخادم وإلى طرابلس، وتلقاه أماره دمشق وأمره بالتوجه إليها والعمل على فرض النظام والأمن بها، كما أمره بصرف القائد ابراهيم بن جعفر عنها. (٧١) ولكن بالرغم مما بذله الوالي الجديد من جهد لإصلاح الأمر في دمشق والتوفيق بين المغاربة وأهل

٦٩ - بخصوص تفاصيل الاضطرابات والفتن التي قامت في اماره دمشق أثناء ولاية ظالم العقيلي، أنظر: ابن القلانسي ص ٤ - ص ٩

٧٠ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٣، ابن القلانسي ص ٩

٧١ - رحل ابراهيم بن جعفر عن دمشق في اعداد بسيطة من عسكره، إلى مدينة الرملة وبقى معظم جنده للخدمة تحت امره القائد ريان - أنظر: ابن القلانسي ص ١٠ - ص ١١، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٤

المدينة ، والتغلب على المصوبات التي هددت حكم الفاطميين فيها ، فإن حكمه لم يستمر طويلا ، وذلك أن العلاقات بين الدمشقيين والجنود المغاربة كانت ساءت لدرجة أنهم كانوا ينتظرون الفرصة المواتية للتخلص من المغاربة الذين أساءوا إليهم والذين كانوا على مذهب لا يقروه . هذا وكان أعيان المدينة بصفة خاصة متضايقين لما كان من تغلب عناصر الأحداث عليهم وعلى مصالحهم (٧٢) . وعلى كل ، فقد سئحت الفرصة للدماشقة للتخلص من هذه الأوضاع ، بظهور القائد التركي أفتكين على مسرح الحوادث في الشام .

كان أفتكين ، بعد هزيمة الأتراك على أيدي البويهيين في يناير سنة ٩٧٥ م (جمادى الأولى سنة ٩٦٤ هـ) ، قد قرر أن يجرب حظّه في مكان آخر . وعلى ذلك غادر العراق مع جماعة من أتباعه إلى البلاد الشامية . (٧٣) ونزل أول الأمر ، عند حصن التي كانت تابعة للحمدانيين ، وأقام هناك عدة أيام . ومن الجائز أنه حصل هناك على بعض المساعدات ، وعلى كل حال فإنه أتجه بعد ذلك جنوبا إلى دمشق ونزل بظاهرها . ويبدو أنه حتى هذه

٧٢ - ابن القلانسي ص ٨ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٠

٧٣ - ذكر ابن القلانسي أن انتقال أفتكين إلى الشام كان سنة ٣٦٣ هـ ، وهذا خطأ ، إذ الثابت أن هذا القائد قد اشترك في الأحداث التي قامت في العراق في الجزء الأول من سنة ٣٦٤ هـ ثم انتقل بعد هزمته هناك إلى الشام - هذا وقد ذكر نفس المؤرخ عن القوة العسكرية التي صاحبت أفتكين إلى الشام بأنها « فرقة وافرة من الأتراك تناهز ثلثمائة فارس من طراخين الغلمان » . ونرجح أن أفتكين كان لديه كذلك عناصر أخرى من المغاربة إلى جانب مماليكته ، فإنه كان لا يستطيع أن ينجز ما فعله في الشام باعتماده فقط على هذه القوة المحدودة التي ذكرها ابن القلانسي - انظر : ابن القلانسي ص ١١ ، يحيى الأنطاكي ص ١٤٤ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٥ ، النجزم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٨

الفترة لم يكن قد حدد بعد هدفه، وأنه كان لا يزال يتلمس الفرص المناسبة. ويقول المؤرخ يحيى الأنطاكي أن أفتكين أرسل إلى الخليفة المعز يستأذنه في الذهاب إليه في مصر (٧٤). ومن الجائز جدا أن أفتكين قد أراد اذ ذاك أن يلحق نفسه بخدمة هذا الخليفة الذي كان يحكم اذ ذاك دولة فسيحة قوية. هذا ولم يكن اختلاف المذهب وكون أفتكين على المذهب السني بالأمر الذي يجعل هذا الأمير يحجم عن العمل في خدمة الخليفة الشيعي . فان طموحه كان أقوى من أن يجعل الاختلاف المذهبي يقف في طريق مشروعاته السياسية . ويجب ألا ننسى أنه كان أصلا يعمل في خدمة البويهيين الشيعة .

ومهما يكن من أمر فإن أفتكين لم ينتظر وصول الرد من الخليفة الفاطمي ، اذ تطورت الأحوال بشكل جعله يقرر أن يتخذ من دمشق قاعدة لإنشاء إمارة جديدة له في الشام : وذلك أنه أثناء اقامته بظاهر دمشق ، جاءه وفد من شيوخ المدينة وأشرافها الذين أرادوا التخلص من حكم الفاطميين وسيطرة « الأحداث » وعرض أعضاء هذا الوفد عليه حكم إمارتهم . وتم الاتفاق بينهم وبين أفتكين على أن يتولى إمارة دمشق . واشترط هذا عليهم أن يقدموا له الطاعة والولاء والمساعدة ، كما تسهدهم بحمايتهم واصلاح شؤونهم ولم تأت المصادر بمعلومات عن كيفية تغلب أفتكين على والي الفاطمي بدمشق ، إلا أنه من الثابت أن أفتكين نجح في دخول المدينة وطرده ريان الخادم منها وذلك في آخر شعبان ٣٦٤ هـ (١٤ مايو ٩٧٥ م) . وعلى أثر ذلك قطع أفتكين الخطبة للخليفة الفاطمي وأقامها للخليفة العباسي ، ولا ريب أن ذلك كان مما يرضى الدماشقة السنيين . كما أخذ أفتكين في

تنظيم شؤون امارته وتديرها . ومن أول ما عمله كان الضرب على أيدي القبائل العربية التي كانت أستولت على سواد المدينة ونجح في فرض كلمته عليها . كما أرجع الاقطاعات إلى أهلها وخلصها من مغتصبينها ، والمرجح أن هؤلاء كانوا من الأحداث . كما نظم مالية البلاد ونجح في اقامة الأمن فأصبح حاكما مطاعا بدمشق . (٧٥)

ولقد توقع أفتكين أن يقوم الفاطميون بمحاولة استرجاع دمشق . ولذا فانه جدد اتصاله بالخليفة الفاطمي ، محاولا كسب الوقت لتثبيت مركزه فيها . ويذكر ابن القلانسي أن أفتكين « كاتب المعز مكاتبه على سبيل المداجاة والمغالطة والتمويه والالتقياد له والطاعة لأوامره . » كما يقول نفس المؤرخ أن للمعز « أجابه بالأحماد والارتضاء بمذهبه والاستدعاء له إلى حضرته ليشاهده ويصطعنه لنفسه ويهيئه إلى ولايته بعد ذلك مكرما مولى مشرفا » . (٧٦) إلا أن أفتكين لم يطمئن إلى ذلك ، وامتنع عن الذهاب إلى المعز الذي قرر أن يعد العدة لإرسال جيش ضده . ولكن لم تسمح له الظروف بذلك . إذ صاحب قيام أفتكين في ولاية دمشق ، مجيء حملة الأبراطور تزييسكس إلى الشام في ربيع سنة ٩٧٥م وأصبح على الفاطميين مواجهة هذا الخطر البيزنطي الكبير الذي أستمع حتى أواخر السنة المذكورة . هذا وفي ديسمبر من نفس السنة مات الخليفة المعز . (٧٧) وأصبح على الخليفة الفاطمي الجديد ، وهو العزيز ، أن يواجه خطر أفتكين الذي تزايد بشكل خاص على أثر استدعائه

٧٥ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٠ ، ابن القلانسي ص ١١ - ص ١٢

٧٦ - المرجع السابق ص ١٢ . أنظر كذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٠

٧٧ - كان موت الخليفة للمعز في ١٧ ربيع الآخر ٣٦٥ هـ (٢٤ ديسمبر ٩٧٥م)

انظر : ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٣ . ابن القلانسي ص ١٤

للقرامطة ، الذين سارعوا لمساعدته ضد عدوهم القديم . ولم يتمكن العزيز من القضاء على خطر أفتككين والقرامطة إلا في موقعة الرملة (أغسطس ٩٧٨م). (٧٨) ، التي على أثرها استرجع الفاطميون ولاية دمشق ، وبدأ إستقرار النفوذ الفاطمي في أواسط وجنوب الشام . ومهما يكن من أمر ، فإن حركة أفتككين كانت عاملاً آخر أدى إلى زيادة اضطراب الأحوال السياسية بين المسلمين في الشام وتمهيد السبيل أمام هجوم الإمبراطور تزييمسكس .

ولا يجوز القول أن المسلمين قد نسوا ، أثناء تعرض بلادهم لخطر الهجوم البيزنطي في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، وخاصة في عهد تزييمسكس ، مبدأ الجهاد في سبيل الاسلام . فاننا نجد دماة اهتموا بمحبة المسلمين على طرح خلافاتهم المحلية والجهاد في سبيل الاسلام ونصرته ضد البيزنطيين . ويرى بعض المشتغلين بدراسة تطور الأدب العربي أن هذا العصر شاهد بعث وانتعاش الخطابة ممثلة في خطب الجهاد العديدة التي وصلت إلى أيدينا . (٧٩) ولقد جاء هذا البعث نتيجة لاشتداد الخطر البيزنطي وازدياده . وهب المتحمسون ليعتلوا المنابر ويحثوا المسلمين على الجهاد والدفاع عن « دار الاسلام » . وكان من أبرز الشخصيات التي قامت بجهود كبيرة في الدعوة للجهاد ، هو الخطيب والفقيه المعاصر ابن نباته الذي عمل على تقوية الروح المعنوية عند المسلمين وحثهم على الجهاد .

٧٨ - كانت هذه الموقعة في السنوات الأولى من حكم العزيز - وقد ذكر يحيى الأنطاكي أنها كانت في ٧ الهرم ٣٦٨ هـ ، (١٥ أغسطس ٩٧٨ م) ، أما ابن الأثير فقد جعل الموقعة في الهرم ٣٦٧ هـ - أنظر : يحيى الأنطاكي ص ١٥٥ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٦٢

٧٩ - مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمداني (القاهرة - ١٩٥٩) ص ٢٠٨ - ٢٠٩

ولابن نباته مجموعة كبيرة من خطب الجهاد (١٠) ومن خطبه كانت تلك
الخطبة التالية التي صمد فيها إلى لوم وتوبيخ المسلمين على تقاعسهم عن الجهاد
محذراً إياهم من ذلك . وقد جاء فيها : « أيها الناس ، ان الدنيا قد أدبرت
وأذنت بانقلاب . وان الآخرة قد أقبلت وأذعنت باقتراب . فلا نحن لما
أدبر من هــ هذه ذوو اجتناب . ولا لما أنذر من تلك أولو ارتقاب . كأن
قلوبنا من الصم الصلاب . (٨١) أو كأن نفوسنا واثقة بحسن المآب . كلا
بل ران عليها خبث الإكتساب . وأعمى بصائرنا طول الالعاب . (٨٢)
فليس ينفعها قرع العتاب . ولا يردعها صدع الكتاب . (٨٣) ولا تمضيها
اذالة الأحساب . (٨٤) قد دخلت علينا الفتنة من كل باب . وأطمعتنا الدنيا
أطماع السراب . تتهارش على حطامها تتهارش الكلاب . . . (٨٥) » وقد
جاء في خطبة أخرى لابن نباته في ترغيب الناس في الجهاد : « أيها الناس ،
أن الجهاد باب الجنة الأعظم وطريقها الأقوم . من سلكه أمن الممالك .
ومن أدركه قطن الممالك . ومن شعر له كفى الفاقة . (٨٦) ومن أهمـهـ له

٨٠ - أنظرا : ديوان خطب ابن نباته (ط . بيروت ١٣١١ هـ) الجزء الخاص

بخطب الجهاد ص ١٧٧ - ص ٢٤٠

٨١ - المراد بالصم الحجارة

٨٢ - الالعاب : اللعب

٨٣ - صدع الكتاب أى تأثيره في القلوب

٨٤ - ومضيه والعضه : أو جمعه - الاذالة : الالهانة والابتدال

٨٥ - تتهارش الكلاب أى تخاصمها على الجيف - أنظر : ديوان خطب ابن نباته

ص ١٧٨ - ص ١٧٩

٨٦ - الفاقة : الدامية التي تنكسر الفقار أى الظهر

خسر الدنيا والآخرة • نخسران دنياه الذل والعار • وخسران أخراه الخزي والنار ...» (٨٧)

وكان لفكرة الجهاد والجهود التي بذلها الدعاة للبحث عليه ، آثارها في دفع المسلمين في الشرق الأدنى على القيام لمحاربة البيزنطيين وخاصة في أوقات الأزمات • ونستطيع القول أن عامة المسلمين كانوا ينظرون إلى مجاهدة الروم والدفاع ضدهم عن « دار الاسلام » كفرض واجب عليهم لا يستطيع أحد أن ينكره • ونحن نسمع عن حالات وجد فيها رد فعل بين المسلمين وذلك عند اشتداد الخطر البيزنطي ونجاح البيزنطيين في إلحاق هزائم كبيرة بقوات المسلمين • وكان رد الفعل هذا يأتي على شكل قيام عامة المسلمين في بعض البلاد بمظاهرات لحث المسؤولين على إرسال المساعدات • كما نجد أن الغيورين على مصلحة الاسلام يقومون بمواجهة المسؤولين وتوجيه اللوم لهم في حالة إهمالهم للجهاد وانشغالهم في تحقيق مصالحهم الخاصة • وسوف نوضح ذلك تفصيلاً فيما بعد عند دراسة الحملات التي قام بها تزيمسكس ضد المسلمين •

ومهما يكن من أمر ، فلم يفلح ما كان هناك من اهتمام بين المسلمين بالجهاد ولا المحاولات التي بذلها ابن نباته وأمثاله من الدعاة إلى الجهاد ، ولا الإنتصارات التي أحرزها البيزنطيون وتقدمهم في البلاد الإسلامية وخطرهم المتزايد ، في إيجاد حركة رد فعل عامه وتكوين جبهة إسلامية متحدة تجمع بين المسلمين في الشرق الأدنى للجهاد ضد هذا الخطر البيزنطي ومواجهته •

٨٧ - ديوان خطب ابن نباته ص ١٩٦ - أنظر كذلك النص الكامل للخطبة التي قالها ابن نباته لتشجيع المسلمين على الجهاد بمناسبة انتصارهم على الدمشقي البيزنطي ملاحظ في الملحق الثالث

حقيقة أنه وجدت بعض الحالات التي نسمع فيها عن إرسال نجادات من بغداد لمساعدة المسلمين في أقاليم الجزيرة ضد البيزنطيين ، إلا أن هذه المساعدات كانت محدودة ، ولم تأت بشكل دائم بل جاءت في حالات معينة .

وإن ماساد من الاضطراب في أحوال المسلمين السياسية في الشرق الأدنى ، وانقسامهم في هذه المنطقة إلى عدد من الدويلات والقوى المختلفة المتصارعة أثناء القرن العاشر الميلادي ، تلك الصورة التي تكرر ظهورها في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الميلاديين ، هو الذي يفسر النجاح الذي أحرزته كتائب الحروب الصليبية البيزنطية ، والحروب الصليبية اللاتينية ضد المسلمين .

ومما يجب ملاحظته في هذا الموضع ، الحالة المعنوية بين المسلمين في الشرق الأدنى في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي . فبالرغم مما قام به البيزنطيون من هجوم وما أحرزوه من نجاح ، وأستسلام بعض المدن والمراكز الإسلامية لهم ، وخوف بعض المسلمين الواقعيين في طريق هجماتهم ، فلم يعتر المسلمين في منطقة الشرق الأدنى شعور عام بالخذلان أو الرهبة والخوف أمام الامبراطورية البيزنطية . ونستشهد في هذا الصدد بما كتبه الرحالة الجغرافي المعاصر ابن حوقل (٨٨) الذي يمثل رأيه آراء كثيرين من المسلمين الذين كانوا حتى هذا العصر يمتازون بقوة الإسلام وبما حققوه من فتوح وانتصارات كبرى على حساب الامبراطورية البيزنطية وغيرها منذ

٨٨ - حدد فيليب حتى عصر نشاط ابن حوقل وانتاجه بالمدة الواقعة بين سنتي

٩٤٣ - ٩٧٧ م .. انظر :

Hitti, History of the Arabs (3 rd ed. London, 1946) p. 385.

أيام حركة الفتوحات الإسلامية الأولى (٨٩). وهو لم يتأثر بنهضة الامبراطورة البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية وما وصلت إليه من قوة في القرن العاشر الميلادي . فقد جاء في وصفه لهذه الامبراطورية: « بلد الروم عند الكثير من خاصة أهل الاسلام ومؤلفي الكتب ، بخلاف ما هو عليه بالحقيقة من صغر المحل وتفه الخطر ونزور الدخل ، وضعة الرجال ، وعزة الأموال . وخسيس الاعمال والاحوال .. » (٩٠) وقد أرجع ابن حوقل أسباب انتصار البيزنطيين على المسلمين ، إلى إشغال هؤلاء في خصوماتهم وحروبهم المحلية بدلا من تكوين جبهة متحدة ضد العدو الكافر . وهو يقول في ذلك : « غير أن للاسلام فيما عليه نفوس أهله وقلوبهم شأنا في إنتشار الكلمة وفساد الحال وكثرة العناد والخلاف والاشتغال بطلبة بعضهم لبعض ما حلا به للروم سريهم » (٩١) فطالت أيديهم إلى ما كانت مغلوله عنه وأطاعهم محسومة منه . (٩٢)

٨٩ - وما يدل أيضا على انتشار هذا الشعور بين المسلمين ما جاء في القصيدة المعاصرة لهذه الفترة التي نظمها القفال الشافعي ، وفي « الفريدة الإسلامية » التي وضعها ابن حزم . أنظر تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ ، ص ١٨١ - ص ١٨٤ ، الملحق الرابع

٩٠ - ابن حوقل ج ١ ص ٢٠٠

٩١ - السرب : الطريق

٩٢ - ابن حوقل ج ص ٢٠١

الفصل الرابع

العوامل التي أدت إلى الهجوم البيزنطي على الشرق الأدنى الاسلامي في عهد تزييمسكس

- الهجوم البيزنطي على الشرق كجزء من حركة التوسع الخارجي .
- وجود مركز الثقل البيزنطي في آسيا الصغرى و اثر ذلك في توجيه الهجوم نحو الشرق .
- رغبة البيزنطيين في استرجاع مستعمراتهم القديمة في الشرق .
- الارتباط الروحي بين البيزنطيين والاراضي المسيحية المقدسة واثارها الدينية .
- اعتبار البيزنطيين استرجاع الاراضي المسيحية مهمة مقدسة .
- موقف كنيسة القسطنطينية من فكرة الحرب المقدسة .

عندما نستهل هذا الموضوع ، يجب أن نضع في مقدمة إعتبارنا أن الغزوات الكبرى التي قام بها البيزنطيون في الشرق الأدنى الاسلامي في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي بما في ذلك الحملات التي قام بها الامبراطور تزييمسكس ، إنما كانت جزءاً من حركة التوسع الخارجي العام الذي قام به البيزنطيون والذي جاء نتيجة لنهضة الامبراطورية البيزنطية وما وصلت إليه من قوة في عهد الأسرة المقدونية .

هذا وقد وجدت كذلك عوامل خاصة أدت إلى إهتمام البيزنطيين بشن الهجوم على منطقة الشرق الأدنى ومن ذلك أن اقليم آسيا الصغرى البيزنطي ،

المجاور للبلاد الإسلامية ، كانت له أهمية خاصة في هذا الوقت . ففى هذه الحقبة من التاريخ كان مركز الثقل بالنسبة للعالم الهلينيستى فى آسيا الصغرى أكثر منه فى الأجزاء الأوربية من الإمبراطورية البيزنطية . وكان الطابع الهلينيستى قويا وسائدا بين سكان المدن والريف فى هذا الاقليم ، وكانت العقيدة الأرثوذكسية هى عقيدة أهالى خلقدونيه ونيقوميديا ونيقية وغيرها . كما كانت « الثيمات » المختلفة بآسيا الصغرى هى المسئولة إلى حد كبير عن إمداد خزانة الإمبراطورية بإيراداتها . كما كان بين أهالى هذه « الثيمات » أن جمعت الإمبراطورية خيرة قوداها وجنودها . وكانت آسيا الصغرى البيزنطية موطنا للعائلات الاقطاعية الكبيرة مثل آل كوركواز Curcuas وآل فوقاس Phocas وآل تزيمسكس Tzimisces وآلى ديوجين Dicgenes وآل كومنين Comneni . وكانت اقطاعات آل فوقاس فى قبدوقية وآل تزيمسكس وآل كوركواز فى أرمينية ، وآل دوكاس ممتدة بن يثينيه وبملاجونيا ، وأملاك آل ديوجين فى قبدوقية وآل بوتانيايتس حول سمورية . (١) وقد خربت هذه العائلات الاقطاعية ، بجماعهم موقعها الجغرافى ، شئون القتال ضد المسلمين المجاورين . والواقع أن معظم القادة فى حروب بزنطة ضد المسلمين جاءوا من هذه المنطقة . وكان من الطبيعى أن يهتم كل من الإمبراطور نقفور فوقاس وتزيمسكس بأمور الانحاء التى نشأوا فيها والتوسم على حساب جيرانهم المسلمين .

وكان من العوامل التى أدت إلى الهجوم الذى قام به البيزنطيون فى هذا العصر رغبتهم فى استعادة مستعمراتهم القديمة فى الشرق الأدنى ، تلك المستعمرات التى فقدوها فى القرن السابع الميلادى عندما قام العرب بحركة

(١) J. Laurent. Byzance et les Turcs Seldjoucides. p. 103.

فتوحاتهم الكبرى ولا بد أن هذه الرغبة ازدادت شدة نتيجة لما شعر به البيزنطيون من نمو قوتهم في القرن العاشر الميلادي ، وكذلك على أثر الانتصارات الأولى التي أحرزوها أثناء تقدمهم في الشرق . ونستطيع أن نتبين تماسك البيزنطيين بما اعتبروه حقاً قديماً لهم ومطالبتهم به ورغبتهم في استرداده ، فيما جاء في تلك الرسالة التي بعث بها الامبراطور ثقفور فوقاس إلى الخليفة العباسي المطيع حوالي سنة ٩٦٤ م ، أي قبيل اعتقال نيمسكس العرش بنحو خمس سنوات . وكانت هذه الرسالة على شكل قصيدة نظمها على لسانه أحد كتابه بال لغة العربية ، وقد اشتهرت باسم القصيدة الأرمينية .^(٢) وخطب فيها هذا الامبراطور العباسيين باعتبارهم أصحاب السلطة العليا في بلاد المشرق ، وأمرهم بالعودة إلى أرض صنعاء والحجاز وإخلاء ما كانوا يحكمونه من « بلاد الروم » .^(٣) كما نادى « بحق البيزنطيين » في حكم

٢ - ذكر المؤرخ ابن كثير أنه نقل هذه القصيدة أصلاً من كتاب « صلة الصلة » للأفغانى وهو من مؤرخى القرن الرابع الهجرى . وفي هذا العصر الذى نشط فيه الاتصال بين البيزنطيين والعرب ، لم يكن من الصعب الحصول على من يقوم بكتابة هذا الشعر بالعربية . والظاهر ان قائلها غير عرب ومن الأرمن إذ وجدت عنوانه باسم « القصيدة الأرمينية » . انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٤ - ص ٢٤٧ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (ط - أولى - للطبعة الحسينية - تاريخ الطبع غير مذكور) ج ٢ ص ١٧٩ - ص ١٨١

٣ - مما جاء في ذلك :

وبا قاطن الرملات وياكم ارجعوا : إلى أرض صنعاء واعين البهائم
وعودوا إلى أرض الحجاز أذلة : واخلوا بلاد الروم أهل المكازم
انظر : ابن كثير ج ١١ ص ٢٤٦

عدد من بلاد الشرق الأدنى ، وعزمه على فتحها ، مثل دمشق ومصر وبعض البلاد في شمال العراق . (٤)

ومع أهمية الدوافع العلمانية التي أدت إلى قيام حركة الهجوم البيزنطي على المسلمين ، فإنه لا يكون من الصواب أن نغفل عن أثر الدافع الديني . وإن الباحث المدقق لابد وأن يتبين تلك الحماسة والمشاعر والأهداف الدينية التي تظهر بوضوح وبشكل خاص في حملات الامبراطورين تقفور فوقاس وتزيكس ، على نحو يذكرنا بما حدث أثناء الحروب الصليبية التي قامت بها العناصر الأوربية اللاتينية بعد ذلك بحوالى قرن من الزمان .

وسبب ظهور تلك الحماسة الدينية في الدولة البيزنطية في الفترة المذكورة إنما يرجع للارتباط الروحي الشديد بين البيزنطيين والأراضي المسيحية المقدسة . والواقع أنه قد وجد رباط روحي بين أوروبا المسيحية بشقيها ، البيزنطي واللاتيني ، وهذه الأراضي طيلة العصور الوسطى . ففي تلك الأراضي ظهر السيد المسيح ، وبشر برسالته ، ثم صلب على حـد اعتقاد المسيحيين . ثم أن الديانة المسيحية كانت ديانة شرقية في عهدها الأول ، وقد ظهر كثير من قديسيها وشهداءها الأول في هذه البلاد التي تركوا فيها آثارهم ومخلفاتهم المادية . وأصبح المسيحيون يعتقدون أن زيارة تلك الأراضي المسيحية المقدسة وآثار القديسين تكسبهم ثوابا وتحقق لهم

٤ - جاء في القصيدة الأرمينية ما يأتي :

ومسكن آباء دمشق فاني : سائر جمع فيها ملكنا تحت خاتمي
ومصر ساءت فيها بسيفي عنوة : وأخذ أموالا بها وبهائمي
كذلك نصيبين وموصلها إلى : جزيرة آباء وملك الأفسام
انظر : المرجع السابق ج ١١ ص ٢٤٥ - ص ٢٤٦ .

الكرامات . كما كانوا حريصين على الحصول على ما يمكن التوصل اليه من آثار السيد المسيح والقديسين بخرى التبارك بها . وكان وقوع الأراضى المسيحية المقدسة تحت حكم غير مسيحي مسألة تثير مشاعر المسيحيين وتدفعهم على القيام لتخليصها على النحو الذى حدث عندما تمكن الفرس فى الجزء الأول من القرن السابع الميلادى من فتح بيت المقدس وحمل الصليب المقدس إلى عاصمة دولتهم .

وكان من الطبيعى أن يعم الاستياء أهالى أوروبا المسيحية عندما تمكن المسلمون من فتح بيت المقدس سنة ٦٣٧ (أو ٦٣٨) لتبقى فى أيديهم حتى سنة ١٠٩٩ م . وظلت أوروبا على اهتمامها بالأراضى المسيحية المقدسة ، ولكنها بقيت فترة طويلة وهى شاعرة بالعجز عن القيام بأى تدخل عسكرى مباشر لاسترجاع هذه البلاد . فإذ قوى الاسلام السياسية كانت لا تزال آخذة فى الازدياد، كما دأب المسلمون أثناء ذلك على مواصلة حركة الفتوحات الاسلامية بهمة ونشاط ، حتى اضطلع النفوس البيزنطى فى الشرق ، وانكشفت أملاك بيزنطة هناك وتراجعت حدودها وبقي الاسلام بلا منازع فى الأراضى المسيحية المقدسة . وفى هذه الأحوال أصبح استرجاع تلك الأراضى أملاً بعيداً عن أفق السياسة البيزنطية .

ولكن مع النجاح الملحوظ الذى أحرزه البيزنطيون فى دفع حدودهم شرقاً على حساب المسلمين منذ أواسط القرن العاشر الميلادى ، تجدد اهتمام البيزنطيين بالأراضى المقدسة وما بها من آثار دينية ، كما تجددوا ملهم اهتمامهم باسترجاع هذه الأراضى . وهناك عدة شواهد تدل على مدى قوة ارتباط البيزنطيين روحياً بالأراضى المسيحية المقدسة وازدياد اهتمامهم بكل ما حوته فى العصر الذى عاش فيه تزيمسكس . ويروى لنا المؤرخ المسيحي يوحى

الانطاكي المسألة الخاصة بأيقونة منديل المسيح .^(٥) ذلك أنه في سنة ٩٤٣ م (٢٢١ هـ) بلغت الجيوش البيزنطية في تقدمها إلى مدينة الرها لمنازلتها . ويقوم المؤرخ المذكور « ان البيزنطيين التمسوا من أهلها أيقونة المنديل الذي كان سيدنا يسوع المسيح مسح به وجهه وصارت صورته فيه . وبذل لهم الروم انهم اذا سلموهم هذا المنديل أطلقوا من الأسارى المسلمين الذين بيدهم عدداً ذكره لهم . » ثم بين هذا المؤرخ كيف وافق أهل الرها على طلب البيزنطيين بعد استشارة أهل الرأى في بغداد . كما يذكر كيف حمل البيزنطيون هذا المنديل في موكب كبير إلى العاصمة البيزنطية حيث استقبله الامبراطور وبطريك القسطنطينية وغيرها من كبار القوم ، وأن هذا المنديل حمل إلى كنيسة أيا صوفيا ثم إلى القصر الامبراطوري للاحتفاظ به .^(٦) ويروى لنا يحيى الانطاكي كذلك رواية أخرى عن اهتمام البيزنطيين بالآثار الدينية الموجودة في الشرق ورغبتهم في جمعها وهذه الرواية توضح حرص الامبراطور ثقفور على أخذ القرميدة التي كانت تحمل آثار وجه السيد المسيح من مدينة منبج سنة ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) ، وكيف أخرجها إليه أهل المدينة فأخذها منهم ولم يعرض لهم بمكروه .^(٧)

• تعرف هذه الأيقونة في المصادر الغربية باسم Mandilion

٦ - كان لهذا المنديل قدره بين المسلمين كذلك . فان أهل الرها لم يتصرفوا فيه قبل أخذ رأى الخليفة للتعقى ببغداد . واستنزم الأمر هناك عقد مجلس من القضاة والمفتهاء ليفتوا في المسألة . ولم يكن من السهل على هؤلاء أن يوافقوا في أول الأمر على تسليم المنديل : اذ اعترض بعضهم على ذلك ان المسلمين أحق بمنديل هيسى ولم يوافق المجتهدون على تسليمه إلا بجبرين وذلك لكي يخلعوا الأسرى المسلمين من « دار الكفر » . انظر : بحسب الانطاكي ص ٩٨ - ص ٩٩

٧ - المرجع السابق ؛ ص ١٢٧

هذا ومن أقوى الشواهد على ارتباط البيزنطيين بالأراضي المقدسة في هذا العصر ما جاء في تلك الوثيقة التاريخية البالغة الأهمية ، والتي كانت على شكل رسالة بعث بها الامبراطور تزييمسكس إلى حليفه آشود الثالث Ashod III ملك أرمينية المسيحية ، تلك الرسالة التي حفظها لنا المؤرخ الأرميني متى الرهوى .^(٨) فقد ذكر تزييمسكس أنه أثناء الحملة التي قام بها على البلاد الشامية لم يعرض بعض مدنها لويلات الحروب لإرتباطها بفجر تاريخ المسيحية . كما نلاحظ اهتمامه البالغ بالحصول على عدد من الآثار الدينية وافتخاره بذلك . ومن النصوص الهامة التي جاءت عن ذلك في خطاب تزييمسكس ، كان النص الخاص بمنازلة مدينة طبرية حيث قال : « ثم اتجهنا نحو بحيرة طبرية ، هناك حيث أتى مولانا المسيح بمعجزته — بسمكتين وخمسة أرغفة من الخبز . وعزمنا على محاصرة المدينة ، إلا أن الأهالي أتوا ليعلموا خضوعهم . . . عندئذ تركناهم أحراراً من نير الاستعباد ، وامتنعنا عن تخريب مدينتهم وديارهم . لقد جنبناهم مغبة النهب لأن بلدهم كانت موطن الحوار بين المقدسين . »^(٩) وبشأن ما حدث عند الناصرة فقد جاء في الرسالة المذكورة : « وحدث نفس الشيء في الناصرة ، حيث كانت أم الرب القديسة مريم المندراء سمعت النبأ السعيد من فم الملك . »^(١٠) ويذكر تزييمسكس في اعتزاز ما حصل عليه عند مدينة جبلة وما فعله به ، فيقول : اننا عثرنا في

(8) Chronique de Matthieu d'Edesse, Recueil des Historiens des Croisades, Documents arméniens, vol. 1, pp. 43 - 20.

— سوف أشير إلى هذا المرجع فيما يلي باسم « متى الرهوى » — انظر ترجمتنا العربية الكاملة لخطاب تزييمسكس في الملحق الأول .

٩ — متى الرهوى ص ١٥ — ص ١٦

١٠ — المرجع السابق ص ١٦

جبهة على النملين المقدسين اللذين سار بها المسيح حينما ظهر على الارض ، كما وجدنا أيقونة المخلص - المسيح - ، تلك الأيقونة التي كان قد طعنها اليهود فسال منها في التو دم وماء . ولكن نحن لم نلاحظ في هذه الأيقونة طعنة الحرب . ووجدنا كذلك في المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول ، وهو شيء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه الخلدات ، حملناها معنا لنحتفظ بها في مدينتنا - القسطنطينية - التي يكلاًها الرب برعايته . (١١)

وإن هذا الارتباط والاهتمام المتزايد بالبقاع المسيحية المقدسة وما حوتها من آثار دينية ، قد بعث بين البيزنطيين حماسة دينية حثتهم على القيام بما كان بالنسبة لهم مهمة مقدسة أو حروب دينية في طابعها ، من حيث أنها هدفت لنصرة المسيحية وتحقيق مجدها ، بما في ذلك استرجاع الأراضي المسيحية المقدسة وإقامة الحكم المسيحي بها ، والقضاء على قوى الاسلام . وكان أول ظهور هذه الحماسة الدينية بشكل واضح في عهد الأمبراطور ثيوفيلوس فوقاس . وجاءت في القصيدة الأرمينية السابقة الذكر ، أبيات تظهر بوضوح الدافع الديني في حروبه ضد المسلمين . فقد أعلن عن عزمه للقيام بالغزو لنشر الدين المسيحي في مشارق الأرض ومغاربها (١٢) ،

١١ - المرجع السابق ص ١٩ - ص ٢٠

١٢ - مما جاء في ذلك القصيدة الأرمينية :

سأفتح أرض الله شرقاً وغرباً . : وانشر دنيا للعالمين بصارمى
فيمسى هلا فوق السموات عرشه . : يفوز الذى والاه يوم التخاصم
وسأحبكم بالرب اودى به الثرى . : فصار رفانا بين تلك الرمانم

انظر : ابن كثير ج ١١ ص ٢٤٧

كما أبان عن رغبته الأكيدة في استرجاع بيت المقدس^(١٣) بل لقد هدد كذلك بإخضاع مدينة مكة ، المركز المقدس الرئيسى للمسلمين فى العالم أجمع ، وإقامة الحكم المسيحى بها .^(١٤)

والواقع أن تقفون تملكته الحماسة الدينية ، وكان ينظر إلى حروبهم ضد المسلمين على أنها مهمة مقدسة . وبنى كنيسة تذكارية خاصة تمجيداً لمن سقط من المحاربين البيزنطيين فى حومة الوغى .^(١٥) بل لقد صرح برأيه أن من يموتون من البيزنطيين فى الحرب ضد المسلمين يجب أن يمنحوا امتيازات روحية خاصة ، مثل تلك التى منحتها الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب . فقد طلب من الكنيسة البيزنطية الموافقة على اعتبارهم شهداء يغفر لهم ماتقدم من ذنوبهم .^(١٦) وأن هذه الإمتيازات من الأركان الرئيسية المميزة للحروب الصليبية اللاتينية . ويمثل هذا المطالب الذى طلبه تقفون من الكنيسة بوضوح الاحساس الذى ظهر فى الدولة البيزنطية فى هذا العصر بأن الحرب ضد المسلمين فى الشرق هى حرب مقدسة ، وهذا الاحساس الذى أمد البيزنطيين بدافع قوى للتوسع على حساب المسلمين وإسترجاع الأراضى المسيحية المهددة .

١٣ - كان مما اهلته تقفون عن عزه على استرجاع بيت المقدس :

اهود الى القدس التى شرفت بنا . . . بمن مكين ثبات الأصل قائم
واهلو سربرى للسيود معظما . . . وبقي ملوك الأرض مثل الخوادم
١٤ - هدد تقفون بإخضاع مكة بقوله :

واخرج منها نحو مكة سرعيا . . . اجر حيوشا كالابالى السواجم
فاملكتها دهرًا عزيزا مسلما . . . اقيم بهسا للحق كرمى هالم
المراجع السابق ج ١١ ص ٢٤٦

(15) La Monte, 'The World of the Middle Ages' (New York, 1949) p. 140

١٦ - للمراجع السابق ص ١٤٠ ، انظر : كذلك :
Ostrogorsky, p. 127; G. M. H., vol. IV, p. 74;

وهكذا وضع الامبراطور ثقفور فوقاس سابقة هامة لخليفته على العرش البيزنطى ، للقيام بحرب دينية لنصرة المسيحية والقضاء على قوى المسلمين واسترجاع الاراضى المسيحية المقدسة. وكان تزيكس متحمسا لهذه القضية المقدسة مثل ثقفور ، ويدل على ذلك اهتمامه بالقيام بحملات ضد المسلمين فى الشرق الأدنى والتصریحات التى جاءت فى رسالته إلى الملك الأرمينى آشوط . فقد جاء فى مقدمة هذه الرسالة ، التى بعث بها بعد رجوعه من الحملة التى قام بها على الشام سنة ٩٧٥ م ، ما يأتى : « يا آشوط ، يا شاهنشاه أرمينية الكبرى ، يا بنى الروحى ، انصت إلى وأعلم الأعاجيب التى أتاها الرب لصلحنا ، وانتصاراتنا التى تتم عن أعجاز ، والتى تدل على أنه يستحيل سبر غور العناية الإلهية . وإننا نريد يا صاحب المجد يا آشوط ، يا بنى ، أن نطلعك على الدلائل الساطعة على الفضل الذى أضافه الرب الى نعمه هذا العام ، على يدى جلالتنا ، وأن نبصرك بها . فأنت برصنك مسيحيا وصديقا وفيما لجلالتنا ، سوف تسعد بذلك وتلهج بعظمة مولانا المسيح السامية . وهكذا ستعرف أن الرب لا يكف عن حماية المسيحيين ... » (١٧) وقد جاء فى ختام رسالته عن إنجازاته فى هذه الحملة « ان الصليب المقدس بسط سلطانه على نطاق واسع ، فى جميع البقاء وفى كل اتجاه - وقد أصبح الناس يسبحون باسم الرب فى جميع هذه البلاد » . (١٨) هذا وقد حدد تزيكس هدفه الأساسى فى حروبه فى البلاد الشامية بقوله : « كانت رغبتنا أن نحرر ضريح المسيح المقدس من نير المسلمين . » (١٩)

١٧ - متى الرهوى ص ١٢

١٨ - المرجع السابق ص ٢٠

١٩ - المرجع السابق ص ٢٠

ولكن مع هذه الحماسة الدينية والرغبة التي وجدت بين البيزنطيين ،
والتي صرح عنها الامبراطور لاسترجاع الأراضي المسيحية المقدسة ، فإن
كنيسة القسطنطينية وقفت موقفا سلبيا في هذه المرحلة الهامة من التاريخ
البيزنطي . وقد رفض بطريرك القسطنطينية بوليكتيس ، الذي عاصر كلا
من ثقفور وتزيمسكس ، أن يتعاون في هذه المهمة التي هدفت لاسترجاع
الأراضي المقدسة نفسها حقيقة أنه وجدت سابقة للتعاون بين بطريرك
القسطنطينية وإمبراطورها لتحقيق هذا الهدف ، ترجع إلى الجزء الأول
من القرن السابع الميلادي وذلك عندما قام سرجيوس Sergius بطريرك
القسطنطينية وأمد الامبراطور هرقل بمالدي الكنيسة من كنوز ونفائس
ليستعين بها في صراعه ضد الفرس لاسترداد بيت المقدس والصليب المقدس
كما أنه منذ القرن التاسع الميلادي ، وعند الاحتمال بانتصارات الأباطرة
البيزنطيين على المسلمين ، أصبحت فرقة المرتلين الكنسيين تنشد : « المجد
لارب الذي هزم المسلمين » (٢٠) إلا أن كنيسة القسطنطينية وعلى رأسها
البطريرك بوليكتيس ، أمتنعت عن مساعدة الامبراطور في صراعه من أجل
نصرة المسيحية ضد المسلمين ، فتعاونوا بالتبشير بحرب مقدسة بين البيزنطيين
وتشجيعهم على ذلك بمنح امتيازات روحية لمن يشتركون في هذه الحرب .
وحتى عندما طلب ثقفور من الكنيسة البيزنطية اعتبار الذين يموتون في
القتال ضد المسلمين شهداء ، نحمد أن الأساقفة البيزنطيين وعلى رأسهم
بوليكتيس يعارضون ذلك معارضة شديدة ولا يلبون طلبه . ولم
استمرت الكنيسة البيزنطية على هذا الرأي ، ولم نجد منها تعاوناً مع
الامبراطور تزيمسكس .

(20) Constantine Porphyrogenetus, «De Ceremoniis» (Bonni Ed.) vol. I. pp. 332 - 30.

ونحن إذا أردنا أن نعمل هذا الموقف الذي وقفته الكنيسة الأرثوذكسية فلا بد وأن نرجع إلى العوامل الرئيسية التالية : أولا : موقف هذه الكنيسة التقليدي بالنسبة لمبدأ الحرب بصفة عامة - ثانيا : طبيعة العلاقة بين بطريرك القسطنطينية والامبراطور البيزنطي - ثالثا : موقف كل من ثقفور فوقاس وتزيمسكس من رجال الكنيسة في بيزنطة وأثر ذلك على العلاقة بينهما والكنيسة . وبمخصوص العامل الأول ، فالمعروف أن كنيسة بيزنطة قد تمسكت منذ نشأتها بتعاليم السيد المسيح وموقف آباء الكنيسة الأول ، تلك التعاليم التي نهت عن القتال وحرمة حتى ولو كان ذلك لخدمة الوطن المسيحي . فالكنيسة البيزنطية لم تعدل من موقفها بالنسبة للقتال على النحو الذي فعلته الكنيسة الغربية التي أخذت تشجع الناس على الاشتراك في القتال على أن يكرن ذلك لخدمتها .

ولتفسير العامل الثاني ، يجب أن نتذكر أن بطريرك القسطنطينية بفرض قيامه بالموافقة على تلك الامتيازات الدينية للمحاربين والتبشير بحرب مقدسة والدعاية لها ، لم يكن من المحتمل أن يعود ذلك عليه بفائدة خاصة تؤدي إلى تقوية مركزه على النحو الذي حدث للبابوية في غرب أوروبا عندما قامت بالتبشير بالحركة الصليبية وتزعمتها . ذلك أن العلاقة بين السلطة الإكليريكية والسلطة العلمانية في الدولة البيزنطية كانت تختلف عنها في غرب أوروبا . فإن امبراطور القسطنطينية منذ أن اعترف بالمسيحية كديانة رسمية للدولة في القرن الرابع الميلادي ، حرص على فرض سلطته على رجال الكنيسة وممارسة نفوذه في شئونها . ومما يدل على ذلك قول الامبراطور ليو الثالث الأيسوري في خطابه إلى بابا روما : « اني امبراطور وقسيس » ، كما قال أنه : « حامل مفاتيح السموات وراعي القطيع مثل بطرس أمير الرسل » وذلك

على حد ما جاء المجموعة القانونية الكبيرة التي وضعت في عهده وهي الإيكولوجيا Eclo a . (١) فلقد أصبحت بذلك الإمبراطور سلطة كبيرة في العثون الكنيسة في الامبراطورية البيزنطية مارسها على حساب سلطة بطريركها نفسه في كثير من الاحيان . وكانت سلطة الامبراطور في عهد ثقفور فوقاس وتزيمسكس قوية داخل الدولة ، وكانت المرجح أن الكنيسة في حالة موافقتها على الاشتراك في حرب مقدسة ، أن يعود ذلك بالفائدة على الامبراطور أكثر منها على البطريرك ، ويؤدي إلى إزدياد سلطة الامبراطور ، الأمر الذي كان البطريرك لا يرغب فيه بطبيعة الحال .

ويخص العامل الثالث تصرفات ثقفور فوقاس وتزيمسكس فقد اتخذ الاول منها من الخطوات ما أدى إلى استياء وسخط رجال الكنيسة . فإنه كان غير راض عن ظهور طبقة اقطاعية من رجال الدين استحوذت على اقطاعات كبيرة داخل الامبراطورية ، الأمر الذي زاد ثروتهم وقوتهم . وفضلا عن ذلك رأى ثقفور أن هذا التطور كان يندرج بانحراف رجال الدين عن أسس العقيدة الحققة ويعرضهم لإرتكاب المعاصي نتيجة لحياة البذخ التي توفرت لهم . ولذا أصدر هذا الامبراطور مرسوماً يعرف باسم Novel سنة ٩٦٤ م ، عرض فيه بازدياد ثروة رجال الدين وتكالبهم على جمع المال والاقطاعات ، قائلاً أن ذلك لا يتفق مع المسيحية وتعاليم الآباء الأول . وصرح بأنه أراد بإصدار هذا المرسوم أن يعمل على استئصال هذا « الطموح » لدى رجال الدين الذي هو « شر مكروه لدى الرب » . وعلى ذلك فإنه منع انشاء أية أديرة أو وقف أية اقطاعات جديدة على الأديرة والمركز الدينية الموجودة . (٢٢) وأثار هذا المرسوم سخط رجال الدين عليه

(21) Runciman, Byz. Civil, p. 66.

(22) Zacharia von Li-genthal Jus graeco-romanum, vol. III, pp. 292 - 96.

وكانت العلاقة بين الامبراطور تزييمسكس والكنيسة أحسن نسبيا مما كانت في عهد نقفور . إلا أن الامبراطور الجديد مع احترامه لرجال الدين وحرصه معاملته لهم وموافقته على المطالب التي طلبها البطريرك بوليكتيس، فإنه كان حريصا على التمسك بما كان له من نفوذ في الأمور الكنسية . فهو الذي قام بترشيح كبار رجال الكنيسة لتولي مناصبهم وعزلهم عنها إذا ما استدعى الأمر . وكان هذا الوضع إستمرارا للوضع التقليدي في الامبراطورية من حيث تفوق سلطة الامبراطور على سلطة البطريرك بها . وهكذا فإن موقف كل من نقفور وتزييمسكس بالنسبة لرجال الكنيسة البيزنطية لم يكن بالذي يجعلهم يرغبون في تعديل موقفهم بالنسبة لفكرة القتال ويبدشرون من جانبهم بحرب مقدسة .

ويتضح مما سبق ذكره موقف كنيسة القسطنطينية بالنسبة لفكرة الحرب ، وأنها لم تكن هي التي اضطلعت بمسئولية الحروب المقدسة أو «الحروب الصليبية» والاشراف عليها على النحو الذي فعلته البابوية في غرب أوروبا . وهكذا فلم تكن القوة الايكليركية ، بل القوة العلمانية ممثلة في الأباطرة هي المسؤولة عن قيام تلك الحروب البيزنطية ضد المسلمين التي عرفت باسم الحروب الصليبية . وإن اطلاق هذا الاسم على تلك الحروب لا يرجع إلى أن الكنيسة قد بشرت بها ولا لأنها منحت المشتركين فيها امتيازات روحية ، أو لأنها أمرتهم بلبس شارة الصليب على النحو الذي حدث في غرب أوروبا . وإنما جاء اطلاق هذا الاسم على هذه الحروب ، وخاصة حروب نقفور فوقاس ويوحنا تزييمسكس ، لما هدفت لتحقيقه من غرض سام بالنسبة للمسيحيين ، ألا وهو استرجاع الأراضي المسيحية المقدسة من أيدي المسلمين ، والقضاء على قوى المسلمين . والمعروف أن

استرجاع الأراضي المقدسة كان الهدف الأساسي الذي قامت من أجله الحركة الصليبية اللاتينية . وإن وجود هذا الهدف بشكل واضح في حروب تزييمسكس مع ما صاحب ذلك من مشاعر وحماسة دينية هو الذي يجيز لنا أن نطلق على حروبه اسم الحروب الصليبية . (٢٣)

ويجب أن ندخل في إعتبارنا ، عند تحليل العوامل التي أدت إلى قيام الهجوم البيزنطي على الشرق الأدنى في عهد تزييمسكس ، أنه إلى جانب العوامل العلمانية والدوافع الدينية التي انبثقت من نفس كيان المجتمع البيزنطي ، فلا بد وأن ما عانى منه المسلمون في الشرق الأدنى من انحلال واضطراب في أوضاعهم السياسية في هذا العهد ، كان عاملاً هاماً آخر أسهم في دفع البيزنطيين إلى القيام بهجومهم .

٢٣ . انظر المقالة الممتازة التي ناقش فيها لامونت الحروب المختلفة التي اطلق عليها اسم « الحروب الصليبية » .

La Monte, «La Papauté et Les Croisades», Roma l'Europe - Revue trimestrielle publiée par l'Ecole libre des hautes études, de New-York (New York, 1945), pp. 154-155.

الفصل الخامس

تزعيم سكس والشرق الأدنى الاسلامي في المرحلة الأولى، من عهده

- مناطق الارتكاز الامامية البيزنطية في الشرق - الجبهة البيزنطية في شمال الشام : الدفاع عن انطاكية ضد الهجوم الفاطمي - الجبهة البيزنطية الاسلامية في شمال العراق : بنو حبيب وصراهم ضد المسلمين

عند اعتلاء تزعيم سكس العرش كانت الامبراطورية البيزنطية قد أصبحت لها مناطق ارتكاز أمامية هامة في الشرق الأدنى . ففي شمال الشام كانت إمارة أنطاكية الهامة خاضعة للحكم البيزنطي ، وكان يشرف على شئونها حاكم بيزنطي يعينه امبراطور القسطنطينية . كما أن إمارة حلب ، وإن كانت قد استمر يحكمها أمراء من المسلمين ، إلا أنهم كانوا تابعين للسيادة البيزنطية بمقتضى اتفاقية صفر ٣٥٩ هـ (ديسمبر ٩٦٩ - يناير ٩٧٠ م) . وبناء على ذلك أصبح السبيل ممهدا أمام تزعيم سكس ليواصل الهجوم البيزنطي ويدفعه جنوبا إلى أواسط الشام وحنوبها ، ويحاول تحقيق حلم البيزنطيين بشأن استرجاع بيت المقدس . ومن ناحية أخرى كان البيزنطيون أحرزوا نجاحا هاما في مد نفوذهم إلى إقليم الجزيرة في شمال العراق . فقد امتدت الممتلكات البيزنطية إلى مشارف مدينة آمد . كما أن إقليم طرون (Tar n) الأرميني ، الواقع على الجانب الغربي من بحيرة فان Van ، والمتاخم لإقليم الجزيرة ، بدأ خضوعه للإمبراطورية البيزنطية منذ سنة ٩٦٦ - ٩٦٧ م . هذا وقد استولت القوات البيزنطية على مدينة ملازكرد،

وهي أيضا من أعمال أرمينية ، وكانت هذه المدينة خاضعة وقتئذ للمسلمين^(١) .
ونجد صدى لخوف المسلمين في هذه النواحي من تقدم البيزنطيين في قول
ابن الأثير : « وخافهم المسلمون في أقطار البلاد ، وصارت كلها سائبة لا تمنع
عليهم ، يقصدون أيها شاءوا . »^(٢) وقد أصبح من المتوقع أن يحاول
تزييمسكس التقدم في إقليم الجزيرة ليخضع ما يستطيع من مدنه ومراكزه
الرئيسية . كما كان من الطبيعي أن يفكر في تحييل نفس إمارة
الموصل الحمدانية إلى إمارة تابعة للسيادة البيزنطية على النحو الذي
حدث من قبل في حالة إمارة حلب . بل لقد قال المؤرخ البيزنطي المعاصر
ليون الشماس الذي كتب عن حملات تزييمسكس ، أن الإمبراطور عقد
العزم على الاستيلاء على بغداد عاصمة الخلافة العباسية نفسها^(٣) .

ومهما يكن من أمر ، فلم يتمكن تزييمسكس في المرحلة الأولى من حكمه
من تكريس قواه والتدخل شخصيا لتنفيذ سياسته في الشرق الأدنى ،
وذلك لإنشغاله وقتذاك في تثبيت ملكه داخليا ، واضطراره للاهتمام
بمشاكله الأوروبية . وقد شغله ذلك حتى أواسط ٩٧٢ م . ولكن فعلى الرغم
من ذلك ، أبدى هذا الإمبراطور اهتمامه في هذه الفترة بحدوده المشتركة
مع المسلمين في الشرق ، وحرص على الاحتفاظ بممتلكات الإمبراطورية في
هذه الناحية والاعداد لما عزم على القيام به من حملات كبرى فيما بعد .

١ - كان الاستيلاء على ملازكرد في ٢٥٩ هـ (١٤ نوفمبر ٩٦٩ - ٣ نوفمبر ٩٧٠ م) - انظر ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٨ - ولم يوضح هذا المؤرخ الذي انفرد
بذكر استيلاء البيزنطيين على ملازكرد ، إذ ما كان ذلك . آخر عهد نفقور أو
أول عهد تزييمسكس .

٢ - المرجع السابق ج ٨ ص ٢٢٨ .

٣ - انظر : شلومبيج ص ٢٥٩ .

والأسف فإن المعلومات التي جاءت بها المصادر التاريخية عن العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين في الفترة الأولى من عهد تزيتمسكس ، قليلة ومحدودة ولا تساعدنا كثيرا في تتبع هذه العلاقات بشكل كامل .

وعلى أية حال ، فبخصوص الجهة البيزنطية في شمال الشام ، نسمع عن تعرض مدينة أنطاكية لهجوم قامت به قوات اسلامية . فهناك من المؤرخين البيزنطيين أمثال سكيليتزيس Skylitzés ، وسيدرينوس Cedrenus ، وزوناراس Zonaras ، من يقولون بأنه قام تحالف شامل بين قوى المسلمين ، منذ أواخر سنة ٩٧٠ م ، بغرض القيام بهجوم عام ضد البيزنطيين في الشام لاسترجاع إمارتي أنطاكية وحلب ، والقضاء على الحكم والسيادة البيزنطية فيها . وقد ذكر هؤلاء المؤرخون اشتراك قوات نظامية وغير نظامية من المحاربين المسلمين وخاصة القوات المغربية ، وأن قوات المسلمين بلغت المائة ألف مقاتل ، وإنها كانت تحت رئاسة القائد « Zohar » .^(٤) وإن هذه الرواية التي تركها هؤلاء المؤرخون البيزنطيون ، لم تكن في الواقع إلا صدى للهجوم الذي قامت به القوات الفاطمية على إمارة أنطاكية . ذلك أن القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي قاد الحملة الأولى للفاطميين لفتح الشام ، بعد أن استقروا في مصر ، قد أرسل في ربيع الأول ٣٦٠ هـ (بدأ ٢ يناير ٩٧١ م) أحد غلمانه ، وهو القائد فتوح ، على رأس جيش لمنازلة تلك المدينة الهامة . ونحن نعرف أن جعفر جمع لهذا الهجوم ما استطاع

٤ - انظر شلومبرجيه ص ٢١٩ - ص ٢٢٠ - يقصد هؤلاء المؤرخون بالقائد « Zohar » المشار اليه ، جوهر الصقلي الذي كانت له القيادة العليا على جيوش الفاطميين في مصر والشام . إلا أنه يجب أن نلاحظ أن هذا القائد لم يذهب بنفسه على رأس الحملة الفاطمية الأولى إلى الشام .

جمعه من المحاربين من أعمال دمشق وطبرية وفلسطين، التي خضعت للفاطميين .
وقامت هذه القوات بمحاصرة أنطاكية لمدة خمسة أشهر وضيق عايتها الحصار ،
حتى اشتدت الحالة على المحاصرين بالداخل ، خاصة بعد أن تدعمت للقوات
الاسلامية بوصول مدد يتكون من أربعة آلاف مقاتل . (٥)

ولا بد أن هذا الهجوم الفاطمي على أنطاكية تسبب في أزجاج
الامبراطور . فإن البيزنطيين قد سبقت لهم مقابلة القوات الفاطمية في
صقلية وخبروا ما لها من بأس ومهارة في القتال . وكان ظهور الفاطميين في
هذه الفترة على مسرح الحوادث في الشام ينذر بتهديد المصالح البيزنطية
هناك . وعلى ذلك يادر تزييمسكس بإصدار أوامره الى حاكم « نيم » إقليم
الجزيرة البيزنطية ، وهو أقرب القادة البيزنطيين الكبار في الشرق الى
أنطاكية ، وأمره بالتوجه فوراً لمساعدة حامية المدينة . كما أرسل
الامبراطور قائده المعروف البطريق نيقولاوس Nicholas الى أنطاكية ،
وعهد اليه بالقيادة العليا على العمليات البيزنطية . (٦) ويذكر المقرئى تقدم
قوات فاطمية الى الاسكندرونة، والظاهر انها قامت لمواجهة بعض النجيدات
البيزنطية قبل وصولها الى أنطاكية . وهناك وقع اشتباك بين البيزنطيين
والفاطميين ، ولحقت الهزيمة أثناءه بالفاطميين ، وقتل منهم الكثير . (٧)
وعلى أثر ذلك انسحب الفاطميون من أنطاكية الى دمشق .

وفي تعليل أسباب فشل الفاطميين عند أنطاكية وانسحابهم الى دمشق،

٥ - انماظ الحنفا ص ١٧٧ - ص ١٧٨ ، راجع كذلك يعقبي الانطاكي

ص ١٢٩

٦ - شلومبرجيه ص ٢٢٢ ص ٢٢٣

٧ - انماظ الحنفا ص ١٧٨

يجب ألا نسلم برأى شلومبرجيه ، الذى يعزو ذلك لتفروق البيزنطيين فى الشجاعة والفنون العسكرية على الفاطميين . (٨) ويجب أن ندخل فى الاعتبار هاملاً رئيسياً آخر ويرجع إلى مركز الفاطميين أنفسهم فى الشام فى هذا الحين . فإن الفاطميين حينئذ لم يكونوا قد تغلبوا بعد على كافة العناصر الإسلامية المناوئة لنفوذهم فى الشام . وكان هجوم القرامطة على دمشق السبب الرئيسى الذى دعا جعفر بن فلاح يصادر أمره إلى فتوح بالانسحاب بقواته إلى دمشق للاشتراك فى مواجهة خطر القرامطة . (٩)

ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكي أن على أثر انسحاب الفاطميين من أمام أنطاكية قام الإمبراطور تزييمسكس بتعيين ميخائيل بورتزيس Michael Burtzes ، المعروف فى المصادر العربية باسم ميخائيل البرجى ، حاكماً على المدينة ، وكان هذا الرجل من كبار القادة البيزنطيين ، وكان له دوراً هاماً فى الحروب البيزنطية فى الشام وبالذات فى الاستيلاء على أنطاكية فى أواخر عهد نقفور فرقاس . وكان بورتزيس هذا أحد أعوان تزييمسكس فى المؤامرة التى قام بها وأوصلته إلى العرش . والمرجح أن تزييمسكس أراد بهذا التعيين مكافأة بورتزيس على مساعدته له ، وكذلك أن يجعل على حكم انطاكية التى كانت تعتبر المركز الرئيسى للبيزنطيين فى الشام ، رجلاً كفئاً وخبيراً بشؤون هذه البلاد ويضيف المؤرخ المذكور أن بورتزيس أصطحب معه اثني عشر ألف بناء وفاعل لأصلاح الأضرار التى لحقت بسور أنطاكية بسبب الزلزال الكبيرة التى حدثت بعد انسحاب الفاطميين . (١٠) ولا بد أن

٨ — شلومبرجيه ص ٢٢٣

٩ — انظر ما سبق ص ٧٢

١٠ — يحيى الانطاكي ص ١٣١ ، ١٢٩ — ذكر كل من المؤرخين البيزنطيين Cedrenus و Skylitzes مرضاً ، تعيين ميخائيل بورتزيس حاكماً على أنطاكية بدون أن يوضحا ظروف تعيينه — انظر : شلومبرجيه ص ٢٢٣ ، حاشية (١)

هؤلاء العمال كان عليهم كذلك اصلاح ما نتج من أضرار بسبب الهجوم الفاطمي على المدينة .

أما اماره حلب ، فكان المتسلط عليها في هذه الفترة الحاجب قرغويه الذي قبض على زمام الأمور بها بعد خروج الأمير الحمداني سعد الدولة . وكان قرغويه هذا هو المسؤول عن عقد اتفاقية سنة ٢٥٩ هـ مع البيزنطيين . والمرجح أن هذا الأمير لكي يتمكن من الاحتفاظ بمركزه ، قد واطب على دفع الجزية للبيزنطيين طبقا للاتفاقية المذكورة . أما سعد الدولة فقد اتخذ مقامه في معرة النعمان وأشرف على شئون إمارته وقطاش وهو مولى سيف الدولة الحمداني ، وكان يلي حصن رزويه . وامتنع سعد الدولة عن دفع ما هو مقرر من الجزية على البلاد التي في يده والتي هي جزء من إمارة حلب . (١١) وكان ذلك سببا في أن تزييمسكس عند ما قام بحملته على الشام في الفترة التالية من حكمه ، جعل البلاد الخاضعة لسعد الدولة هدفا لهجره بما في ذلك حمص وبرزويه .

وباستثناء ما سبق ذكره ، فإن المصادر التاريخية لم تذكر شيئا آخر عن أية اشتباكات بين البيزنطيين والمسلمين في الجبهة الشامية وذلك حتى الحملة الكبرى التي قام بها تزييمسكس على الشام سنة ٩٧٥ م .

وكانت المعلومات التي وصلت إلى أيدينا عن الحدود الإسلامية البيزنطية في جبهة إقليم الجزيرة بشمال العراق ، أقل من المعلومات التي وصلتنا عن الجبهة الشامية . وتشير المصادر التاريخية إلى أنه كان يحكم في مدينة آمد وال يعرف باسم أبي الفوارس هزار مرد ، وكان يليها من قبل أبي تغلب الحمداني .

أما مدينة ميفارقين فكان يحكمها وال يحمل اسم سبك. (١٢) ويقول المؤرخ كانار بأنه من المرجح أن إمارة الموصل الحمدانية قامت سنة ٨٣٥٩ م (٩٧٠ م) بعمليات عسكرية ضد الممتلكات البيزنطية المجاورة. وقد كون هذا الرأي مستنداً إلى التصريحات التي أدلى بها بعض قواد أبي تغلب عن عزمهم على القيام بالجهاد ضد الروم. (١٣) إلا أن هذه مسألة غير مؤكدة. وبفرض حدوث أى هجوم من الجانب الحمداني فلا بد أنه كان على نطاق محدود ولم يؤد إلى تغيير يذكر على الموقف. وذلك لما كان يعانيه الأمير الحمداني أبو تغلب من مشاكل الصراع الداخلي الذي قام بينه وبين إخوته. وفي نفس الوقت، فمن المرجح أن القواد البيزنطيين في الشرق أخذوا يعدون العدة للاشتراك في الغزوات الكبيرة التي قام بها الامبراطور تزيتمسكس في الفترة التالية.

وفضلاً عن ذلك، فيجب أن ندخل في اعتبارنا عند التحدث عن الحدود الإسلامية البيزنطية في شمال العراق، نشاط وجهود فرق المحالفين Foederati الذين كانوا يقيمون على منطقة الحدود، وكانوا يمهّدون السبيل لما يقوم به إمبراطور القسطنطينية من حملات، ويرافقون جيوشه عند خروجها للهجوم. وقد ترك لنا ابن حوقل نصاً بالغ الأهمية، يوضح لنا الدور الكبير الذي قامت به قبائل بنى حبيب العربية في هذا المجال، لخدمة البيزنطيين ضد المسلمين في إقليم الجزيرة. وذكر هذا الرحالة الجغرافي المعاصر، أن بنى حبيب الذين كانوا يقيمون أصلاً في منطقة نصيبين، وعلى أثر ما شعروا به من شدة وطأة حكم الحمدانيين « خرجوا بذراريهم وعبيدهم

١٢ - ابن ظافر : اخبار الدول المنقطعة (مخطوط - صورة شمسية بدار الكتب -

تاريخ ٨٩٠) ورقة ١٢ (ب)

١٣ - كانار ص ٨٣٨ - ص ٨٣٩

ومواشيهم وخفهم الذى يمكن بمثله النقلة (١٤) ومن ساعدتهم من جيرانهم وشاركهم فيما قصدوا به من الغصب لعقارهم ، فى نحو عشرة آلاف فارس على فرس عتيق وسلاح شاك ، من درع وجوشن مذهب ومغفر مدبج ، وسيف يقل شبهه ، ورمح خطى وآلة وعدة ، لم تزل على بلد الروم مطلة ، يقيم بها شوكتهم ويسبى بها ذراريهم ويخربون بالاستطالة حصونهم ويحجسون ديارهم ، يقدمهم نحو هذه العدة من الجنائب العتاق والبغال الفره ، عليها الخدم والحوول (١٥) والموالي ، فتنصروا باجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم النظر فى انزالهم على كرائم الضياع ونفائس الحبي والمتاع ، وخيرهم القرى والمنازل . ورفدهم بالنواحي الحسنة والمواشى العوامل (١٦) فعادوا إلى بلد الاسلام على بعيرة بمضاره وعلم بأسباب فسادهم ، وخبرة بطرقه ومعرفة بجبله ودقة ، وقلوبهم تضطرم حقدًا وتقور كيداً وتلهب ضبا . (١٧) وقد كاتبوا من خلفوه وراسلوا من عرفوه

١٤ - ذكر ابن حوقل أن خروج بنى حبيب من نصيبين إلى أطراف الامبراطورية البيزنطية كان بعد امتداد حكم الحمدانيين إلى إقليم الجزيرة وكان ذلك سنة ٣٣٠ هـ (٢٦ سبتمبر ٩٤١ - ١٤ سبتمبر ٩٤٢ م) . إلا أن ابن حوقل الذى هاسرهم هجوم تريمسكس على الشرق الأدنى ، قد ذكر أن بنى حبيب قد دابوا على الخروج إلى بلاد الجزيرة كل عام . انظر ابن حوقل ج ١ ص ٢١١

١٥ - الحول : جمع خول : الرقيق والاماء وغيرهم من الحاشية

١٦ - لاحظ ما هناك من أوجه الشبه بين عمل كل من البيزنطيين والعناصر الصليبية اللاتينية على اكتساب جماعات من المسلمين بمنحها امتيازات خاصة . والسبب الذى دفع كلا من البيزنطيين والصليبيين إلى ذلك هو الحاجة إلى خبرة المسلمين وضرورة الاعتماد عليهم . وقد كانت الجماعات الاسلامية التى تعاونت مع الأعداء من هذا النوع الذى يفضل الفائدة المادية العاجلة على أى اعتبار آخر - انظر للمؤلف : ملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية - ١٩٥٨) ص ١١٣ - ١١٧ ، رحلة ابن جبير (ت . د . حسين نصار - القاهرة ١٩٥٥) ص ٢٩١

١٧ - الضب : الحقد

ولا طافوه بذكر ما بلغوه ونالوه ، وكان الأكثر قد قصد في ضياعه وحيل بينه وبين أملاكه ، ووظف عليه مالا يـمـرفه ، وألزم من الكلف ما لم يمر بمثله عليه رسم ، فاطمعوهم فيما نالوه ، وعرفوهم ما وصلوا اليه وما جاؤوا فيه وله ، من قصد بلد الاسلام واجتياحه واصطلام نواحيه وبتاعه ، وأن مدـكـهم أيدهم وقواهم وأنعم عليهم وآواهم فلهق بهم كثير من المتخلفين عنهم ، وأنتمى اليهم من لم يك منهم ، فشنوا الغارات على بلد الاسلام وأفتتحوها حصن منصور وحصن زياد ، وساروا إلى كفر توثا ودارا فأتوا عليها بالسبي والقتل وألحقوا أسوارها بالأرض ، وضروا بذلك ، فصار لهم عادة وديدنا يخرجون في كل سنة عند أوان الغلات ، إلى أن أتوا على رضى نصيبين نفسها والغربي من ضياعها .. وتزايدت ثقة الملك بهم ، والروم في السكون اليهم إلى أن جعلت لهم الأرزاق ورسمت لهم الأعطية وصاروا خاصة الملك . وآراء العرب أثقف من آراء الروم لما يقتزن بهم من الجسارة والبسالة ، ففتتحوها له المضايق ، وتقدموا في المسالك وأطعموه على مر الأيام وتعاقب الأعوام ... (١٨)

وهكذا فإن قبائل بني حبيب ، بما لها من قوة عديدة ومهارة في القتال وحسن دراية بشئون المشرق ، وإرتباطها بالبيزنطيين وتنصرها ورضائها عن معاملتهم لها ، كانت بمثابة عنصر هام ساعد البيزنطيين في حروبهم ضد المسلمين في شمال العراق ، ومهد للهجوم الكبير الذي قام به الامبراطور تيزيمسكس كما عاونته في الحملات التي قام بها .

الفصل السادس

حملات تزييمسكس على شمال العراق

(٩٧٢ - ٩٧٤ م)

- مشكلة تاريخ حملات تزييمسكس على إقليم الجزيرة - خصائص طريقة الهجوم البيزنطي - حملة تزييمسكس ٩٧٢ م ونتائجها - حملة الادمستق ملوح (٩٧٢ - ٩٧٣ م) : المقايمة الاسلامية وهزيمة البيزنطيين - حملة تزييمسكس ٩٧٤ م الاتفاق مع الأرمن - الهجوم على المسلمين ونتائج

بعد أن انتهى تزييمسكس من التغلب على مشاكلة الأوربية الداخلى منها والخارجى ، كرس جهوده وإمكانات دولته فى المرحلة التالية من حكمه ، لتحقيق أهدافه فى الشرق الأدنى . وفى خلال الفترة الممتدة من سنة ٩٧٢ حتى سنة ٩٧٥م قام هذا الإمبراطور بأربع حملات هامة فى هذا الميدان . وتنقسم هذه الحملات إلى قسمين رئيسيين : القسم الأول وهو خاص بحملاته الثلاث الأولى وكانت على شمال العراق فى إقليم الجزيرة فى الفترة الممتدة من سنة ٩٧٢ إلى سنة ٩٧٤ م . أما القسم الثانى فهو خاص بهجومه الكبير على البلاد الشامية وكان ذلك سنة ٩٧٥ .

وبالاحظ مما سبق أن تزييمسكس بدأ هجماته الكبيرة على الشرق الأدنى بمنازلة إقليم الجزيرة قبل أن يذهب لمهاجمة الأراضى المسيحية المقدسة . فقد اجتذب هذا الاقليم إهتمامه ، مثلما حدث فيما بعد عندما جاءت حشود العناصر الصليبية اللاتينية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وإتجهت جماعة منها إلى بلاد الجزيرة حيث أسست إمارة الرها الصليبية التى كانت

أولى الامارات الصليبية في الشرق من حيث تاريخ إنشائها ، وكان ذلك قبل أن يستولى الصليبيون على أية مدينة من مدن الأراضى المقدسة . ونحن لا نستطيع أن نجزم بالأسباب التى جعلت تزيمسكس يبدأ بالبلاد الجزرية قبل الشام . ومهما يكن من أمر ، فيجب أن نتذكر أولاً ما تتمتع به إقليم الجزيرة من موارد طبيعية . وقد وصفه ابن حوقل بقوله : « والجزيرة إقليم جليل بنفسه شريف بسكانه وأهله ، رفة بخصبه ، كثير الجبايات لسلطانه » .. (١) وفى نفس الوقت ، لابد أن المشاكل الداخلية التى عانت منها إمارة الموصل الحمدانية كانت عاملاً آخر شجعه على استغلال الفرصة ومهاجمة هذه المنطقة . (٢) وفضلاً عن ذلك ، فلم يكن هناك من الأسباب القوية ما يدفعه على أن يسارع ويبدأ هجومه في الشام . حقيقة أن ظهور الفاطميين في الشرق الأدنى كان عاملاً خطيراً هدد مصالح الإمبراطورية في هذه المنطقة إلا أن هذا الخطر كان محدوداً في السنوات الأولى التى تلت إنتقال الفاطميين إلى هذه البقاع ، وذلك بسبب المشاكل والصعوبات التى واجهتهم حينئذ وخاصة مشكلة تدخل القرامطة ولم يكن الفاطميون قادرين بعد على فرض نفوذهم بشكل فعال هناك وتركيز قواهم لمهاجمة البيزنطيين .

مشكلة تأريخ حملات تزيمسكس على إقليم الجزيرة :

ويواجه الباحث ، عند معالجة موضوع حملات الامبراطور تزيمسكس على إقليم الجزيرة مشكلة تاريخية كبيرة ، طال النقاش فيها بين المؤرخين المحدثين . وقد قامت هذه المشكلة بسبب الاختلاف الكبير في روايات المصادر التاريخية المختلفة التى كتبت في هذا الموضوع ، وصعوبة التوفيق

١ - ابن حوقل ج ١ ص ٢٠٩ - ص ١١٠

٢ - بشأن هذه المشاكل ، انظر ما سبق ص ٥١ - ٥٢

بـنـهـما الأـمر الـذي يصـعب مـهـمة البـاحـث فـي تـكوـين صـورة كـامـلة وـدقـيـقة لـما قام به تزيـمـسـكـس وأنـجـزه فـي هـذا الصـدد . والمـصـادر الرئـيـسـيـة الـتي يـمـكـنـا الـاعـتـمـاد عـلـيـهـا فـي دـراسـة هـذا المـوـضـوع هـي مـاتـر كـه المـؤـرخـون العـرب مـسـكـويـه ، الصـابـي ، يـحـيـي الـانـطـا كـي ، إـبـن الأـثـير ، إـبـن الـازـرق الفـارـقـي ، وإـبـن ظـافـر ، وكـذـلـك ما كـتـبـه غـير العـرب مـن المـؤـرخـين مـثـل لـيـون الشـمـاس و هـو المـؤـرخ البـيـزنـطـي المـعـاصـر لـالـمـبـرـاطـور تـزـيـمـسـكـس ، ومـتـي الرهـوي و هـو المـؤـرخ الأـرمـيـثـي الـذي لـمـهـم بـتـتـبـع أـخـبـار حـرـوب كـل مـن نـقـفـور فـوقـاس ويـوحـنا تـزـيـمـسـكـس ضـد المـسـلـمـين فـي المـشـرق .

وقـد ذـكـر لـيـون الشـمـاس أـخـبـار الحـمـلة الـتي قام بـها تـزـيـمـسـكـس عـلى إقـلـيم الجـزـيـرة سـنة ٩٧٤ م ولم يـشـر إـلى قـيـام غـيـر هـا مـن الحـمـلات . أـما المـؤـرخ مـتـي الرهـوي فـلـم يـذـكـر أن هـذا الـمـبـرـاطـور أـرـسـل أـوـلا الحـمـلة الـتي كـانـت تـحـت قـيـادـة الـدمـسـتـق مـلـيـح Mieh (٩٧٢ - ٩٧٣ م) ، وأـنـه بـعـد فـشـل هـذه الحـمـلة قام بـنـفـسـه عـلى رآس حـمـلة أـخـرى سـنة ٩٧٤ م ، و هـي الحـمـلة الـتي تـحـدث عـنـها لـيـون الشـمـاس . أـما المـؤـرخـون العـرب ، فـقـد سـجـل مـعـظـمـهم أـخـبـار حـمـلة رآسـها الإـمـبـرـاطـور بـنـفـسـه سـنة ٩٧٢ م ، وأـنـه بـعـد ذـلـك عـين الـدمـسـتـق مـلـيـح عـلى رآس حـمـلة أـخـرى أـرـسـلـها لـمـهـاجـمة المـسـلـمـين فـي أـخـريـات سـنة ٩٧٢ و اـوـائـل ٩٧٣ م . إـلا أن هـؤـلـاء المـؤـرخـين لـم يـذـكـروا شـيـئا مـطـلـقا عـن الحـمـلة الـتي ذـكـر كـل مـن لـيـون الشـمـاس ومـتـي الرهـوي أن الـمـبـرـاطـور قـد قام بـها سـنة ٩٧٤ م . و هـكـذا فـتـتـقـابـل هـذه المـصـادر ، بإسـتـثـناء لـيـون الشـمـاس ، فـي ذـكـر حـمـلة الـدمـسـتـق مـلـيـح ، حـيـن أـنـهـا لا تـتـفـق بـخـصـوص ما جـاء عـن حـمـلة الإـمـبـرـاطـور سـنة ٩٧٢ م الـتي جـاء ذـكـر هـا فـي المـصـادر العـرـبـيـة ، و الحـمـلة الـتي ذـكـر مـتـي الرهـوي و لـيـون الشـمـاس أن الـمـبـرـاطـور قام بـها سـنة ٩٧٤ م .

وفد أدى هذا الاختلاف في روايات المصادر التاريخية إلى قيام التضارب بين المؤرخين المحدثين الذين تعرضوا لدراسة هذا الموضوع . فان بعض هؤلاء المؤرخين التزموا برواية ليون الشماس ولم يعترفوا إلا بحملة واحدة قام بها تزيمسكس إلى إقليم الجزيرة وهي حملة سنة ٩٧٤ م ، ومنهم جروسية ورانسيان . (٣) وجاءت جماعة أخرى من المؤرخين المحدثين ، وهم يرون أن الإمبراطور قام بحملتين على الأقليم المذكور إحداهما كانت تحت قيادته الشخصية والأخرى عهد بقيادتها للدمستق مليح ، إلا أن أفراد هذه الجماعة انقسموا إلى قسمين قسم يرى أن الحملة التي قادها الإمبراطور نفسه قد سبقت زمنيا حملة الدمستق ، في حين تمسك أعضاء القسم الآخر برأيهم القائل بأن الإمبراطور لم يحضر إلى الشرق إلا بعد هزيمة الدمستق ، وكان حضوره بغرض الانتقام لما لحق بالبيزنطيين . وكان من أول وأهم أنصار هذا الرأي الأخير المؤرخ شلومبرجيه الذي تأثر بما جاء في تاريخ متى الرهوى . وقد تبعه في اتخاذ هذا الرأي غيره من المؤرخين المعروفين مثل فاسيليف وبريه . (٤)

وهكذا كان الاتجاه العام بين المؤرخين المحدثين نحو عدم الاعتراف بما جاء في المصادر العربية عن قيام حملة سنة ٩٧٢ م ، وكان السبب الرئيسي الذي جعلهم يتخذون هذا الرأي ، هو اعتقادهم أن تزيمسكس كان منشغلا

(3) R. Grousset, *Histoire des Croisades* (Paris, 1934). vol. I. p. XVI; S. Runciman, *A History of the Crusades* (Cambridge, 1951), vol. I, p. 31.

٤ - شلومبرجيه ص ٢٢٧ - ص ٢٢٨ - انظر كذلك :

Vasiliev, (C. M. H.) vol. IV, p. 147; Bréhier, *Vie et Mort de Byzance*, p. 205.

في محاربة الروس حتى شهر يوليو سنة ٩١٢ م ، واضطراره لتركيز جهوده ضدهم . ولتبرير وجهة نظرهم طعنوا في روايات المؤرخون العرب ، وعلى سبيل المثال ، فإن المؤرخ أناستاسيفيتش Anastasievich قد قال في مقالته التي كتبها عن غزوات تزييمسكس في اقليم الجزيرة بأن المؤرخ يحیی الأنطاكي ، الذي اعتبره المصدر الرئيسي في دراسة هذا الموضوع ، اختلط عليه الأمر وسجل أحداث حملة سنة ٩٧٤ على أنها وقعت سنة ٩٧٢ . (٥) وتصدي المؤرخ دولجر Dolger لبحث هذه المشكلة الخاصة بتاريخ حملات تزييمسكس ، ونقد رأى أناستاسيفيتش ولم يوافق عليه ، ورد إلى رواية يحیی الأنطاكي إعتبارها ، وتوصل دولجر إلى رأيه القائل بأن الامبراطور تزييمسكس قام بثلاث حملات على اقليم الجزيرة ، وهي الحملة التي رأسها سنة ٩٧٢ م ثم حملة الدمستق (٩٧٢ - ٩٧٣ م) وأخيرا الحملة الثالثة التي قادها الامبراطور بنفسه سنة ٩٧٤ م . (٦) وقد نالت هذه المشكلة التاريخية اهتمام المؤرخ الفرنسي كانار الذي أقر دولجر على رأيه (٧) .

والواقع أن رأى تلك الجماعة من المؤرخين المحدثين ، الذين لم يسلموا بروايات المصادر العربية عن قيام الامبراطور تزييمسكس بحملة سنة ٩٧٢ م لا يقوم على أسس سليمة ولا يستطيع أن يثبت أمام ما يوجد من قرائن . فقد أصبح من الواضح الآن أن الامبراطور تزييمسكس قد تغلب على خطر

(5) Ana-tasievitch, Die Zahl der Araberzüge des Tzimisces BZ, XXX, 1929-30, p. 400 05.

(6) Dölger, Chronologie des gr. Feldzuges des Joh. Tzimisces gegen die Russen, BZ, XXXII, 275-292.

(7) M. C hard, La date des expéditions mésopotamiennes de Jean Tzimisces, Melanges Grégoire II (1950) gr II; Id. Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 841 - 44.

الروس وانتهى من مشكلتهم بعقد اتفاقية يوليو سنة ٩٧١ (٨) ، وأنه كان من الممكن له أن يتفرغ بعد ذلك لتنفيذ سياسته في الشرق الأدنى . وفضلا عن ذلك فلا يوجد أى سبب منطقي يجعلنا نرفض التسليم بروايات المصادر العربية المتعددة وتجاهلها ، خاصة وأن منها من عاصر حملات تزيمسكس وكان على اتصال وثيق بأحداثها على النحو الذى سنبينه فيما بعد .

وان إجماع المصادر العربية على التزام الصمت المطلق بإزاء الحملة التى قام بها الامبراطور سنة ٩٧٤ م ، والتى ذكرها كل من ليون الشماس ومتى الرهوى ، هو من المشاكل التى يواجهها الباحث فى تاريخ حملات تزيمسكس على الجزيرة . والواقع أن هذا الموقف الذى وقفته المصادر العربية مما يبعث على الدهشة والاستغراب خاصة لإتصال بعضها الوثيق بهذه الأحداث مثل ابراهيم بن هلال الصابى ، وكذلك مسكويه الذى كان على علم بأحداث القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وأسهب فى تدوين أخبار العراق فى هذا الزمن . ولا يكون من الصواب أن نقول بعدم قيام هذه الحملة ، اذ لا يوجد من الأسباب ما يدعو للشك فى رواية ليون الشماس ومتى الرهوى أو عدم قبولها . كما لا نستطيع القول بأن هذين المؤرخين قد التبس عليهما الأمر ، وأن حملة سنة ٩٧٤ م التى تحدثنا عنها ما هى إلا حملة سنة ٩٧٢ م السابقة الذكر . اذ أن المعلومات التى ذكرها على أنها تتبع سنة ٩٧٤ تصف حملة تختلف عن الحملة التى وقعت قبل ذلك بسنتين والتى ذكرها المؤرخون العرب . وأمام ذلك فلا نستطيع إلا القول بأنه لا بد وأن وجدت أسباب معينة جعلت المؤرخين العرب يسقطون ذكر هذه الحملة . وسوف

تعرض لتحليل هذه الأسباب عند التحدث تفصيلاً عن الحملة المذكورة .

وقبل أن ننتقل للغرض في تفاصيل حملات تزييمكس ، يستحسن أن نوضح أهم خصائص الطريقة التي اتبعها في هجومه على المسلمين في الشرق الأدنى ، تلك الطريقة التي فرضتها الظروف على البيزنطيين عند توسعهم في هذا الميدان . فإن البيزنطيين عند ارسال حملاتهم على منطقة الشرق الأدنى ، سواء أكان ذلك في شمال العراق أو الشام ، كانوا يمانون من ماول خطوط المواصلات وكان عليهم أن يمدوا عملياتهم العسكرية إلى مساحات كبيرة من البلاد الشرقية . وكان من الطبيعي أن تتعرض القوات البيزنطية إلى النقص في المؤن اذا ما طالت عمليات القتال . وفي نفس الوقت فبالرغم من مشاكل المسلمين السياسية وخلافاتهم المحلية ، فإن إقتحام مدينة أو مركز من مراكزهم الحصينة وأخذة عنوة ، لم يكن بالمسألة السهلة ، وكثيراً ما تطلب الأمر عامل الوقت ، الأمر الذي كان البيزنطيون لا يستطيعون الإسراف فيه . ومن هنا كان من الضروري أن يعتمد هؤلاء على العمليات الحربية السريعة أثناء هجومهم . وهذا الأمر هو الذي يفسر الطريقة التي إتبعها تزييمكس ونقفور فوقاس من قبله : وقد قامت هذه الطريقة على تخريب وحرق المزارع المحيطة بالمدن والقرى والحصون الرئيسية التي تقصدها القوات البيزنطية ، وكذلك أسر العاملين فيها والإستيلاء على مواشيتها . وغالباً ما كان خروج الجيوش البيزنطية في وقت الحصاد لتقوم بإتلاف الغلات . وكان البيزنطيون يكررون ذلك عاماً بعد عام ، وهدفهم في ذلك إضعاف تموين هذه المدن والمراكز الإسلامية حتى تضطر في النهاية للتسليم .

وقد لفتت هذه الطريقة البيزنطية أنظار المؤرخون العرب وأشاروا اليها (٩) وحتى عند نجاح البيزنطيين في الاستيلاء على بعض البلاد الإسلامية ، نجد أن الامبراطور البيزنطى في غالبية الأحوال ، كان لا يقيم حكما بيزنطيا مباشرا أو يترك حاميات بيزنطية للاحتفاظ بها ، بل كان يكتفى بمقد إتاقيات مع الأمراء المسلمين ، يدفعون بمقتضاها الجزية أو الخراج للامبراطورية ، أو يغترفون بالسيادة البيزنطية ويلتزمون بها يترتب على ذلك من مسئوليات . ولكن نجاح البيزنطيين في إجبار المسلمين على تنفيذ هذه الاتفاقيات كان يعتمد إلى حد كبير على إشعارهم بقوة بيزنطة العسكرية وهيبتها ، وكان هذا يستلزم مواصلة إرسال حملات عسكرية إلى الشرق . وكان من الطبيعى أن يستغل الأمراء المسلمون أية فرصة للتحلل من هذه الإتاقيات . ومن هنا نستطيع القول أن الحملات التى قام بها تزيمسكس ، كانت مثل تلك التى قام بها من قبله نقفور فوقاس ، أقرب إلى الإغارات الكبرى السريعة منها إلى الحملات الطويلة التى تهدف إلى احتلال دائم لجميع البلاد التى تستولى عليها .

حملة تزيمسكس سنة ٩٧٢ م : قبل أن يصل تزيمسكس بحملته الكبيرة الأولى إلى الشرق ، وردت إلى المسلمين أنباء هذه الحملة وما أعده لها من قوى كبيرة واستعدادات ضخمة . ونجد صدى هذه الأنباء فيما رواه المؤرخ سبط بن الجوزى عن أحداث سنة ٣٦١ هـ (١٠) حيث قال : « وفيها تواترت الأخبار أن ملك الروم عزم القصد إلى بلاد المسلمين فى ستبائة

٩ - يعبى الأنطاكي ص ١٣٥ ، ص ١٣٩ - ص ١٤٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٤

١٠ - ٣٦١ هـ = ٤ نوفمبر ٩٧١ - ٢٣ أكتوبر ٩٧٢ م

الف مقاتل ، فأزعج أهل الشام والجزيرة ليفعل فيها ما فعل بـ حلب .. « (١١) وبطبيعة الحال كان هذا التقدير لمـدد قوات تزيـمسكس التي أشرت في حملته مبالغا فيه ، إلا أنه يدل على ما شعر به المسلمون بمـدى إتساع إستعدادات الامبراطور في هجومه المتوقع . كما أن هذا النص يبين خوف المسلمين في كل من الجبهتين الشامية والجزرية من هجوم البيزنطيين ، وما قد يلحق بهم من مصير مثل هذا الذي لحق بإمارة حلب التي اضطرت للخضوع للسيادة البيزنطية منذ سنوات معدودة . وعلى كل فقد أتمجعت هذه الحملة الكبيرة إلى إقليم الجزيرة . هذا وتؤكد المصادر العربية أن تزيـمسكس نفسه هو الذي جاء على رأس الحملة وتولى قيادتها . وأهم ما جاء في ذلك ما كتبه ابراهيم بن هلال الصابي ، رئيس ديوان الانشاء في بغداد في هذا العصر ، الذي ذكر إشتراك « عظيم الروم » في هذه الحملة . وقد أقتصر المسلمون في إستعمال هذا اللفظ في هذا العصر للدلالة على إمبراطور الروم . (١٢)

غير تزيـمسكس على رأس جيشه نهر الفرات عند مدينة ملطية التي كانت تقع عند إحدى للمرات المؤدية من أراضي الدولة البيزنطية إلى إقليم الجزيرة (١٣) ، ودخل إقليم ديار ربيعة . والظاهر أن الامبراطور عرج في

١١ — سبط بن الجوزي : مرآة الزمان — ج ١١ ورقة ١٥ (صورة شمسية — مخطوط بدار الكتب — تاريخ ٥٥١)

١٢ — رسائل الصابي ص ٤٧ ، ص ٥٣ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٣ ، سبط ابن الجوزي ص ٢٠ ، بحري الانطاكي ص ١٣٩

١٣ — انظر وصف ابن حوقل : « ونخرج الفرات من داخل بلاد الروم على ما شكلته بجنار من ملطية يومين وبجري بينها وبين المدينة المعروفة » ج ١ ص ٢٠٨

طريقه على مدينة الرها فأغار عليها وعلى ما يحيط بها من بلاد. (١٤) إلا أنه جعل مدينة نصيبين هدفا أساسيا وقرر الاستيلاء عليها. وكانت هذه المدينة تتمتع بمكانة خاصة بين مدن الجزيرة. وقد جاء في وصفها : « وكان من أجل بقاع الجزيرة وأحسن مدنها وأكثرها فواكه ومياهاً ومتنزهات وخضرة واضرة إلى سعة غلات من الحبوب والقمح والشعير والكروم الرائحة الزائدة على حد الرخص، نصيبين، وهي مدينة كبيرة (١٥) وتمكن تزييمسكس من الاستيلاء على هذه المدينة في ١٢ أكتوبر سنة ٩٧٢ م (أول محرم سنة ٣٦٢ هـ) (١٦) وتفيد المصادر أن القوات البيزنطية نهبت نصيبين وخربتها كما أسرت كثيرين من أهلها. وأقام تزييمسكس بها نحو عشرين يوماً، خربت قواته أثناءها البلاد المجاورة لها. وفي الوقت ذاته شعر أمير الموصل أبو تغلب الحمداني، بالعجز عن مقاومة الامبراطور، وعلى ذلك دخل معه في مفاوضات انتهت بالاتفاق على عقد هدنة مقابل جزية سنوية يدفعها أبو تغلب إلى الامبراطور. كما اشترط الأخير على أبي تغلب المبادرة بدفع جزية سنة مقبلة. وأتجه تزييمسكس بعد ذلك إلى ميفارقين، وهي من المدن الرئيسية في ديار بكر، وحاصرها عدة أيام

١٤ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٣

١٥ - ابن حوقل ج ١ ص ٢١١ - هذا وقد ظلت هذه المدينة تتمتع بمميزاتها حتى عهد الجغرافي ياقوت الحموي الذي كتب عنها : « وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعين ألف بستان .. بينها وبين الموصل ستة أيام » ياقوت ج ١٩ ص ٢٨٨ - ص ٢٨٩

١٦ - سبط بن الجوزي ص ٢٠ ، ابن ظافر ورقة ١٢ ب ، يعجبى الانطاكي ص ١٤٠ - ويلاحظ أن ابن الأثير في حين أنه اتفق مع غيره من المؤرخين أن الاستيلاء على نصيبين كان في أول المحرم ، إلا أنه أخطأ فجعله في ٣٦١ هـ بدلاً من ٣٦٢ هـ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٣

الا أن حصانة هذه المدينة ساعدت المدافعين عنها في الامتناع على
الامبراطور . وقد أشار الرحالة ناصر خسرو إلى حصانة ميفارقين بقوله :
« ميفارقين محاطة بسور عظيم من الحجر الأبيض الذي يزن الحجر منه
خمسائه من (١٧) ، وعلى بعد كل خمسين ذراعا من هذا السور برج عظيم من
الحجر نفسه ، وفي أعلاه شرفات ، وهى من الدقة بحيث تقول أن يد بناء
ماهر أكلتها اليوم . ولهذه المدينة باب من الغرب ، له عتبة عليها طاق
حجرى ، وقد ركب عليها باب من حديد لاختب فيه . » (١٨) وأمام مقاومة
هذه المدينة ، وعدم رغبة تزييسكس في إطالة مدة حملته أكثر من ذلك ،
فإنه رفع عنها الحصار ، وأكتفى بما فعله في هذه الأنحاء هذا العام وقدر
العودة إلى القسطنطينية . وقبل عودته ترك على رأس قواته في المشرق قائده
الدمستق مليح في الاقليم المعروف ببطن هنريط ، وعهد اليه بقيادة الحملة
التالية ضد المسلمين . (١٩)

حملة الدمستق مليح (٩٧٢ - ٩٧٣ م) : الا أن الدمستق مليح كان

١٧ - المن ٤٠ سيرا والسير ١٥ متقالا . أنظر سفر نامه ص ١٣١

١٨ - المرجع السابق ص ٨ - كانت زيارة ناصر خسرو لمدينة ميفارقين في
نوفمبر ١٠٤٦ م وقد زار هذه المدينة وأشار إلى ما كان لها من حصانة ، الجغرافى
المعاصر المقدسى ، مسجلا ذلك في كتابه الذى أخذ في تصفحه فى ٩٨٥ - ٩٨٦ . أنظر :
المقدس : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ط . ثانية - بريل ١٩٠٩) ص ١٤٠

١٩ - بحبى الانطاكى ص ١٣٩ - ص ١٤٠ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٣ - ص
٢٤٤ ، ابن الازرق الفارقى : تاريخ ميفارقين (نشر الجزء الثانى من هذا الكتاب
بدوى عبد اللطيف هوض تحت اسم تاريخ الفارقى - القاهرة ١٩٥٩ - أما الجزء
الأول من الكتاب وهو التمهيد بهذا البحث فلا يزال مخطوط . ولم ينشر . وقد اعتمدت
على نسخة « الميكرو فيلم » الموجودة بمكتبة جامعة الدول العربية - رقم ١٢٤٩ -
إلا أن أرقام الصفحات غير واضحة بتلك النسخة

عليه أن يحارب المسلمين في إقليم الجزيرة في ظروف تختلف عن الظروف التي عملت فيها حملة تزييمسكس السابقة . فلقد قام رد فعل بين المسلمين نتيجة لانتصارات تزييمسكس ، وبقاء القوات البيزنطية تحت قيادة هليسيح على مقربة من المراكز الإسلامية في الجزيرة ، واستمرار تهديد البيزنطيين للمسلمين . وتذكر المصادر العربية أنه على أثر استيلاء تزييمسكس على نصيبين وما فعله بها ، نزلت جماعة ممن نجوا من أهلها ، وكذلك جماعة من أهل الموصل ، إلى بغداد لطلب النجدة وهناك استنفروا الناس في الجوامع والمساجد ، وذكروا ما قام به الروم من النهب والسلب والقتل والأسر ، وحذروا أهل بغداد من خطورة انفتاح الطريق أمام البيزنطيين وتقديمهم إلى بغداد . وقد أثار ذلك عامة أهل المدينة وخاصة جماعات العيارين ، وقاموا بمظاهرات عنيفة حملوا فيها المصاحف وكسروا المنابر ومنعوا الخطباء من الخطبة ، استنكراً لموقف المسؤولين وتهيأونهم في الجهاد ضد الروم . وقد سار المتظاهرون إلى الخليفة العباسي المطيع وأرادوا اقتحام داره عنوة . ويقول مسكويه أن المتظاهرين تناولوا على الخليفة « فأسمعوه ما كره ونسبوه إلى العجز عما أوجب الله على الأئمة ، وتجاوزوا ذلك إلى ما يوجب ذكره . » (٢٠) ولم ينصرف المتظاهرون عن دار الخليفة إلا بعد دفعهم بالقوة وقتل جماعة منهم إلا أن بغداد أستمريت على ما بها من اضطراب لسخط المسلمين على هذا الموقف . وفي نفس الوقت خرج وفد منها « من أهل العقل والدين » ، حسب وصف المؤرخ أبي المحاسن ، لمقابلة أمير الأمراء البويهى بختيار ، المسئول عن شؤون الخلافة العباسية والمسلمين ، وكان حينئذ بالكوفة . (٢١) ويقول

٢٠ — مسكويه ج ٢ ص ٣٠٣ — ص ٣٠٤

٢١ — كان من أعضاء هذا الوفد الامام أبو بكر الرازى الفقيه ، أبو الحسن على بن عيسى النجوى ، أبو القاسم الدراكي^٢ وابن الدقاق الفقيه . انظر النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٥

مسكويه أن أعضاء الوفد «عابوا على بختيار انشغاله عن مصالح المسلمين وانصرافه عن تدبير أمورهم ، إلى مجاهدة عمران وهو من أهل القبلة ، وأمهاله الروم وهم أعداء الملة ، ثم تشاغله بالصيد واللهو عن جميع مهمات المملكة». (٢٢) ولهذا النص أهميته من حيث أنه يصور اهتمام المخلصين من المسلمين بالجهاد في سبيل الاسلام ضد الروم ، وضرورة إعطاء هذا الواجب أولوية على غيره من المسؤوليات التي كان على الحاكم أن يقوم بها . وقد وعد بختيار بأنه بعد عودته إلى بغداد سوف يخرج لمحاربة البيزنطيين . وفي نفس الوقت أرسل إلى سبكتكين الحاجب التركي ببغداد ، أمرا بالاستعداد للقيام بالجهاد ، وأن يعلن بين عامة الناس وأهل المدينة هذا النبأ . وعلى ذلك ، اجتمعت أعداد غفيرة من العامة بما لديها من أسلحة ، ويقدر يحيى الأنطاكي عددها بنحو ستين ألفاً . (٢٣)

إلا أن هذه الفورة والحماسة التي ظهرت في بغداد من أجل الجهاد في سبيل الله ، لم يقدر لها أن تنتقل مباشرة بكامل قوتها إلى الجبهة الجزرية لمنازلة البيزنطيين . فإن ما وجد في المدينة من عصبية بين الأتراك والديلم ، وخلاف بين السنيين والشيعة والإفتقار إلى حكومة قوية تستطيع القبض على زمام الأمور ، قد أدى إلى قيام فتنة واضطراع داخلي خطير . وقد جاء في وصف ما حدث أن الناس «تركوا ذكر الروم وأعرضوا عنه جانباً وأخذ يقاتل بعضهم بعضاً وصارت بينهم حروب عظيمة .» (٢٤) وكان لهيارين نصيبهم من النشاط في هذه الأحداث .

٢٢ - مسكويه ج ٢ ص ٣٠٤ - وعمران ابن شاهين للذكور هو والى البطيعة وهي من الولايات التابعة لأمير بغداد البويهى . ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤١

٢٣ - يحيى الأنطاكي ص ١٤١

٢٤ - المرجع السابق ص ١٤١

ولم تخف حدة هذه الاضطرابات إلا بعد وصول بختيار إلى بغداد واستعمال الشدة وإعدام جماعة من العيارين (٢٥) ونظراً لما كان يشكو منه بختيار من نقص موارد وتأخره في دفع أجور جنده ، فقد طالب من الخليفة المطيع مالا متذرعاً في ذلك بمحاجته إليه للقيام بالجهاد . ولم تكن حال المطيع المالية بالحسنة . وقد رد على طالب بختيار بقوله : « ان الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين ، تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجي إلى الأموال ، وأما إذا كانت حالي هذه ، فلا يلزمني شيء من ذلك ، وإنما يلزم من البلاد في يده ، وليس لي إلا الخطبة فإن شئتم اعتزلت » (٢٦) وكان هذا الرد طبيعياً ، نظراً لتغلب بني بويه على الخلفاء العباسيين واستئثارهم بالسلطة دونهم . ولم يوافق المطيع على تقديم المساعدة المالية المطلوبة الا تحت تهديد بختيار : وعلى أية حال فإن المطيع لكي يدفع له مبلغ أربع مائة ألف درهم ، اضطر لبيع ثيابه وأنقاض داره ، وهذا الوضع يوضح مدى ضعف الخليفة العباسي أمام أمير الأمراء البويهى .

وهكذا فإن تلك الحركة الكبرى التي شاهدها بغداد والتي كان هدفها القيام بالجهاد ضد البيزنطيين ، تشتت الكثير من قواها فيما قام من اشتباكات داخلية . وعلى أية حال ، فإن هذه الحركة لم تكن بدون فائدة بالنسبة لمسألة ارسال النجدة لمساعدة المسلمين في قتالهم ضد البيزنطيين . فإن بختيار ، على الرغم من عدم اهتمامه بالجهاد ضد الروم وعدم اشتراكه شخصياً بمجيشه الخاص في ذلك ، كان يتحتم عليه أمام الظروف التي سادت في بغداد ، أن يتخذ على الأقل بعض خطوات لتدبير نوع من المساعدة .

٢٥ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٤ ، يجيب الانطاكي ص ١٤٠ - ١٤١

٢٦ - ابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٤

ومما يشير إلى ذلك ، الخطاب المرسل من الخليفة المطيع إلى ركن الدولة البويهى الذى جاء فيه أن بختيار « أتمثل أمراء المؤمنين فى إنجاد أبي تغلب بجمع كشيء من الرجال الذين يصلحون للقاء الروم ، بالأبطال المختارة من طوائف الأعراب والأكراد ، فتوافقت هذه الجموع إليه وتكاثر لديه » . (٢٧) وإن هذه الرسالة مع ما جاء بها من مبالغة فى ذكر إهتمام بختيار بالجهاد ضد الروم والدور الذى قام به فى إعداد النجدة اللازمة ، فإنها تفيدنا فى التعرف على العناصر التى قامت لتنجدة أهالى الجزيرة . ومن الواضح أن الكثير من أفراد النجدة كانوا من القبائل الكردية والعربية التى ظهر نشاطها فى هذا العصر . ومن الجائز أن هذه القبائل قامت لتنجدة نتيجة لنداء المسلمين وطلب المساعدة ، أو لرغبة منها فى الاستفادة من القتال ، أكثر منها إستجابة لأوامر بختيار الذى كانت سلطة الداخلية محدودة فى العراق . هذا وتشير بعض المصادر العربية إلى إشتراك قوات كبيرة المتحمسين من عامة المسلمين ، ويقول فى ذلك أبو المحاسن أنه قد خرج « خلق كبير مثل الرمل » . (٢٨) وهكذا فقد أصبح على جيش الدمستق البيزنطى ملىح أن يقابل المسلمين فى الجبهة الجزرية فى ظروف حركة رد الفعل الاسلامى الذى قام فى العراق عامة وبغداد خاصة ، نتيجة لحملة الامبراطور تزيكس السابقة .

العمليات العسكرية بين المسلمين وجيش ملىح : وقد جاء فى نفس الخطاب المرسل من الخليفة المطيع إلى ركن الدولة ذكر الاصطدامات العسكرية التى

٢٧ - رسائل الصابى ص ٤٨ - ص ٤٩ . والملاحظ على هذا المصدر أنه بالغ فى ذكر إهتمام بختيار بالجهاد ضد الروم والدور الذى قام به فى إعداد قوة محاربة

٢٨ - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٥ - ص ٦٦

قامت بين المسلمين والبيزنطيين قبل الموقعة الهامة التي هزم فيها الدمستق
مليح وأسر فقد تجدد نشاط المسلمين في منطقة الحدود على أثر وصول
القوات الاسلامية ، وأوغلت قوة منهم وأغارت على بعض المراكز البيزنطية
الحصينة عند موش Mousch ، عاصمة اقليم تارون Taron الأرميني ، وتمكن
المسلمون من الاستيلاء عليها وقتلوا كثيرين من الأعداء ، كما أمتلأت أيدي
المسلمين من السبي والغنائم ، ثم انصرفوا عنها بعد ذلك . (٢٩) كما يفيد
هذا الخطاب بأن قوة بيزنطية خرجت تحت أمرة بعض قواد الأطراف
البيزنطية من رتبة الزراورة Clisurarchs (٣٠) لمهاجمة حصن للمسلمين في
منطقة بدليس Bitlis . (٣١) إلا أن البيزنطيين فشلوا في الاستيلاء على هذا
الموقع وأرتدوا بعد أن أنزلت بهم الحامية الاسلامية الخسائر . (٣٢) هذا
واهتم المسلمون كذلك بتدعيم استحكامات مدينة ميفارقين التي كان من
المنتظر أن يعاود البيزنطيون مهاجمتها .

وفي الجزء التالي من نفس السنة الهجرية (٣٦٢) المقابل لسنة ٩٧٣ م ،
قرر الدمستق مليح القيام بهجوم كبير ضد المسلمين . وأصبح لديه في
بطن هنزيط ونواحيه ومعبر الفرات وما يليه قوة قدرتها المصادر العربية
بنحو خمسين ألف رجلا من المحاربين ، منهم عشرون ألف من المدججة

٢٩ - رسائل الصابي ص ٤٨

٣٠ - الزراورة جمع زروار . انظر تحقيق هذا للجناب البيزنطي في الملحق
التام .

٣١ - حدد باقوت الحموي مكان بدليس ووصفها بقوله أنها :
بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ، ذات بساتين كثيرة وثقائها يضرب به المثل
في البجودة والكثرة والرخس ويحمل إلى بلدان كثيرة . ج ٣ ص ٢٥٨ - ص ٢٥٩

(المحاربون المثلون) (٣٢) ووصلت الاخبار إلى المسلمين عن عزم مليح على الاستيلاء على مدينة آمد Amith الواقعة في طريق تقدم البيزنطيين . وقد كتب هزار مرد ، وإلى هذه المدينة اذ ذاك من قبل الحمدانيين ، إلى أبي تغلب طالبا النجدة ، وبادر الأخير بإرسال أخيه هبة الله بن ناصر الدولة على رأس جيش كثيف العدد كانت من أهم عناصره قبائل العرب والأكراد الذين وصلوا لإغاثة المسلمين في الجبهة الجزرية . وكان وصول هبة الله وجيشه إلى آمد في أول يوليو سنة ٩٧٣ م (٢٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) . وقرر هبة الله وهزار مرد الخروج من آمد على رأس القوات الإسلامية المجتمعة لمقاومة البيزنطيين وهم مضيق جبلى يقيم على مقربة من آمد . وكان هذا المضيق لا يسمح بتحركات الفرسان البيزنطيين الذين أحاطت بهم قوات المسلمين . وفي هذا المكان قامت موقعة كبرى في ٤ يوليو ٩٧٣ (آخر رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، (٣٤) الحق فيها المسلمون هزيمة كاملة بجيش الدمستق مليح ، وكثر القتل والأسر بين البيزنطيين ، كما حصل المسلمون على الكثير من الغنائم . وفضلا عن ذلك كاه فقد وقع في الأسر الدمستق نفسه (٣٥)

٣٢ — جاء في الخطاب المذكور أن « سميرام » قد تعرضت لهجوم نفس القوة التي هاجمت بدليس ، واسكن هذا غير مرجح ، حيث أن سميرام تقع بعيدة وعلى الحدود الشرقية لأذربيجان . انظر كلمة سميرام في معجم البلدان ج ١١ ص ٢٥٧ ، رسائل الصابي ص ٤٨ — ص ٤٩ .

٣٣ — رسائل الصابي ص ٤٩ .

٣٤ — مسكويه ج ٢ ص ٣١٤ ، رسائل الصابي ص ٥٠ .

٣٥ — اسنجر الدمستق مليح في الأسر ، حيث عوّل معاملة حسنة ، وذلك حتى

مماثلة في ٣٦٢ هـ — ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٨ ، مسكويه ج ٢ ص ٣١٢ ص ٣١٣ ،

يعني الانطاكي ص ١٤٠ ، في الرهوى ص ٨ .

ونائبه المعروف لدى المسلمين باسم ابن البلنطس Balantès • (٣٦) كما افتتخر المسلمون بأسر جماعة من ذوى الرتب العالية في الجيش البيزنطى من « البطارقة والزراورة والأراخنة والطراخنة » . (٣٧) وهكذا فقد نجح المسلمون فى القضاء على خطر حملته الدمستق مليح التى تهددتهم وأثقت مدوا مدينة آمد وجنوبها وغيرها من بلاد الجزيرة مما كان من الممكن أن تتعرض له من أخطار •

وكان لهذا النصر الذى أحرزه المسلمون أهميته فى الصراع الدائر بينهم وبين البيزنطيين • فقد عم بسببه السرور والابتهاج بين المسلمين بعد أن كثرت هزائهم أمام أعدائهم • وبما يصور فرحة المسلمين أن أبا تغلب أرسل إلى بغداد عددا كبيرا من رؤوس وأيدي القتلى البيزنطيين • (٣٨) كما كان من مظاهر ابتهاج المسلمين وافتخارهم ، تلك المراسلات التى كتبها المسئولون فى هذه المناسبة ، ومحاولة كل منهم أن يشيد بالدور الذى اسهم به لتحقيق هذا النصر • ومن هذه المراسلات

٣٦ — بخصوص ابن البلنطس فال المعلومات عنه محدودة ، ولكن نستطيع القول بأن أسرته أصبحت ذات حظوة عند تزيمسكس . وقد كان أحد أقاربه وهو ليوبلنطس أحد أعوان تزيمسكس فى المؤامرة التى رفعتها إلى عرش بيزنطة .

٣٧ — رسائل الصابى ص ٥٠ — لهذا النص من رسائل الصابى أهمية خاصة حيث أنه مما يدل على تعرف المسلمين على الرتب والمناصب البيزنطية المختلفة — والبطارقة وهى فردا بطريق = Patrician . وكان من أعلى القباب الشرف التى تمنح فى الامبراطورية البيزنطية — انظر :

Runciman, Byg. civil, pp. 92-93.

أما الزراورة فقد سبق التعليق عليهم — الأراخنة جميع أرخون Archon وهو كذلك من القواد العسكريين الذين يحكمون مناطق عسكرية تقل أهمية عن « الشيم » وتعرف باسم Archontatus . لتفسير كلمة « الطراخنة » أرجع إلى الملحق التاسع .

٣٨ — مسكوية ج ٢ ص ٣١٢ •

الرسالة التي أرسلها أبو نغلب إلى الخليفة العباسي المطيع ليبشره بهزيمة البيزنطيين . (٢٩) كما أرسل كل من الخليفة المطيع وعز الدولة بختيار خطابا بهذا المعنى إلى ركن الدولة البويهى . (٤٠) ولا بد أن هذا النصر كان له أثره في تقوية الروح المعنوية بين المسلمين .

وفي نفس الوقت الذى عم فيه المسلمون الإستبشار والإعزاز بنصرهم في موقعه ٤ يوليو ٩٧٣ ، كانت نتيجة هذه الموقعة مدممة كبرى ومصدر سخط بالنسبة للبيزنطيين ، الذين طالبوا بالقيام بحملة انتقامية . وقد سجل لنا هذا الشعور في الخطاب الذى بعث به الدمشقي مليح إلى الإمبراطور نيكسكس حيث قال : « اننا لم نعتبر جديرين بأن ندفن وفقا للتقاليد المسيحية في أرض خاصة بالمسيحيين . ولم نحظ - لمواراة - رفاتنا - إلا بأرض ملعونة وقبور كقبور الأشرار . كلا أننا لانعترف بك كرئيس شرعى للإمبراطورية الرومانية المقدسة : ذلك لأن الهلاك الأليم الذى لقيه عدد كبير من المسيحيين ، ودمائهم التى أريقَت عند أسوار آمد ، وموتنا فوق أرض أجنبية ، كل هذه مظالم تقع على رأسكم ، وستعاسبون عليها أمام المسيح عيسى ربنا يوم الحساب ، وذلك ما لم تتأروا من هذه المدينة ثارا مشهودا . » (٤١) هذا وقد التزم المؤرخون البيزنطيون بما فيهم المؤرخ المعاصر ليون الشماس صمتا مطلقا أمام هذه الهزيمة . فبالنسبة لهم لا بد وأنها

٣٩ - سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ١١ ص ٢٢ .

٤٠ - انظر النص الكامل لرسالة الخليفة المطيع إلى ركن الدولة في الملحق الخامس ،

مختارات « رسائل الصابى » ص ٥٢ - ص ٥٦ .

٤١ - منى الرهوى ص ٩ .

كانت حدثا غير مرغوب في تسجيله في تاريخ تزيمسكس الخافل بالأعجاف العسكرية .

حملة تزيمسكس على الجزيرة سنة ٩٧٤ م : وهكذا فقد تطلبت هذه الهزيمة التي لحقت بالجيش البيزنطي من تزيمسكس أن يقوم بحملة جديدة جديدة للانتقام لما حدث ، ولإعادة هيبة البيزنطيين إلى الجبهة الجزرية : وبقول المؤرخ الأرمني متى الرهوى أن الامبراطور لما وصله خطاب مليح وعلم بهزيمة جيشه ، قام « وهو يضطرم غضبا وكأنه نار تستعر » وأمر في التو بالاستعداد للحملة التي وجهها ضد المسلمين في الجزيرة في خريف العام التالي (٩٧٤ م) .

وللاسف فإن المعلومات التاريخية التي وصلت إلى أيدينا عن هذه الحملة محدودة ولا تساعدنا كثيرا في توضيح كافة جوانب الموضوع . فمن ناحية فإن هذه الحملة هي التي أسقط ذكرها المؤرخون العرب ولم يجيئوا بشيء مطلقا عن هجوم الامبراطور على اقليم الجزيرة . ولا تساعدنا المصادر العربية في هذا الصدد إلا في تكوين صورة عامة لأحوال المسلمين في العراق في هذا الحين . ومن ناحية أخرى فإن المعلومات التي وصلتنا عن طريق المؤرخين البيزنطيين محدودة إلى حد كبير . فان سكيلتزيس Skylitzes وسيدر ينوس Cedrenus لم يتعرضوا بشيء لأخبار الحملة . أما المعلومات التي سجلها عنهم ليون الشماس في تاريخه فقد كانت قليلة . والواقع أننا ندين إلى حد كبير في معرفة معظم ما وصلنا من أخبار للمؤرخ الأرمني متى الرهوى إلا أننا عند الاعتماد على هذا المصدر الأخير يجب علينا التزام الحذر والحيطه بسبب ما جاء فيه من مبالغات وصبغة أسطورية في بعض المواقف .

بعد أن أتم تزيمسكس إستعداداته لحملته الجديدة ، تقدم على رأس جيش كبير وعبر الفرات . ولكنه قبل أن يقوم بمنارة المسلمين في إقليم الجزيرة عرج في طريقه على إقليم طرون الأرميني الذي يقع إلى الغرب من بحيرة فان Van ، ووصل إلى عاصمته موش ، ثم عسكر أمام حصن (Aidziats) Aitziatsperd المعروف بمناعته . (٤٢) وكان البيزنطيون قد بدأوا في فرض حكمهم على هذه المنطقة منذ زمن سابق ولا يساعدنا متى الرهوى كثيراً في توضيح الدوافع والملايسات التي جعلت تزيمسكس يقف بجيشه عند حدود مملكة الأرمن . ولكن هناك ما يدل على أن العلاقات البيزنطية الأرمينية حينئذ كانت تحتاج إلى عقد تسوية يستطيع تزيمسكس أن يؤمن بها ظهره ، وتساعد به فيما يقوم به من عمليات عسكرية ضد المسلمين .

فند منتصف القرن التاسع الميلادي أخذت أرمينية تظهر على شكل مملكة جديدة تحكمها أسرة البغريين Bagratids ، الذين عملوا على تحقيق الكيان الأرميني أمام تنافس كل من المسلمين والبيزنطيين على فرض نفوذهم على البلاد الأرمينية ، أو على الأقل اكتساب حاكم أرمينية كحليف . ومن مظاهر هذا التنافس كان منح الخليفة العباسي لقب «أمير الأمراء» لأشوط الأول البغري Ashod I في منتصف هذا القرن . وعند أواخر القرن المذكور منح الخليفة العباسي حاكم أرمينية لقب ملك . وعندما وصلت الأخبار بذلك إلى باسيل الأول ، سارع بمنح ملك أرمينية لقباً مماثلاً من جانبه ، وأرسل له كذلك تاجاً ملكياً ، كما عقد معه معاهدة تحالف . وفي الخطاب الذي أرسله باسيل إلى أشوط الأول خاطبه بابه المحبوب ، وأكد له أن

امارات أرمينية ستعتبر دائماً صديقة للامبراطورية البيزنطية. (٤٣) وعندما أستغل المسلمون فرصة الاضطرابات الداخلية التي سادت أرمينية بعد أشوط الأول ، للتدخل في شؤونها ، لم يتمكن خليفته أشوط الثاني الملقب بالحديدي ، من التخلص من المسلمين الا بمساعدة البيزنطيين وكان ذلك في النصف الأول من القرن العاشر. وقد قام هذا الملك بزيارة بلاط الامبراطور رومانوس ليكابينوس في القسطنطينية حيث استقبل إستقبالا حافلا وأصبح أول ملك أرميني يحمل لقب « شاهنشاه » أي ملك ملوك أرمينية .

وتبع أشوط الحديدي على العرش ، أشوط الثالث (٩٥٢-٩٧٧م) وهو المسئول عن شؤون أرمينية في عصر الامبراطور تزييمسكس . وكان من مشاكل أرمينية وجود نظام إقطاعي قوى يتمتع فيه الأمراء الاقطاعيون بسلطة كبيرة وتسبب في قيام الاضطرابات الداخلية . وعلى كل ، فقد نجح أشوط الثالث في التغلب على الفوضى الداخلية ، وتمكن من إعطاء البلاد عصرا من الاستقرار . كما أمد تنظيم الجيش حتى أصبح في استطاعته أن يعي جيشا عدته تسعين ألف محارب . وقد عرف بالاهتمام وعطنه على الكنائس والأديرة ، واتخذ من مدينة آني عاصمة لحكومته ووضع الأساس لإقامة مجدها . كما تمتع هذا الملك بسمعة طيبة قربته من نفوس الأرمن . فقد كان شفوفا بالمعوزين . ويحكى عنه أنه لم يجلس لتناول طعامه إلا ومن حوله الفقراء والمساكين حتى أشتهر باسم Olormadz أي « الرحيم » (٤٤).

وكانت الامبراطورية البيزنطية مع ما تبديه من مظاهر العلاقات الودية مع الأرمن ، ترغب في حقيقة الأمر في إخضاع دولتهم ، أو على أقل تقدير ،

ادخالها في دائرة النفوذ البيزنطي . ولا بد أن ما لاحظته البيزنطيون من تطور البلاد الأرمينية في عهد أشوط الثالث وإزدياد قوتها ، قد جعلهم يفكرون في عقد اتفاقية جديدة معها تضمن تحقيق المصالح البيزنطية . والمرجح أن ذلك كان الدافع الذي جعل تزيتمسكس يتجه إلى إقليم طرون الأرمني على رأس جيشه . وقد أثار ظهور تزيتمسكس قلق الأرمن . ويذكر المؤرخ متى الرهوي قيام أشوط الثالث ومعه كبار رجال الكنيسة والعلماء والأمراء الأرمن ، على رأس جيش كبير قوامه ثمانين ألف محارب ، ونزوله إلى مقاطعة Hark'h ، التي كان البيزنطيون استولوا على مدينتها الرئيسية ، ملازكرد منذ سنوات قليلة مضت ولا ريب أن الأرمن أرادوا من وراء هذه المظاهرة العسكرية الاستعداد لما يطرأ من أحداث ، وإشعار البيزنطيين بما لديهم من قوة حتى يحد ذلك من مطامعهم . وعلى كل حال فقد دارت المفاوضات بين الجانبين البيزنطي والأرمني . وكان من أهم الشخصيات الأرمينية التي قامت بدور هام أثناءها ليون الفيلسوف والأمير سمباد ثورنتسي Sempad Thornetsi . (٤٥) وأنتهت المفاوضات بعقد معاهدة وافق بمقتضاها أشوط على أن يقدم للمحاربين البيزنطيين ما يحتاجون إليه من الزاد والعلف ، وأن يمدهم بقوة عسكرية تتكون من عشرة آلاف من المحاربين الأرمن (٤٦) . وكان الأرمن من أفضل الجنود الذين اعتمدت عليهم الامبراطورية البيزنطية في جيشها . وبعد أن اطمأن تزيتمسكس إلى تسوية علاقاته مع الأرمن على النحو المذكور ، إتجه جنوباً لمحاربة المسلمين .

٤٥ - كان ليون الفيلسوف يتمتع بمكانة سامية في أرمينية وقد نال كذلك احترام وتقدير البيزنطيين . ونحن نسمع عنه بعد ذلك يذهب مدعوا إلى القسطنطينية ليشترك في الاحتفالات التي أقامها الامبراطور بعد عودته من حملته في الشرق . وهناك اشترك ليون في المناظرات العملية التي اقيمت في القسطنطينية - متى الرهوي ص ٢١ - ص ٢٢ .

٤٦ - المرجع السابق ص ١١ .

كان ظهور تزيمسكس على رأس حملته في شمال العراق في خريف ٩٧٤ م وكان الموقف حينئذ في صالح الامبراطور الى حد كبير ، نظرا لما كان تحت إمرته من قوات عسكرية ضخمة ، وللاظروف السائدة بين المسلمين في الجبهة الجزرية والتي كانت تختلف عن الظروف التي واجهها الدمستق مليح في العام الماضي . فان المسؤولين عن إقليم البحر-زيرة شغلهم الاحداث التي عمت معظم بلاد العراق ، على أثر الصراع الذي نشب في بغداد بين العناصر التركية والبويهيين وقيام حرب داخلية أشترك فيها أبو تغلب ، وتغيب أثناءها عن إقليم الجزيرة حيث أنه قد أتبجه إلى بغداد وأقام هناك فترة من الزمان . وكانت بداية الاضطرابات الداخلية بالعراق قبل مجيء تزيمسكس واستمرت طيلة وجوده في شمال العراق ولم تنته إلا بعد انسحابه منها (٤٧).

وفي هذه الظروف تقدمت قوات تزيمسكس بدون أن تواجه مقاومة كبيرة . ولا يمكننا ما وصل اليها من معلومات تاريخية من التعرف على خط سير جيش تزيمسكس ، ولكن نستطيع أن نقول ، بناء على ما ذكره متى الرهوى ، أن تزيمسكس نجح في اكتساح منطقة واسعة من بلاد الجزيرة . فقد ذكر أن هذا الامبراطور نهب وخرب ثلاثمائة بلدة وحصناً وأن تقدمه في جميع البلاد التي سار فيها كان « مقتربا بالابادة وسفك الدماء » (٤٨) . وقد خص متى الرهوى بالذكر ثلاثة مدن كبيرة تعرض لها الامبراطور وهي الرها وآمد ونصيبين . وقد جاء عن الرها أنه تفرق بها « مراعاة للرهبان الذين كانوا يقطنون الجبل المجاور والاماكن المحيطة

٤٧ - انظر ما سبق من ٥٧ - ٦١

٤٨ - متى الرهوى من ١١ - ١٢

الذين يبلغ عددهم قرابة عشرة آلاف» (٤٩). والظاهر أن تزيمسكس قد فضل أن يلجأ إلى هذه المعاملة لإستمالة أهلها وكان معظمهم من المسيحيين (٥٠). ويضيف المؤرخ الأرميني المذكور أن الامبراطور توجه إلى مدينة آمد التابعة للحمدانيين وحاصرها عاقدا العزم على الاستيلاء عليها وكانت هذه المدينة هدفاً أساسياً للبيزنطيين لأهميتها والمعروف أن الدمستق مليح كان يذرى الاستيلاء عليها عندما لحقت به الهزيمة على مقربة منها . وأن الرواية التي فسر بها متى الرهـوى إنسحاب تزيمسكس ورفع الحصار عن مدينة آمد أقرب إلى الأسلوب الأسطوري منها إلى المعالجة التاريخية وقد قال هذا المؤرخ : (بعد أن وصل هذا الامبراطور إلى آمد وهو يتماكك سخط عنيف ، وجد أن هذه المدينة كانت تملكها امرأة ، هي أخت الأمير المسلم حمـدون (٥١) ، التي كان تزيمسكس على علاقة أئيمة بها فيما مضى . وكانت ذكرى هذه العلاقة هي التي ثبّطت عزيمته ، فلم يبذل الجهود الكفيلة بجعله سيد آمد . فقد صعدت هذه المرأة فوق سور المدينة وأسمعت الامبراطور الكلمات الآتية : « ماخطبك أنا أتى لتشن حرباً على امرأة دون أن تفطن إلى مايطوى عليه ذلك من عار لك ! » فرد عليها تزيمسكس بقوله : « لقد أقسمت أن أهدم سور مدينتك ، ولكن لن نمس حياة سكانها بسوء . » فقالت أخت حمدون : « مادام الأمر كذلك ، فلتذهب وتهدم الجسر الواقع

٤٩ - المرجع السابق ص ١٢

٥٠ - كتب ابن حوقل عن الرما : « والغالب على أهلها النصارى زيادة على ثمانمائة بيعة ودير ذى صوامع فيه رهبانهم » وبها البيعة التي ليس للنصارى أعظم ولا أبدع صفة منها « ابن حوقل ج ١ ص ٢٢٦ - البيعة : هي معبد النصارى أو اليهود .

٥١ - انظر الملحق العاشر بشأن هذه لاميرة الحمدانية

على نهر دجلة ، وبذلك تكون قد نفذت قسمك . « واستجاب الامبراطور لهذه النصيحة وانسحب من أمام آمد ومعه كميات ضخمة من الذهب والفضة ، دون أن يشن أى هجوم بسبب هذه المرأة ، ولأنه من مواليد مقاطعة خوزان التى يطلق عليها اليوم اسم Tchemeschgdzak - مسقط رأس تزيمسكس - وكانت هى الأخرى من نفس المقاطعة . ففى ذلك العبر كان المسلمون قد أخضعوا لسلطانهم عدداً من البلاد . (٥٢)

ونرى أنه من الخطأ أو المبالغة أن نسلم بقول متى الرهوى بأن انسحاب تزيمسكس من عند آمد كان بسبب تلك الملاقة المزعومة بين الامبراطور والأميرة الحمدانية . والأرجح أن السبب الرئيسى الذى جعل هذا الامبراطور يرفع الحصار عنها هو ما تبينه من صعوبة إقتحام تلك المدينة التى كانت تتمتع بحصانة غير عادية . وقد عرفت آمد بمناعتها منذ زمن سابق بعيد . وإن ما رواه بروكوبيوس Procopius مؤرخ عصر جستنيان والقرن السادس الميلادى ، عن تحصينات هذه المدينة ، يتمشى إلى حد كبير مع ما كتبه عنها كل من ابن حوقل والرحالة الفارسى ناصر خسرو . فقد ذكر ابن حوقل : «ومدينة آمد على جبل من غربى دجلة ، مطل عليها من نحو خمسين قامة ، وعليها سور أسود من حجارة الأرحية ويسمى ذلك السور ميمونا لشدة سواده ، وذلك أنه من حجارة أرحية الجزيرة . وليس لحجارتها فى جميع الأرض نظير . ومنها ما يساوى الحجر المطحن بالمرار من خمسين ديناراً إلى أكثر وأقل ... » (٥٢) وسجل ناصر خسرو ملاحظاته الدقيقة عن حصانة آمد وأهميتها أثناء زيارته لها (٥٤) بقوله : « بلغنا آمد التى شيدت

٥٢ - متى الرهوى ص ١٢

٥٣ - ابن حوقل ج ١ ص ٢٢٢ - ص ٢٢٣

٥٤ - كانت زيارة ناصر خسرو لمدينة آمد فى ديسمبر ١٠٤٦ م

على صخرة واحدة طولها ألفا ذراع وعرضها كذلك وهي محاطة بسور من الحجر الأسود ، كل حجر منه يزن ما بين مائة وألف من (٥٥) وأكثر هذه الحجارة ملتصقة ببعضه البعض من غير طين أو جص ، وإرتفاع السور عشرون ذراعاً وعرضه عشر أذرع . وقد بنى على بعد كل مائة ذراع برج نصف دائرته ثمانون ذراعاً ، وشرفاته من الحجر بعينه . وقد شيدت في عدة أماكن داخل المدينة ، سلام من الحجر ، ليتيسر السعود إلى السور . وقد بنيت قلعة على قمة كل برج . ولهذه المدينة أربعة أبواب كلها من الحديد الذى لا خشب فيه ، يطل كل منها على جهة من الجهات الأصلية . ويسمى الباب الشرقى باب دجلة ، والغربى باب الروم ، والشمالى باب الأرمن ، والجنوبى باب التل . وخارج هذا السور سور آخر من نفس الحجر ، إرتفاعه عشر أذرع ومن فوقه شرفات فيها ممر يتسع لحركة رجل كامل السلاح ، بحيث يستطيع أن يقف ويحارب بسهولة . ولهذا السور الخارجى أبواب من الحديد شيدت مخالفة لأبواب السور الداخلى ، بحيث لو أجتاز السائر - أبواب السور الأول ، وجب عليه اجتياز مسافة لبلوغ أبواب السور الثانى ، وهذه المسافة تبلغ خمس عشرة ذراعاً . وفى وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الصلب ، وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفى لإدارة خمس طواحين ، وهو غاية فى العذوبة ، ولا يعرف أحد من أين ينبع . وفى المدينة أشجار وبساتين تسقى من هذا الماء ... وقد رأيت كثيراً من البلاد والقلاع فى أطراف العالم ، فى بلاد العرب والعجم والهند والترك ، ولكنى لم أرقط مثل مدينة آمد ، فى أى مكان على وجه الأرض ، ولا

٥٥ - المن - ٤٠ سيرا ، والسير - ٤٠ مثقالاً - انظر : ناصر خسرو وعلوى :

سفر نامه (ترجمة د : يحيى الخشاب - القاهرة - ١٩٤٥) ص ١٣١

تمت من أحد أنه رأى مكانا آخر مثلها . « (٥٦) ولا بد أن هذه الحصانة التي تمتعت بها آمد والتي تبينها الامبراطور قد جعلته يقرر الانسحاب بعد ما شاهد عزم حاميتها على الدفاع عنها ، وعلى ذلك فقد أكتفى بما حصل عليه من كميات كبيرة من الذهب والفضة التي قدمها له المدافعون عن المدينة مقابل رحياله عنها . (٥٧)

وأشار تزييمسكس في خطابه المرسل إلى الملك أشرط الثالث الأرميني إلى إستيلائه على مدينة نصيبين وفرض الجزية على أهلها . (٥٨) كما يقول متى الرهوى أن الامبراطور تقدم جنوبا بعد ذلك محتاحا ما صادفه من البلاد حتى وصل إلى مشارف بغداد . ويؤكد ليون الشماس أن الامبراطور كان قد قرر مفاجأة بغداد ، التي كانت حسب قوله غافلة وبدون مدافعين عنها ، والاستيلاء عليها بهجوم مفاجيء يقوم به الفرسان البيزنطيون . (٥٩) إلا أن تزييمسكس قرر الاكتفاء بما فعله في هذه الحملة والانسحاب شمالا والعودة إلى بلاده .

٥٦ - سقر نامه ص ٨ - ص ٩ - انظر سور مدينة آمد في :

Rey, Monuments de l'architecture des Croisés en Syrie. - (Paris, 1871). p. 73.

٥٧ - متى الرهوى ص ١٢

٥٨ - متى الرهوى ص ١٣ - الثابت ان تزييمسكس كان قد استولى على هذه اثناء حملته الأولى في الجزيرة في ١٢ اكتوبر ٩٧٢ م - وبخصوص ما ذكره تزييمسكس عن الإستيلاء عليها اثناء حملته (٩٧٤ م) فيمكن تفسير ذلك بأن البيزنطيين قد اخلوا المدينة بعد أن فرضوا عليها شروطهم سنة ٩٧٢ ، أو ان المسلمين قد تمكنوا من استردادها على اثر هزيمة الدمستق مابح ٩٧٣ م

٥٩ - متى الرهوى ص ١٢ ، شلومبرجيه ص ٢٥٩

وعند الحكم على انجازات حملة سنة ٩٧٤ م ، فيجب قبل كل شيء أن ننتبه إلى مبالغة متى الرهوى وليون الشماس في هذا الصدد ، تلك المبالغة التي تظهر بشكل خاص إذا ما قارنا ماجاء به هذان المؤرخان مع ماجاءت به المصادر العربية في وصف أحوال العراق في الفترة التي تلت تلك الحملة مباشرة . ويجب عدم الأخذ بحرفية ما ذكره متى الرهوى عن وصول القوات البيزنطية إلى مشارف بغداد ، كما يجب ألا نسلم بأن هذه القوات كانت على وشك الاستيلاء على مركز الخلافة العباسية . والمرجح بأن تزييمسكس لم يستطع أن يتقدم كثيرا جنوبا في الطريق إلى بغداد . فإن المصادر التي تحدثت عن هذه الحملة لم تشر إلى وصول البيزنطيين إلى مدينة من المدن القريبة من بغداد . وذكر ليون الشماس نفسه أنه كان يتحتم على الجيش البيزنطي أن يعبر مساحات شاسعة من الصحراء حتى يتمكن من الوصول إلى بغداد ، كما بين أن البيزنطيين أصبحوا يعانون كذلك من نقص الميرة والعلف . (٦٠) وفي الوقت نفسه ، فلم يكن الاستيلاء على بغداد بالمسألة الهينة . لأن أي هجوم بيزنطي كبير على هذه العاصمة الاسلامية الهامة ، كان من المنتظر أن يؤدي إلى رد فعل بين قوى المسلمين المختلفة في هذه النواحي وما يجاورها من بلاد ، للقيام بالجهاد في سبيل الاسلام ضد الأعداء « الكفرة » . ولم يكن من السهل بالنسبة للامبراطور البيزنطي أن يواصل القتال في مثل هذه الظروف . وهكذا نستطيع القول أن مسألة الاستيلاء على بغداد كانت بالنسبة للبيزنطيين وقتئذ بمثابة أمل ولاكنه لم يكن سهل التحقيق .

ونحن ميل إلى الاعتقاد بأن هذه الحملة التي قام بها تزييمسكس كانت عبارة عن غارة ضخمة إتسمت بالسرعة في عملياتها ، وأن هذا الامبراطور أهتم

٦٠ - أشار ليون الشماس إلى تلك الصحراء باسم Carmanatices انظر :

أثناءها بتخريب ونهب ما أستطاع من الأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة والحصون الإسلامية ، والحصول على الأمدى ، تمهيدا لمحاولة الاستيلاء عليها في مايلي من حملات ، وذلك طبقا للطريقة التقليدية التي إتبعها البيزنطيون في حروبهم في الشرق . أما ما ذكره متى الرهوى عن تعرض تريمسكس لثلاثمائة بلد وحصن ونجاحه في نهبها وتدميرها ، فالملاحظ في ذلك أن هذا المؤرخ ، أو غيره ، لم يحددوا أسماءها . والمرجح أنها كانت في مرتبة القرى والحصون والبلاد الصغيرة . وإن المدينة الواحدة ذات الأهمية التي نص بالاسم على أنها وقعت في يد الإمبراطور كانت مدينة نصيبين . هذا ولا يوجد ما يدل على أن البيزنطيين تركوا حاميات عسكرية البلاد التي غزوها أو أنهم احتفظوا بها . ولكن لابد وأن تريمسكس نجح أثناء هذه الحملة في فرض بعض الاتفاقيات على الأمراء المسلمين في البلاد التي تقدمت فيها جيوشه مع إلزامهم بدفع الجزية . فقد جاء في خطابه ما يفيد بذلك . (٦١) وكان هذا التصرف متبعا عند المسلمين في حالة عدم استعدادهم أو عدم قدرتهم على مواجهة الخطر البيزنطي . ومن أهم الأمثلة على ذلك إضطرار إمارة الموصل لدفع الجزية للإمبراطور أثناء حملته السابقة (٩٧٢ م) على ما سبق ذكره . ومن الجائز جدا أن الظروف التي كان يمر بها أمير الموصل في خريف ٩٧٤ م جعلته يسلم مرة أخرى بضروره دفع الجزية لتريمسكس . (٦٢)

٦١ - متى الرهوى ص ١٣

٦٢ - الملاحظ أن بعض المؤرخين مثل شلومبرجيه ، عند وصف حملة تريمسكس في إقليم الجزيرة (٩٧٤ م) . قد اعتمدوا على يحيى الأنطاكي إلا أن الرجوع إلى هذا المصدر قد جاء في غير محله إذ أن الأخبار التي أخذوها منه لا تخص حملة ٩٧٤ م ، وإنما هي في الواقع خاصة بحملته الأولى التي قام بها على هذه المنطقة (٩٧٢ م) والتي نص عليها يحيى الأنطاكي نفسه أنها كانت في ٣٦٢ هـ أنظر : شلومبرجيه ص ٢٥٥ - ص ٢٥٧ ، ص ٢٦١ ، يحيى الأنطاكي ص ١٣٩ - ص ١٤٠ - أرجع كذلك إلى ما سبق في هذا البحث ص ١٢٩ - ص ١٣١

وفي تفسير إغفال المصادر العربية ذكر حملة ٩٧٤ م ، فهناك أكثر من عامل يمكن أن ندخله في اعتبارنا . حقيقة أن المؤرخ مسكويه أدلى بالكثير من التفاصيل عن أحداث القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، إلا أنه أهتم أساسيا بتتبع أحداث المسلمين في بغداد والعراق ، ولم يمن كثيرا بذكر أخبار الروم أو الحروب بينهم وبين المسلمين . وفي نفس الوقت ، فلا بد أن من وجهة نظر المسلمين ، لم يكن لهذه الحملة من الأهمية ما نسبته إليها متى الرهوى أوليون الشمس اللذان بالغوا في وصفها . وحيث أن هذه الحملة لم تؤد إلى تغيير جذري في الأوضاع في شمال العراق ، فربما نظر العرب إليها على أنها مجرد غارة كبيرة ، ولم يهتموا بذكرها خاصة بعد النصر الكبير الذي سبق وأحرزوه على حساب القوات البيزنطية (٩٧٣) وأسرههم لفائدها . وإن هذا الموقف يذكرنا بعض الشيء بموقف المؤرخين العرب من الحملات الصليبية التي قام بها غرب أوروبا . ففي حين أن المؤرخين الغربيين المعاصرين علقوا أهمية كبرى على هذه الحملات ، وخصصوا لها مؤلفات عديدة حافلة بالتفاصيل ، لم يجعل المؤرخون العرب لها إلا جانباً ثانوياً في مصنفاتهم التاريخية . ومن المسائل التي يمكن أن تساعدنا في تفهم موقف المصادر العربية من حملة سنة ٩٧٤ م ، أن الأمراء المسلمين كانوا منشغلين بالنزاع والقتال الداخلي الذي قام بينهم في العراق ، في الوقت الذي جاءت فيه الحملة . ولم يلتفت هؤلاء الأمراء لمواجهة الخطر البيزنطي والجهاد في سبيل الإسلام ضد أعدائهم . وهذه مسألة كانت غير مستساغة لدى الرأي العام الإسلامي في الشرق . وعلى ذلك فلم يكن تسجيل أحداث هذا الهجوم البيزنطي وموقف الأمراء المسلمين منه ، مما يشرف تاريخ المسئولين المسلمين . ومن الجاز أن ذلك كان إحدى الأسباب التي جعلت المؤرخين العرب المعاصرين بما فيهم إبراهيم بن هلال الصابي الذي كان يعمل وقتئذ في ديوان الإنشاء في بغداد ، يجمعون عن فكر هذه الحملة .

ومها يكن من أمر ، فإن الامبراطور تزييمسكس أنهى عملياته العسكرية في إقليم الجزيرة . ثم دخول فصل الشتاء (٩٧٤ م) وأرتد بجيشه شمالا . ورغبة منه في الاستعداد للحملة التالية التي عزم على القيام بها في الشرق الأدنى في العام التالي ، فإنه ترك معظم جيشه في القواعد الامامية للدولة البيزنطية في الشرق ، أي طرسوس وأنطاكية . وطبقا لرواية المؤرخ ليون الشماس ، فإن تزييمسكس رجع إلى عاصمة بلاده ليمضى بها فصل الشتاء . ويذكر نفس المؤرخ أن الامبراطور دخلها دخول الظافرين للمرة الثانية . وكانت المرة الأولى بعد انتصاراته الكبرى على الروس . ووضع تزييمسكس في مقدمة الموكب الذي دخل به القسطنطينية بعد رجوعه من الشرق ، ثلاثة ملايين قطعة من العملة الذهبية والفضية ، محملة على الدواب ، والعديد من الأسرى والغنائم الأخرى التي حصل عليها أثناء حملته على شمال العراق . (٩٣)

الفصل السابع

حملة تزيمسكس على الشام (٩٧٥ م)

- مصادر دراسة هذه الحملة - اعتماد تزيمسكس على معالفين من المسلمين -
سير الحملة من انطاكية الى دمشق - اتفاقية دمشق - تزيمسكس ومحاولة
استرجاع جاع فلسطين - الاستيلاء على المراكز الساحلية - سير الحملة من صيدا
الى انطاكية .

كانت قضية استرجاع الشام وإستعادة مدينة بيت المقدس قد أصبحت
هدفاً رئيسياً في السياسة البيزنطية الخارجية في النصف الثاني من القرن العاشر
الميلادي . وبذل تقفور فوقاس جهداً له أهميته لتحقيق هذه الغاية ، إلا أن
موته المفاجئ لم يتيح له الفرصة لمواصلة فتوحاته في هذه الأنحاء . وآت إلى
تزيمسكس مسؤولية إنجاز هذا العمل الكبير . وهكذا فإن هذا الامبراطور
عندما قام بحملته الكبيرة على الشام سنة ٩٧٥ م ، إنما كان يهدف لتحقيق
هذا الهدف البيزنطي الهام .

ولم تبين المصادر الخاصة بهذه الحملة الأسباب التي جعلت تزيمسكس يغير
من اتجاه حملاته ضد المسلمين في هذه المرة ، فيتوجه إلى الاراضي المسيحية
المقدسة بدلاً من إقليم الجزيرة الذي أرسل اليه حملاته الثلاث السابقة .
ولكن نرى أن ازدياد توسع الفاطميين في الشام كان له أثراً كبيراً في جعل
تزيمسكس يتخذ هذا القرار . فإن هذا الامبراطور كان يهجمه بطبيعة الحال
أن يبادر بمد النفوذ والحكم البيزنطي الى الشام ، قبل أن يتمكن الفاطميون
من توطيد نفوذهم بها وبناء حاجز فاطمي قوي ، يحول دون تقدم البيزنطيين .
ومهما يكن من شيء ، فقد قام تزيمسكس بحملته الشامية في السنة المذكورة

وهى وإن لم تدم إلا بضعة شهور ، حيث إنها بدأت في شهر أبريل وانتهت في شهر سبتمبر ، إلا أنها كانت لها أهميتها في تاريخ العلاقات بين البيزنطيين والأراضي المسيحية المقدسة .

وللأسف فإن المعارف التى تركتها المصادر التاريخية عن هذه الحملة الهامة قليلة وغير وافية . ونحن مضطرون لأن نعتمد فى معالجة تاريخها على القليل الذى جاءت به هذه المصادر . فإن المؤرخ البيزنطى المعاصر لحدثها وهو ايون الشماس لم يكتب عنها إلا أخبار مقتضبة للغاية . هذا ولا نجد عنها إلا سطور قليلة فى المصادر البيزنطية الأخرى المتأخرة ، والتى أشارت إليها مثل سكيليتزيس Skylitzes وسيدرينوس Colrenus وجليكانز Glycas (١) . وفيما عدا ذلك فعلمنا أن نعتمد على ما تضمنته المصادر العربية وهو ليس بالكثير فى تفاصيله (٢) ، وكذلك الخطاب الذى أرسله الامبراطور تزيتمسكس إلى الملك آشوط الثالث الأرمينى . إلا أن هذا الخطاب ، بالرغم من كونه وثيقة معاصرة ، فلا بد من إلزام الحارس فى الاستناد إليه نظرا لما جاء فى بعض نصوصه من مبالغة .

بدأت حملة تزيتمسكس على الشام بظهوره فى شمالها على رأس جيش كبير . والثابت أنه منذ أول حملته وجد فى خدمته محالفون Foederati من المسلمين عاونوه فى حروبه فى الأراضي المقدسة على النحو الذى قامت به

١ — أنظر دالمبرجيه ص ٢٨١

٢ . للملاحظ أن ابن الأثير بالرغم من اهتمامه بتتبع أخبار الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى المشرق ، فإنه لم يشر إلى حملة تزيتمسكس على الشام إلا بشكل سريع . ولم يأت فى تاريخه بخصوصها إلا ما يلى : « وسار تزيتمسكس إلى أعمال الشام فأدخل فيها ، ونال من المسلمين ، وبلغ إلى طرابلس ، فامتنع عليه أهلها فحصرهم » . ابن الأثير ج ٨ ص ٢٨٠

قبائل بني حبيب في شمال العراق . ومما يوضح ذلك ما ذكره ابن القلائسي حيث كتب : « ودعت أبا بكر بن الزيات الضرورة الى مصالحته - تزييمسكس - والدخول في طاعته والمسير في عدة وافرة من أهل طرسوس والثغور في خدمته ، وفعلت عدة بطون من العرب مثل ذلك »^(٣) وسوف نرى فيما بعد ، كيف كان أبو بكر بن الزيات حلقة اتصال هامة بين البيزنطيين والمسلمين . وكان لهذه القبائل العربية أثر هام في سير الأحداث ومساعدة البيزنطيين ، وذلك لما كان لها من خبرة بشؤون المسلمين وطرق قتالهم .

تقدم الجيش البيزنطي من أنطاكية ، القاعدة الرئيسية للبيزنطيين في الشام إذ ذاك ، وأتجه جنوبا متخذنا طريق وادي نهر العاصي - الأورنت -^(٤) حتى وصل إلى مدينة حمص . وكانت هذه المدينة جزءاً من إمارة حلب الحمدانية . وكان المسئول عنها وقتئذ سعد الدولة الحمداني الذي اضطرتة القاروف للإقامة بعيداً عن حلب . ويذكر المؤرخ كمال الدين بن العديم ، أن قرغويه وبكجور اللذين أغتصبا حكم حلب كانا قد راسلا سعد الدولة ليؤدى إلى البيزنطيين مال الهدنة الذي كان مقرراً على البلاد التي بيده بما فيها حمص بمقتضى الإتفاقية بين البيزنطيين والمسئولين عن حلب ، إلا أنه رفض^(٥) .

٣ - ابن القلائسي ص ١٢ ، انظر كذلك سبط بن الجوزي ص ٥٥ .
٤ - قال ناصر خسرو في تفسير تسمية هذا النهر بالعاصي : « ويسمى هذا النهر بالعاصي لأنه يذهب إلى بلاد الروم ، فهو يخرج من بلاد الاسلام ليدخل بلاد الكفر » . إلا أن اسم العاصي ما هو إلا تحريف عربي للاسم اليوناني القديم Axios الذي جاء أصلاً من التسمية السريانية القديمة للنهر ، وكانت بمعنى سيل الماء السريع . هذا وقد أطلق العرب على هذا النهر اسم « النهر المقلوب » نظراً لاتجاه مجراه من الجنوب إلى الشمال الذي اعتبروه أمراً غير طبيعي - أنظروا : سفرنامه ص ١٢ ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٨ - ص ١١٩ ، كاتار ص ٢٠٠

٥ - ابن العديم ج ١ ص ١٦٩

وأدى ذلك الى هجوم تزييمسكس على المدينة وإقتحامه لها (٦). ولم تشر المصادر إلى ظهور سعد الدولة الحمداني ومحاربه للبيزنطيين . ومن الجائز أنه هجر المدينة على أثر سماعه بتقدم البيزنطيين ولجأ إلى الصحراء أو إلى مركز آخر من المراكز التي كانت لانزال في يده .

وأتجه تزييمسكس بعد ذلك إلى بعلبك التي أشار إلى مالها من أهمية كل من ابن حوقل والامبراطور تزييمسكس نفسه . فقد وصفها ابن حوقل قائلاً: « وهي مدينة على جبل وعامة أبنيتها من حجارة ، قد بنيت على أساطين شاهقة ، وليس بأرض الشام أبنية حجارة أعجب ولا أكبر منها - وهي مدينة كثيرة الخيرات والغلات والفواكه الجيدة، بيئة الخصب والرخص » (٧) أما تزييمسكس فسجل ملاحظاته عنها في خطابه المذكور : « إنها مدينة شهيرة وعظيمة وكبيرة ومترفة كما أنها ممونة تمويناً كاملاً » (٨) . ولم توضح المصادر من كان له حكم بعلبك وقت هجوم تزييمسكس عليها . ولكن نرجح أنها كانت في أيدي القوات الفاطمية (٩) . وقد واجه الامبراطور البيزنطي مقاومة شديدة من المدافعين عن المدينة وأضطر لمحاصرتها ، إلا أن هذه المقاومة لم تطل وتمكن من الاستيلاء عليها في ٢٩ مايو سنة ٩٧٥م (منتصف رمضان ٣٦٤ هـ) . ويذكر تزييمسكس أنه حصل من هذه المدينة على عدد

٦ - ابن القلانسي ص ١٢ ، سبط بن الجوزي ص ٥٥ ، متى الرهوي ص ١٤

٧ - ابن حوقل ج ١ ص ١٧٥

٨ - متى الرهوي ص ١٤

٩ - ذكر يحيى الأنطاكي أن تزييمسكس أسر عند فتحه لبعلبك قائدا يعرف باسم حسين بن الصمصام . إلا أن هذا الاسم لم يظهر في أحداث هذا العصر إلا هذه المرة . ولما رجح أن حسين بن الصمصام الذي ذكره يحيى الأنطاكي لم يكن إلا تحريفا لاسم القائد الفاطمي جيش بن الصمصامة - انظر : يحيى الأنطاكي ص ١٤٥ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٣

كبير من الأسرى والكثير من الذهب والفضة وكذلك عدد صيخم من الماشية (١٠).

وبعد أن إستولى على بعلبك ، واصل تزييمسكس طريقه جنوباً قاصداً دمشق ، تلك المدينة الهامة في بلاد الشام ، والتي كانت عاصمة الدولة العربية في عهد الأمويين ، والتي تعتبر « أجمل مدينة بالشام » على حد وصف ابن حوقل .^(١١) ولكن على عكس ما ينتظر لأول وهله ، لم تقاوم دمشق القوات البيزنطية ، والسبب في ذلك يرجع إلى اضطراب الأحداث السياسية الذي مرت بها إمارتها في الفترة الأخيرة التي سبقت مباشرة ظهور تزييمسكس . وكان القائد التركي أفتكين المغامر ، والمعروف في المصادر البيزنطية باسم Phatgan ، قد دخل هذه المدينة وقبض على زمام السلطة بها بعد طرد الوالي الفاطمي منها في ١٤ مايو ٩٧٥ م ، أي في الوقت الذي كان تزييمسكس بدأ فيه هجومه على الشام . ولم تكن مدة الأيام المعدودة التي حكمها ، بالتى تمكنه من إتخاذ ما يلزم من إستعدادات لمواجهة القوات البيزنطية المتفوقة في أعدادها وعدتها . كما أنه إذا أراد المساومة ، كان لا يستطيع الاعتماد على مساعدة من جانب البويهيين في العراق الذين كانت لهم مشاكالهم الخاصة ، فضلاً عن عدم استطاعته الاطمئنان اليهم . كما كان لا يستطيع طلب المساعدة من الفاطميين الذين كان لا يأت من جانبهم . فكان يدرك جيداً أن ذلك أمراً محموقاً بالمخاطر بالنسبة له ويعرضه لفقد إمارته الجديدة . وقد أدرك الدماشقة كذلك إضطرارهم للاعتماد على الفاطميين إذا ما أرادوا مقاومة البيزنطيين . ولم تكن ذكريات الإتصالات الأولى بين الفاطميين والدماشقة وما طأ منه

١٠ - متى الرهوى ص ١٤ ، لابن القلانسي ص ١٢

١١ - لابن حوقل ج ١ ص ١٧٤

الأخرون بالتى تشجع على الاتصال بهم من جديد . كما كان الخلاف المذهبي بين أهل دمشق السنيين والفاطميين الشيعة ، عقبة أخرى تحول دون التقارب بين الطرفين حتى ولو كان ذلك من أجل الدفاع ضد العدو « الكافر » .

وهكذا كان أفتسكين وأهل دمشق أميل لالتصاف مع البيزنطيين . وقام أبو بكر بن الزيات ، صميل البيزنطيين وحليفهم ، بدور الوساطة بين الطرفين البيزنطى والدمشقى ، وعمد للتأثير على الدماشقة وإقناعهم بأن مصالحتهم تقتضى عقد إتفاقية مع الامبراطور تزييمسكس . فقد كتب الى أهل دمشق يرهبهم من قوة الروم ويدعوهم إلى التسليم قائلاً : « لا طاقة لكم بصاحب الروم ، والمصلحة أن تدخلوا فى طاعته وتقرروا عليكم مالا . » (١٢) ولقد رحب أفتسكين بهذه الوساطة التى قام بها ابن الزيات ، ورافقه أهل دمشق على رأيه فى التفاوض مع البيزنطيين . وإنتهت الممارضات بمقدار إتفاقية مع الامبراطور تزييمسكس فى النصف الاول من شهر يونيو ٩٧٥ م (١٣) . وقد فرض تزييمسكس على أفتسكين وأعيان دمشق أن يكتبوا عهداً يسجل إلتزاماتهم التى نصت : ليها الإتفاقية مصحوباً بتوقيعاتهم ، كما أخذ جماعة منهم رهينة عنده (١٤) .

ولم يصل إلى أيدينا النص الكامل لإتفاقية دمشق ، ولكن أمدتنا

١٢ - سبط ابن الجوزى ، ابن القلانسي ص ١٢ ص ١٣

١٣ - ذكر يحيى الانطاكى أن أفتسكين ، عقب توقيع الإتفاقية ذهب لمقابلة تزييمسكس وأن الأول قد « أفطر عنده تلك الليلة » وفى هذا إشار ان ذاك كان فى شهر رمضان . وحيث ان إستبلاء تزييمسكس على بعلبك كان فى منتصف رمضان ٢٦٤ (٢٩ مايو ٩٧٥) فبلى ذلك تكون إتفاقية دمشق قد تمت فى النصف الأول من شهر يونيو ٩٧٥ م - (يحيى الانطاكى ص ١٤٦)

١٤ - يحيى الانطاكى ص ١٤٥ ، ابن القلانسي ص ١٣

المصادر التاريخية بمعلومات تساعد في إلقاء الضوء على بعض جوانب هذه الاتفاقية . وتذكر المصادر العربية أن الاتفاقية اشترطت طاعة أهل دمشق للامبراطور البيزنطي وتمهدهم بقدر معين من المال يدفعونه له سنوياً ، وفي مقابل ذلك تمهد لهم الامبراطور بالأمان على أنفسهم وأموالهم ، والدفاع عنهم ضد من يتهددهم من الأعداء . ولا بد أن هذا الشرط الأخير كان المفصود به الفاطميين . فقد ذكر يحيى الأنطاكي أن تزييمسكس : « قاطع أهل دمشق على ستين ألف دينار يحملونها إليه كل عام . » (١٥) كما روى ابن القلانسي عن الظروف التي أحاطت بعقد هذه الاتفاقية : « وردت كتب الفتحكين وأهل دمشق بالانقياد للملك إلى ما يروونه منهم وبرسم حمله إليه من الخراج عن بلدهم ، وسألوا أمانه وحسن الرأفة بهم والمحاماة عنهم . فقال : قد قبلت طاعتهم وأمرت بإيمانهم على نفوسهم وأموالهم ورضيت منهم بالخراج (١٦) » .

هذا وقد كتب عن الاتفاقية المذكورة كل من ليون الشماس ومتي الرهوي . وكانت إشارة ليون إليها سريعة موجزة ، ولكن لها أهميتها . فقد قال أن الامبراطور فرض الخراج على أهالي دمشق وجعلهم أتباعاً

١٥ - يحيى الأنطاكي ص ١٤٥

١٦ - ابن القلانسي ص ١٣

اختلفت المصادر في تقدير للمال الذي تمهدت دمشق بدفعه لتزييمسكس . فقد حددته يحيى الأنطاكي بستين ألف دينار ، وذكر ابن القلانسي أنه كان مائة ألف درم ، أما سبط ابن الجوزي فقد قال أنه ثلاثمائة ألف درهم . وجاء في خطاب تزييمسكس أنه كان أربعين ألفاً من التاهيجانات Tahigans . والتاهيجان يعادل تقريباً الدينار عند المسلمين . وأصل الكلمة فارسي وهو « دهكاني » وكان هناك نوعان من التاهيجان ، أحدهما من الذهب والآخر من الفضة - انظر يحيى الأنطاكي ص ١٤٥ ، ابن القلانسي ص ١٣ ، سبط بن الجوزي ص ٥٥ . متي الرهوي ص ١٥

له . (١٧) هذا وجاء في خطاب تزييمسكس من التفاصيل في المعلومات أكثر مما جاء في المصادر الأخرى التي تحدثت عن الإتيافية . فقد كتب هذا الامبراطور : « وقدم الأهالى إلينا رسالة يتعهدون فيها بأن يظلوا دواما وجيلا بعد جيل على طاعتنا . ونصبنا لحكم دمشق رجلا جليلا من بغداد يسمى التركي - أفتكين - وكان قد أتى بصحبة خمسمائة فارس ليقدم لنا الولاء ، فضلا عن أنه إعتنق الدين المسيحى (١٨) . وكان هذا الرجل قد اعترف بسيادتنا . وأدى جميع هؤلاء اليمين قاطعين على أنفسهم العهد بأن يدفعوا الخراج دائما ، وصاحوا هاتفين : المجد لجلالتكم ! . كما أنهم تعهدوا فى الوقت ذاته بمحاربة أعدائنا . وبمقتضى هذه الشروط ، إرتضينا أن ندعهم وشأنهم » (١٩) .

وفهم من هذا النص الذى جاء فى رسالة تزييمسكس أن الامبراطور جعل من دمشق إمارة تابعة للسيادة البيزنطية . فان النص المذكور يبين أن الامبراطور هو الذى أقر إستمرار أفتكين فى حكم دمشق ، وأن هذا الأخير قد حلف له بيمين الولاء ، وأن أهالى دمشق تعهدوا بطاعة الامبراطور والقيام بالخدمة العسكرية تحت إمرته ضد أعدائه . والواقع أن كل هذه الشروط مضافا إليها التعهد بدفع القدر المنصوص عليه من الخراج السنوى ، يعتبر من المفومات الأساسية لنظام السيادة الإقطاعية فى هذا العصر . وإن ما جاء

١٧ - انظر شلومبرجيه ص ٢٩٧

١٨ - لم يأت فى أى مصدر آخر ما يشير إلى اعتناق أفتكين للمسيحية . ولا نستطيع التسليم برواية تزييمسكس فى ذلك . فان عملا مثل هذا كان لابد وأن يعرض مركز أفتكين بين المسلمين للخطر . وربما كان السبب الذى جعل تزييمسكس يكتب ذلك هو ما فعله أفتكين من اللبالة فى اظهار خضوعه وولائه ومحاولة التقرب إلى الامبراطور .

١٩ - متى الرهوى ص ١٥

في النص المذكور الذي تركه تزييمسكس يشبه الشروط التي فرضها البيزنطيون على إمارة حلب قبل ذلك بسنوات معدودة ، والتي جعلت منها إمارة تابعة للسيادة البيزنطية .

هذا وقد ذهب تزييمسكس بعد الاتفاق مع أهالي دمشق إلى المدينة لمشاهدتها وأقام معسكره بظاهرها (٢٠) . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يزورها فيها أحد أباطرة القسطنطينية منذ هزيمة هرقل وطرده البيزنطيين من الشام في القرن السابع الميلادي . وأثناء إقامة تزييمسكس عند دمشق ، استغل أفتكين الفرصة للتقرب إليه وأمعن في مداهنته والعمل على كسب رضاه ، عاملا بنصيحة ابن الزيات ، الذي أوصاه بالتذلل للامبراطور والمبالغة في تعظيمه . كما استغل أفتكين مالهديه من مهارة عسكرية ليقوم باستعراضات للتأثير على تزييمسكس ، الذي كان فارسا يقدر براعة الفرسان . وأمدتنا بعض المصادر العربية بصورة طريفة للعلاقات بين تزييمسكس وأفتكين من أهمها ما جاء في تاريخ سبط بن الجوزي حيث قال : « .. وألفتكين يخرج إليه كل يوم ويسايره ويلعب بين يديه بألة الحرب ، فقال ابن الشمشقيق لابن الزيات : ما رأيت أحسن من هذا الغلام وقد أعجبني وأحببته . وكان يركب في المهاليك في الزى الاسلامي ويتطاعنون بين يديه ويرمون بالنشاب ، فعرف ابن الزيات الفتكين قول الرومي ، فترجل وقبل الأرض بين يديه ، فقال الرومي لابن الزيات : عرفه أننى وهبت له الخراج - ثم أن الفتكين قد ترجل ثانيا وقبل الأرض بين يديه ، وبعث إليه بالفرس الذي كان تحته والسلاح ، وكان - تزييمسكس - قد طلبه من ابن الزيات ، وبعث معه عشرين فرسا

بتجافيفها (٢١) وعدة ورمحا وشيئا كبيرا من أصناف الثياب والطيب والطرف
فرد الجميع وأخذ الفرس والسلاح . وبعث له على الهدية أثواب ديباج كثيرة
وبغلات وغيرها (٢٢) . والواقع أن هذا التقارب كان يخدم مصالح كل من
تزييمسكس وأفتكين الخاصة . فبالنسبة للأول كان من صالحه أن يحكم على
رأس دمشق أمير مسلم موال له وعلى إستعداد للخدمة تحت إمرته ، وكان
ذلك من الأساليب التي أعتمد عليها البيزنطيون في التوسيع وفرض نفوذهم
الخارجي في الجبهات المختلفة . وبالنسبة للآخر أي أفتكين ، فإنه رأى أن
الحماية البيزنطية سوف تساعد في الاحتفاظ بإمارته والوقوف ضد
الفاطميين .

ولقد جاء في خطاب تزييمسكس ما يؤكد أنه بعد إخضاعه لدمشق ،
واصل طريقه جنوبا ومد عملياته العسكرية إلى فلسطين ، وأنه توغل فيها
للاستيلاء عليها واسترداد بيت المقدس . وطبقا لهذا المصدر ، أتبجه الامبراطور
إلى مدينة طبرية الواقعة في الطريق إلى بيت المقدس ، حازما على محاصرتها .
إلا أن الأمر لم يستلزم القتال إذ سلمت له المدينة . وقال الامبراطور في
ذلك : « إن الاهالي قد أتوا ليعلموا لنا خضوعهم وليحملوا الينا مثل سكان
دمشق كثيرا من الهدايا ومقدارا من المال يبلغ ثلاثين ألفا من التاهيجانات
فضلا عن أشياء أخرى . وطلبوا الينا أن ننصب عليهم قائدا من لدينا ،
وقدموا الينا وثيقة تعهدوا فيها بأن يظلوا مخلصين لنا ، وبأن يداوموا على
دفع الجزية . عندئذ تركناهم أحرارا من غير الاستعباد » . كما يذكر تزييمسكس

٢١ — التجافيف : لفرد نجفاف = آلة للحرب يتقى بها كالدرع ، للفرس والانسان

٢٢ — سبط بن الجوزي الورقة ٥٥ — الورقة ٥٦ ، انظر كذلك ابن القلانسي

أن مدينة الناصرة سلمت له . ويضيف بعد ذلك قوله : « وحين توقفنا
أتى إلينا من الرملة والقدس أناس يلتمسون رعاية جلالتنا ويتضرعون إلينا
أن نرحمهم . ولقد طلبوا إلينا أن ن نصب عليهم حاكما ، وإعترفوا بتبعيتهم
لنا وإرتضوا الخضوع لحكمنا ، فمنحناهم ما كانوا يتمنون . » كما جاء في
هذا الخطاب أن تزييمسكس تمكن من إخضاع بيسان وعكا وقيساريه ، وأنه
عين حكاما عسكريين على جميع الأجناد التي أخضعها ، ويختتم حديثه عن
عملياته في فلسطين بقوله : « ولو أن هؤلاء الأفريقيين الملاحين - الفاطميين -
الذين إستقروا هناك لم يلجأوا إلى قلاع الساحل ، لكنا قد ذهبنا بمعونه
الرب إلى مدينة اورشليم واصلينا في هذه الأماكن المقدسة . » (٢٣) وهذا هو
أهم ما ذكره تزييمسكس شخصيا عن أعماله العسكرية في فلسطين .

ولكن لا بد من التريث في هذا الموضوع لتقييم ما رواه هذا الإمبراطور
عن إنجازاته أثناء حملته على فلسطين . فإن المصدر الوحيد الذي تحدث عن
هذه الحملة وما حققه الإمبراطور أثناءها ، هو خطابه المذكور . وقد سلم
عدد من المؤرخين المحدثين بحرفية ما جاء في هذا المصدر مثل شلومبرجيه (٢٤) .
بل لقد ذهب هذا المؤرخ إلى حد إعتبار ذلك الجزء من خطاب تزييمسكس
الخاص بحملته على فلسطين أنفس أجزاء هذا الخطاب ، على أساس أن المصادر
الأخرى لم تتبع أخبار هذه الحملة . (٢٥) ولكن رأيت طائفة أخرى من

٢٣ - متى الرهوى ص ١٥ - ص ١٦

٢٤ - شلومبرجيه ص ٢٠٥ - ومن الذين شاركوا شلومبرجيه في هذا الرأي

جر رسيه وأسد رستم - انظر :

Grousset, Histoire des Croisades, vol I. pp XVIII XIX:

اسد رستم : الروم ج ٢ ص ٤٩

٢٥ - شلومبرجيه ص ٣٠٤

المؤرخين المحدثين أن الخطاب يغلب عليه طابع المبالغة في مجموعه ، وبالذات عند التحدث عن حملة فلسطين . ومن أهم أفراد هذه الطائفة الأخيرة فاسيلييف وأستروجورسكى . (٢٦) أما المؤرخ بارثولد Barthold ، فهو يرى أن الرواية التي ذكرها تزييمسكس عن غزوه لفلسطين كانت بأكلها من نسيج الخيال . (٢٧) والواقع أنه ليس من المتيسر أن نحدد بدقة نتائج حملة تزييمسكس في فلسطين . وعندما نحاول عمل ذلك يجب أن ندخل في اعتبارنا أمرين هامين : الأول ، وهو يختص بقوة الفاطميين العسكرية في هذه المنطقة . فبالرغم من أن الفاطميين كانوا حتى هذه الفترة لا يزالوا يضعون الأساس لقيام حكمهم في الشام ، فمن الصعب أن نتصور أن قواتهم الموجودة في مدن فلسطين والتي تتمركز على غيرها من مدن الشام بقربها من مصر التي أصبحت قاعدة لمكهم ، تسلم للإمبراطور بسهولة على النحو الذي ذكره . والأمر الآخر وهو أن المصادر العربية التي تحدثت عن حملة تزييمسكس على الشام لم تذكر بأي حال من الأحوال أن الإمبراطور تقدم جنوباً أبعد من دمشق . بل لقد روت هذه المصادر أنه بعد استيلائه على هذه المدينة اتجه غرباً إلى ساحل البحر الأبيض للاستيلاء على المراكز الساحلية حيث بدأ بمنازلة صيدا وبيروت ، ومنها أخذ طريقه إلى الشمال (٢٨) وبناء على ذلك فإننا

(26) Vasiliev, Byz. Emp., p. 310; Ostrogorsky, Hist. Byz. State: pp. 263 - 64.

(27) Barthold, Transactions of the Oriental College, I (1925), 466-67.

٢٨ - ابن الفلاس ص ١٤ ، سبط بن الجوزي ورقة ٥٥ - ورقة ٥٦ ، بحبي الأنطاكي ص ١٤٦

تميل للاعتقاد بأن تزييمسكس قد جنح المبالغة في وصف نتائج حملته على فلسطين ، وأنه لم يتقدم فيها مسافات بعيدة ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحملة لم تؤد إلى استقرار حكم البيزنطيين أو قيام نفوذهم في فلسطين .

كان تزييمسكس أثناء تقدمه جنوباً في البلاد الشامية قد فعل مثلما فعله الصليبيون الغربيون من بعده ، بترك المدن والمراكز الساحلية دون الاستيلاء عليها . وكانت حامياتها من المسلمين قد لاذت وإعتصمت بها . ولا بد أن هذا الامبراطور تبين خطورة مواصلة عملياته في الجنوب قبل أن يقوم بإخضاع المراكز الساحلية ، لما في ذلك من تعريض خطط مواصلاته للخطر ، وكذلك حتى يؤمن مؤخرة جيشه من الهجوم الذي قد تقوم به قوات المسلمين . وعلى ذلك نجده يتجه نحو الساحل ويعمل على إخضاع المدن والمراكز التي وقعت في طريق عودته إلى الشمال .

ولقد بدأ تزييمسكس بمنازلة صيدا (٢٩) وليس من المؤكد من المسلمين كان يحكم هذه المدينة وقتئذ . وعلى كل حال فعلى أثر شعور أهلها بعدم قدرتهم على المقاومة ، أرسلوا وفداً من شيوخهم يرأسه رجل يعرف بأبي الفتح بن الشيخ ، لطلب الصلح . وذكر ابن القلانسي أن هؤلاء الشيوخ « قرروا معه - تزييمسكس - أمرهم على مال أعطوه إياه ، وهدية حملوها إليه وانصرف

٢٩ - يبدو أن تزييمسكس قد أخطأ في ترتيب الحوادث عندما ذكر أنه أستولى على بيروت ثم صيدا - فهو حسب روايته ، كان في الأراضي الفلسطينية ثم اتجه شمالاً ، ونجح صيدا في طريقه قبل بيروت . وقد ذكر ابن القلانسي أن الامبراطور نازل صيدا واستولى عليها قبل بيروت - انظر : حق الرهوى ص ١٧ ، ابن القلانسي ص ١٤ ، سبط ابن الجوزي ص ٥٦

عنهم عن سلم وموادعة»^(٣٠) هذا وجاء في خطاب تزييمسكس في هذا العبد أن هؤلاء الشيوخ: «أقبلوا متوسلين لجلالتنا وملتجئين أن يصيروا رعايا لنا وعبيدنا الخاضعين على الدوام . وإزاء هذه التأكيدات ، إرتضينا الاستجابة لرجائهم وتحقيق رغباتهم، وحثمنا عليهم دفع جزية ، وفرضنا عليهم حكماً .» (٣١)

واتجه تزييمسكس بعد ذلك إلى بيروت للإستيلاء عليها وكانت لهذه المدينة أهميتها في هذا العصر . ولقد كتب عنها تزييمسكس : « هذه المدينة العظيمة ، ذات الشهرة الدائمة ، والتي تحميها أسوار قوية » (٣٢) وكانت تتولى الدفاع عن بيروت قوة فاطمية تحت إمرة نصر الخادم الذي ذكره متى الرهوى باسم نصيرى . ونجح تزييمسكس في فتح المدينة عنوة ، ونهبها وسبي الكثيرين من أهلها ، كما أسر ألفاً من الجنود الفاطميين وعدداً من قوادهم وكذلك نصر الخادم نفسه . ويضيف خطاب تزييمسكس أنه عهد بحكم المدينة لحاكم إختاره وكانت مدينة جبيل الحصينة الهدف التالى للامبراطور . وبالرغم من إمتناع حاميتها فقد تمكن من إخضاعها بشروط مماثلة للشروط التي فرضت في حالة بيروت . (٣٣)

٣٠ - ابن القلانسي ص ١٤

٣١ - متى الرهوى ص ١٧

٣٢ - لأرجس السابق ص ١٧ - راجع وصف ناصر خسرو لمدينة بيروت ، سفر نا ٤٠ ص ١٤

٣٣ - يحيى الأنطاكي ص ١٤٦ ، ابن القلانسي ص ١٤ ، سبط بن الجوزي ص ٥٦ ، متى الرهوى ص ١٧

وقابل تزيمسكس في طريقه إلى الشمال ، بعد إخضاع جبيل ، عقبة كبرى ممثلة في طرابلس . ولم يكن إخضاع هذه المدينة أسراً هيناً بفضل مواردها الطبيعية ومقوماتها وحصانتها وكذلك الجهود التي قام بها المدافعون عنها . وأشار الرحالة الجغرافي المعاصر المقدسي إلى حصانة طرابلس ، كما تحدث عنها ناصر خسرو الذي زارها وترك وصفاً تفصيلياً لأهم معالمها . (٣٤) وقد وجدت بها قوة من الجيش الفاطمي للدفاع عنها . (٣٥) والظاهر أن انتشار المذهب الشيعي بهذه المدينة ساعد على إيجاد نوع من التقارب والتعاون بين أهلها السنيين والفاطميين الشيعة . (٣٦) وقد تعاون أهل طرابلس مع القوات الفاطمية في الوقوف في وجه الهجوم البيزنطي . ويشير خطاب تزيمسكس إلى حدوث بعض الالتحامات بين طلائع الجيش البيزنطي والفاطميين قبل وصول تزيمسكس إلى المدينة ، وانتصار البيزنطيين على قوة تبلغ الألفين من المغاربة . وحاصر تزيمسكس المدينة نحو أربعين يوماً ، إشتد أثناءها القتال بينه وبين المحاصرين . ولما تبين صعوبة الاستيلاء عليها قام بتخريب المناطق الزراعية الغنية المحيطة بها وقال تزيمسكس في ذلك : « ولقد قلبنا إقليم طرابلس كله رأساً على عقب ، نخرين تخريباً كاملاً »

٣٤ - كانت زيارة ناصر خسرو لطرابلس في فبراير ١٠٤٧ - انظر : سفرنامه

ص ١٣ ، المقدسي ص ١٦٠ .

٣٥ - لم تحدد المصادر العربية نبعية طرابلس للفاطميين وقتئذ ، إلا أن تزيمسكس قد ذكر أن قوات من « الأفريجين » أي الفاطميين ، هم الذين قاموا بحملة الدفاع

عن المدينة - انظر : متى الرهوي ص ١٧ - ص ١٨

٣٦ - يرى جبب Gibb ، أن مدينة طرابلس كانت القاعدة الرئيسية للفاطميين في

الشام مدة قيام النفوذ الفاطمي في هذه البلاد . انظر :

Gibb, « The Caliphate & the Arab States », (History of the Crusades , Ed. Sèton), vol. I, p. 89.

السكروم وأشجار الزيتون والحدائق ، وأينما مررنا كنا نشيخ الدمار والحزن (٢٧) ، ولا بد أن تزييمسكس فعل ذلك إنتقاماً من أهل المدينة لمقاومتهم إياه ، وكذلك لإضعاف مواردهم وقوتهم تمهيداً لمحاصرتهم عند قيامه بحملة تالية . وقرر تزييمسكس في النهاية رفع الحصار عن طرابلس . ويسجل ذلك فشله في الإستيلاء على تلك المدينة التي نجحت في إثبات مناعتها وشدة مقاومتها أمام القوات البيزنطية . والواقع أن البيزنطيين لم ينجحوا أبداً في إخضاع هذا المركز الإسلامى الهام وإسترداده من المسلمين . كما أن الصليبيين الغربيين الذين أتوا إلى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، لم يستطيعوا بدورهم أن يستولوا على طرابلس إلا بعد مضى نحو عشر سنوات من وقوع بيت المقدس فى أيديهم وإستقرارهم فى الشرق .

وهكذا أنسحبت قوات تزييمسكس من أمام طرابلس بعد أن إستعصت عليه ، وقرر أن يتجه شمالاً إلى أنطاكية . وإستولى فى طريقة على بعض المراكز الساحلية والحصون الداخية . وتذكر المصادر أنه استولى بلنياس Balanaea وجبله الواقعة على الساحل . (٢٨) وإلى الداخل نجح البيزنطيون فى الاستيلاء على حصنى برزويه وصهيون ، اللذين كانا خاضعين لسلطة الأمير الحمدانى سعد الدولة ، وكان يليهما المملوك الحمدانى رقطاش غلام سيف الدولة . (٣٩) ولا تشير المصادر لظهور رقطاش هذا على مسرح

٣٧ - متى الرهوى ص ١٨ ، ابن القلانسى ص ١٤ ، بحبى الانطاكي ص ١٤٦ ،

صبط بن الحوزى ص ٥٦

٣٨ - تقع بلنياس على الساحل بين مراقبة وجبله - أنظر للملاحق الحادى عشر

بشأن تحقيق لاسم بلنياس

٣٩ - ابن العديم ج ١ ص ١٦٩ ، أنظر كذلك : كانار ص ٨٤٢ - ص ٨٤٣

الحوادث وقتئذ ، وربما كان متغيبا . وعلى كل حال ، فند قام كليب الكاتب المسيحي الذي كان يعمل في خدمته بتسليم هذين الحصنين إلى الامبراطور البيزنطي . (٤٠) ويذكر يحيى الأنطاكي أن تزيمسكس عين على هذه الحصون التي استولى عليها في شمال الشام ولادة من قبله . وتتفق هذه الرواية مع ما ذكره الامبراطور في خطابه في أكثر من موضع عن تعيين ولادة على البلاد التي فتحها . ولكن المرجح أنه اعتمد في ذلك على المسلمين أو غيرهم من العناصر الشرقية . فإن المؤرخ المذكور ذكر أن الإمبراطور اتخذ كليب النصراني وولديه عملاء له ، وأنه منحه كليب لقب بطريق كما عينه باسليق Basilikos على انطاكية (٤١) وأنه « أقطعه نعمة كبيرة » . (٤٢) والظاهر أن هذا المنصب المذكور كان من المناصب الإدارية الهامة ، وربما كان يعنى الوالى . ومن الجائز جدا أن كليب بحكم منصبه هذا أصبح يعمل تحت رئاسة ميخائيل بورتزيس الذي أصبحت تحت إمرته مساحة شاسعة من البلاد التي أخضعها الامبراطور .

وبالإستيلاء على برزويه وصهيون أنهى تزيمسكس حملته على الشام . (٤٣) وقد قاد

٤٠ - يحيى الأنطاكي ص ١٤٦

٤١ - اختصاصات منصب الباسليق غير واضحة تماما في النظم الادارية البيزنطية . وهناك أكثر من رأى في تحديد اختصاصات هذه الوظيفة ، منها أن الباسليق هو الحاكم أو الوالى ، ومنها أنه كان يختص بإدارة الشؤون المالية - انظر :

Adontz . (Byzantion) X, (1935) , p. 532.

٤٢ - يحيى الأنطاكي ص ١٤٦

٤٣ - إنفرد ابن القلانسي دون غيره من المؤرخين بذكر عصيان مدينة أنطاكية على تزيمسكس وقت عودته بحملته . والظاهر أنه قد التبس عليه الأمر فكرر في هذا للموضع الرواية الخاصة باخر حملات تقفور فوقاس في الشام عندما أقام قوة بيزنطية لمنازلة أنطاكية والاستيلاء عليها - انظر : ابن القلانسي ص ١٤ ، متى الرهوى ص ١٩ .

ص ٢٠ ، يحيى الأنطاكي ص ١٤٦

جيشه إلى أنطاكيه ورجع هو إلى عاصمة بلاده. (٤٥) ولابد أن قواته التي قامت بالقتال ضد المسلمين وتنقلت بسرعة من مركز إلى آخر منذ شهر ابريل حتى شهر سبتمبر (٩٧٥ م) أصبحت مجهدة وفي حاجة إلى الراحة . وربما كان من الأسباب التي جعلته يقرر العودة ما بدأ يشعر به من إعتلال في صحته . والواقع أن تزعيم سكس مع إهتمامه بتنفيذ سياسة التوسع البيزنطى على حساب المسلمين في الشرق ، لم يقدر له أن يقوم بحملة أخرى لتحقيق أهدافه في هذا الاتجاه . فإن الأجل لم يعمل هذا الإمبراطور الذى أدركه الموت عقب عودته من حملته على الأراضى المسيحية المقدسة . وكانت وفاته في ١٠ يناير ٩٧٦ م ، بعد حكم لم يستمر إلا قرابة ست سنوات . وقد اختلفت الآراء في تفسير أسباب موته ويرى بعض المؤرخين أن جماعة من أعدائه دسوا له السم ، كما يرجح البعض الآخر أنه أصيب بحمى التيفود في أواخر مدة حملته على الشام وأنه مات متأثراً بهذا المرض ، (٤٦)

وعند محاولة تقدير إنجازات تزعيم سكس في سياسته ضد المسلمين في الشرق الأدنى ، فلا بد من الاعتراف بأهمية نتائج الحملات التي قام بها على شمال العراق والشام . فقد كان إقليم الجزيرة هدفاً للحملات الثلاث التي وجهها إليه الإمبراطور وشعر المسلمون هناك بقوة الجيوش البيزنطية ، وأصبح للإمبراطورية البيزنطية شأنها في هذه الأنحاء . وأذعن عدد من أمراء هذا الإقليم ، بما فيهم أمير الموصل الحمداني ، أمام الخطر البيزنطى واضطروا لدفع الجزية ليشتروا بها أمنهم وسلامتهم .

٤٥ - متى الرهوى ص ٢٠

(٤٦) - Ostrogorsky, ibid, p.264.

انظر كذلك : شلومبرجيه ص ٣١١ - ص ٣١٦ ، ابن القلانسي ص ١٤ ، ابن الأثير

وفي وصف ما أنجزه تزييمسكس من أعمال في البلاد الشامية فقد جاء في
أواخر خطابه ، الذي كتبه على أثر انتهائه من حملته على هذه البلاد ،
ما يأتي : « لم يتبق حتى الرملة وقيسارية يابس أو ماء لم يخضع لما . » (٤٧)
كما كتب : « والآن صارت فينيقيا وفلسطين وسوريا متحررة من نير المسلمين ،
وخاضعة للرومان . » (٤٨) ومن الواضح أن هذه الكلمات تحوى الكثير من
المبالغة في وصف فتوحات تزييمسكس . ويجب ألا ينظر إليها إلا على أساس
أنها تحدد الهدف الذي أراد تحقيقه في هذه البلاد . فإن هذا الامبراطور
لم يستطع أن يحقق بشكل كامل الهدف الصليبي الذي قام من أجله . فهو
لم ينجح في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، الأمر الذي لم ينجزه
بالنسبة لأوروبا المسيحية إلا الصليبيون الغربيون في أواخر القرن الحادي
عشر الميلادي كما أن تزييمسكس بالرغم من نجاحه في التوغل في البلاد
الشامية ، وما فرضه من الاتفاقيات على عدد من أمراء المدن والمراكز
الاسلامية ، فإنه لم يتخذ مايلزم لتأمين ما حصل عليه من مكاسب في أواسط
وجنوبي الشام بعد انسحابه .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجح تزييمسكس في تدهيم الحكم البيزنطي
في المناطق الشمالية التي كان تقف فوقها وقاس ضمتها للحكم البيزنطي المباشر
مثل إمارة أنطاكية ، والتي فرض السيادة البيزنطية عليها مثل حلب . وفضلا
عن ذلك فإن الفتوح الجديدة التي قام بها تزييمسكس في شمال الشام كانت
أكثر بقاء من فتوحاته في الجنوب . وتشير المصادر التاريخية إلى استمرار
حكم البيزنطيين في عدد من المراكز الشمالية التي أخضعها تزييمسكس . فإن

٤٧ - . في الرهوى ص ١٨

٤٨ - المصدر السابق ص ١٩

بمجي الأنطاكي الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي ذكر أن حصون بلنيس وجبلة وبرزويه وصهيون ، إستمرت خاضعة للبيزنطيين منذ إستيلاء تزيمسكس عليها حتى الوقت الذي دون فيه تاريخه . (٤٩)

ولقد أصبح على الامبراطور باسيل الثاني ، الذي خلف تزيمسكس على عرش بيزنطة ، والذي بلغت الامبراطورية البيزنطية في عهده أوج قوتها ، العمل على تأمين المكاسب التي حصل عليها تزيمسكس ومواصلة سياسته في الشرق . وإن حملات كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثاني ضد المسلمين ، تعتبر أروع الصفحات في تاريخ الهجـوم البيزنطي على المسلمين في الشرق الأدنى . والواقع أن العامل الرئيسي الذي حال دون إمتداد النفوذ البيزنطي من شمال الشام إلى جنوبه كان الفاطميون ، الذين نجحوا في فرض حكمهم على هذه المنطقة من الشام ، وأقاموا حاجزا منيعا وقف أمام التقدم البيزنطي . واضطرت الامبراطورية البيزنطية للاعتراف بهذا الحاجز رسميا وذلك بمقتضى الاتفاقية التي عقدت بين الامبراطور باسيل الثاني والخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠١ م ، والتي كانت أول اتفاقية لتنظيم العلاقات البيزنطية الفاطمية في الشام . ومما يمكن من أمر ، فنتيجة للجهود التي قام بها كل من نقفور فوقاس وتزيمسكس وباسيل الثاني ، نجح البيزنطيون في إقامة منطقة خاضعة لنفوذهم في شمال الشام ، قاعدتها الأساسية مدينة أنطاكية ، التي ظلت في أيديهم حتى سنة ١٠٨٤ م أي حتى قبيل مجيء الصليبيين الغربيين بسنوات قليلة . وهكذا

٤٩ - بمجي الأنطاكي ص ١٤٦ - كان موت هذا المؤرخ في ١٠٦٦ م / ٤٥٨ هـ ، وقد صنف كتابه في التاريخ حوالى ٣٩٧ هـ ثم أعاد كتابته حوالى

كان النفوذ البيزنطي عاملاً من العوامل الهامة التي أثرت في تاريخ الشام السياسي لسنوات عديدة .

وفضلاً عن ذلك ، فإن الحملات التي قام بها البيزنطيون على الشرق الأدنى الاسلامي ، ونجاحهم في إقامة منطقة نفوذ لهم في الجزء الشمالي من الشام ، قد أمدتهم بذريعة قوية تذرعوها بها للتدخل في شؤون الصليبيين وإماراتهم اللاتينية التي بدأوا في إقامتها منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي . فلقد تمسك الأباطرة البيزنطيون بما اعتبروه حقاً لهم في حكم الأراضي المسيحية المقدسة وخاصة أنطاكية التي كانت خاضعة لهم إلى عهد قريب . ولجأ الامبراطور الكسيوس كومنين إلى مختلف الطرق لكي يجبر أمراء الصليبيين ، أثناء مرورهم بالقسطنطينية ، على أن يقسموا يمين الولاء له ، وكذلك أن يردوا للامبراطورية البلاد التي كانت تابعة لها في الشرق (٥٠) كما دأب خلفاؤه من الأباطرة أثناء القرن الثاني عشر الميلادي على محاولة فرض السيادة البيزنطية على مختلف الإمارات اللاتينية في الشام . (٥١) وكان لهذه السياسة التي إتبعها البيزنطيون آثارها على تاريخ الصليبيين ومركزهم في الشرق .

٥٠ — بخصوص شروط الاتفاقية بين الكسيوس وأمراء الحملة الصليبية الأولى ،

ارجع إلى :

Vasiliev, Byz. Emp., p. 408; Yewdale, Bohemond I, p. 44.
(51) La Monte, « To What Extent was the Byzantine Empire :
the Suzerain of the Latin Crusading States ? » Byzantion VII
(1932), 253 - 64.

ملاحق

أ - نصوص ووثائق

الملحق الأول

رسالة الامبراطور يوحنا تزييمسكس
إلى الملك الأرميني آشوط الثالث

وصلت إلى أيدينا هذه الرسالة الهامة عن طريق المؤرخ الأرميني متى الرهوى . وان المصنف الذي وضعه هذا المؤرخ يعد أهم مصدر أرميني وصل إلينا من القرن الثاني عشر الميلادي . وكان متى رئيساً لأحدى الأديرة بمدينة الرها ، وقد مات في مدينة كيسون Kaisoun . أى أنه عاش في تلك المنظمة التي شاهدت نشاط الامبراطور تزييمسكس ومحاولاته للتوسم على حساب المسلمين . وقد توقفت حوليته عند أحداث سنة ١١٣٦م. وبصفة عامة يتميز تاريخ متى بالدقة في تقضى الاخبار والاعتماد على المصادر الرئيسية في إستقاء معلوماته . وكانت تحت يديه مصادر عديدة استطاع الاعتماد عليها عند كتابته عن الفترة السابقة على عهده .^(١)

وترك هذا المؤرخ وصفاً للحملات العسكرية التي قام بها كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزييمسكس على شمال العراق والشام . وكان أهم ما جاء به في هذا الموضوع من خطاب الامبراطور تزييمسكس إلى حليفة الملك الأرميني آشوط الثالث . وتدل الشواهد المختلفة على أن هذه الوثيقة أصلية . وقد

١ - انظر :

C. Cahen, La Syrie du Nord a l'époque des Croisades p. 98.

حفظت في دور المحفوظات لدى الملوك البغريين Bagratids في مدينة آني Ani . ويرجم الفضل إلى متى الرهوى في الاحتفاظ لنا بهذه الوثيقة الرسمية التي سجلت وصفاً هاماً للحملة التي قام بها تزييمسكس على بلاد الشام سنة ٩٧٥ م ، وما صاحبها من الجـو الصليبي والحماسة الدينية التي شابها ما وجد أثناء الحملة الصليبية الأولى ، التي قامت بها العناصر اللاتينية لاسترجاع الاراضي المسيحية المقدسة في أخريات القرن الحادى عشر الميلادى .

وكان أول من قام بترجمة هذه الرسالة من اللغة الارمينية إلى لغة من اللغات الحديثة هو ف . مارتن F. Martin وذلك سنة ١٨١١ عندما ترجمها إلى اللغة الفرنسية .^(٢) وقام بعده المؤرخ دى لورييه Du Laurier بإعداد ترجمة فرنسية جديدة أكثر وضوحاً .

ولأهمية هذه الرسالة ، رأينا أن نقوم بإعداد ترجمة عربية كاملة لها ، حتى يتيسر للباحث والقارئ العربى الإطلاع عليها والاستفادة منها . وقد سبق وتعرضنا لنقد بعض ما جاء في خطاب تزييمسكس أثناء تحدثنا عن الحملات التي قام بها هذا الامبراطور على الشرق الأدنى ، كما سنعلق على بعض أجزائه الأخرى حسب ما يقتضيه الموقف على شكل حواش ترفق مع الترجمة العربية للخطاب . والأفضل أن ننبه في هذا الموضع ، إلى أن الخطاب صدر من شخصية كبيرة ، وهو الامبراطور البيزنطى ، إلى حليف له ، يهيمه التأثير عليه واشعاره بقوته ، حتى يظل الملك الارمينى على إرتباطه بالامبراطورية البيزنطية . ومن أجل تحقيق ذلك لم يتردد الامبراطور

(2) F. Martin, Détails historiques de la premiere expedition des Chretiens dans la Palestine sous l'empereur Zimisce. (Paris, 1811)

في المبالغة في بعض المواقف في تصوير انتصاراته وان هذه الظاهرة الموجودة في خطابه لتذكرنا بما تفعله بعض الدول الحديثة عندما تصدر نشرات رسمية تبالغ فيها في تصوير انتصاراتها وهزائم أعدائها ، حرصاً على الإبقاء على هيبتها في مسرح السياسة الدولي أثناء الحروب ، واكتساب الأنصار فيما تقوم به من صراع ضد أعدائها .

نص الرسالة^(٣)

« يا آشوط ، يا شاهنشاه أرمينية الكبرى ، يا بني الروحي ، انصت إلى ولتعلّم الأعاجيب التي أتاها الرب لصالحنا ، وانتصاراتنا التي تمّ عن اعجاز والتي تدل على أنه يستحيل سبر غور العناية الإلهية . وإننا نريد يا صاحب المجد ، يا آشوط يا بني ، أن نطلعك على الدلائل الساطعة على الفضل الذي أضافه الرب إلى نعمه هذا العام ، على يدي جلالتنا وأن نبصرك بها . فأنت بوصفك مسيحياً وصديقاً وفيّاً لجلالتنا سوف تسعد بذلك وتلمح بعظمة مولانا المسيح السامية . وهكذا ستعرف أن الرب لا يكف عن حماية المسيحيين ، وهو الذي أتاح لجلالتنا أن نخضع كل بلاد الشرق الفارسي^(٤) . وستعرف كذلك كيف استولينا على نصيبين مدينة المسلمين ، وعلى مخلفات البطريك القديس جاك^(٥) ، وكيف أخذنا منهم الأسرى .

وكانت حملتنا تهدف أيضاً إلى الاقتصاص من كبرياء أمير المؤمنين

٣ - النص الذي قمنا بترجمته إلى اللغة العربية هو الموجود في « موسوعة مؤرخي

الحروب الصليبية »

Recueil des historiens des Croisades. Documents arméniens.
I, pp. 13 20

٤ - يبدو أن الامبراطور بشير هنا إلى حملاته في شمال العراق

٥ - هو القديس جاك النعيمي

وزهو ، وهو مولى الأفريقيين المعروفين بالمغرب المغاربة ، الذى
تصدى لنا بقوات هائلة عرضت جيشنا فى البداية للخطر . ولكننا هزمناها
بعد ذلك بفضل القوة وعون الرب ، فأنسحبت فى خزي ، شأنها شأن
أعدائنا الآخرين . وعندئذ جعلنا من أنفسنا سادة على بلادهم ، وحكنا
بقطع رقاب أهالى عدة أقاليم . وبعد ذلك تعجلنا بالانسحاب وعدنا إلى
قواعدنا الشتوية .

ولقد جهزنا جميع فرساننا فى شهر أبريل ، وبدأنا حملتنا فدخلنا فينيقيا
وفلسطين لمطاردة الأفريقيين الملاحين الذين كانوا أسرعوا إلى بلاد الشام .
وغادرنا أنطاكية بكل جيشنا . وفى تقدمنا المباشر أجزنا تلك البلاد التى
كانت من أملاكنا من قبل ، فأخضعناها من جديد لسلطاننا بأن فرضنا
عليها جزية كبيرة وأستولينا فيها على الأسرى . وحين أدركنا مدينة حص
أقبل إلينا سكان المنطقة - وهم الذين كانوا يدفعون لنا الجزية -
وأستقبلونا بترحاب . وانتقلنا بعد ذلك إلى بعلبك التى يطلق عليها أيضا
إسم هليوبوليس ، أى مدينة الشمس : إنها مدينة شهيرة عظيمة مميونة
تموينا كاملا كما أنها كبيرة ومترفة . وحين خرج الأهالى علينا بشكل عدائى ،
شتتهم قواتنا وأطاحت برءوسهم بالسيوف . وبعد عدة أيام بدأنا الحصار
فأسرنا عددا كبيرا من الشبان والفتيات ، واستولت قواتنا على كثير من
الذهب والفضة ، وكذلك على عدد ضخم من الماشية .

وواصلنا سيرنا متجهين نحو مدينة دمشق بغية محاصرتها إلا أن حاكما
وكان شيخا على قدر كبير من الحكمة ،^(٦) بعث إلى جلالتنا برسل يحملين

٦ - كان حاكم دمشق عند مجيء تزيه سكس إليها هو أفتكين

بالهدايا الثمينة ، ومكافئين بأن يتوسلوا اليها ألا نحيلهم إلى رقيق وألا نخرب بلدهم ، مثلما فعلنا بملكك وأهلها . لقد قدموا اليها هدايا نفحة وعدداً من الخيول الثمينة والبغال الجميلة المزودة بسروج رائعة مزينة بالذهب والفضة . ولقد وزعنا على جنودنا الخراج الذي تلقيناه من العرب وكان مقداره يبلغ أربعين ألفاً من التاهيجانات (٧) وقدّم الأهالي اليها وثيقة يتعهدون فيها بأن يظلوا دوماً وجيلاً بعد جيل على طاعتنا . ولقد نصبنا لحكم دمشق رجلاً جليلاً من بغداد يسمى التركي (٨) وقد أتى بصحبة خمسمائة فارس ليقدّم لنا الولاء . (٩) وكان أعتنق الدين المسيحي ، وقبل ذلك كان أعترف بسيادتنا . ولقد أدى جميع هؤلاء اليمين قاطعين على أنفسهم العهد بأن يدفعوا خراجاً دائماً ، وصاحوا هاتمين . المجد لجلالتكم . كما أنهم تعهدوا في الوقت ذاته بمحاربة أعدائنا ، وبمقتضى هذه الشروط أرتضينا أن ندعهم وشأنهم . (١٠)

وأوجهنا بعد ذلك إلى بحيرة طبرية ، هناك حيث أتى مولانا المسيح بمجزته - بسمكتين وخمسة أرغفة من الخبز - وأعزمنّا محاصرة المدينة - طبرية - إلا أن الأهالي أتوا ليعلمنوا لما خضوعهم وليحملوا اليها مثل سكان دمشق كثيراً من الهدايا ومقداراً من المال يبلغ ثلاثين ألفاً من التاهيجانات،

٧ - لتفسير كلمة تاهيجانات (جمع تاهيجان) انظر ما سبق ص ١٥٩

٨ - يقصد افتكين

٩ - الولاء هنا بمعنى Hommage الذي كان ركناً أساسياً في علاقة التابع بالمتبوع في النظام الإقطاعي

١٠ - قابل مذكره تزييمسكس عن علاقته بافتكين وأهل دمشق بها جاء في المصادر العربية : ابن الفلاس ص ١٢ - ص ١٤ ، سبط بن الجوزي ص ٥٥ - ص ٥٦ يعني الانطاكى ص ١٤٦

فضلا عن أشياء أخرى . وطلبوا اليّنا أن ننصب عليهم قائدا من لدينا ،
وقدموا وثيقة تعهدوا فيها بأن يظلوا مخلصين لنا وبأن يداوموا على دفع
الجزية . عندئذ تركناهم أحراراً من نير الاستعباد ، وأمتنعنا عن تخريب
مدّيتهم وديارهم . لقد جنبناهم مغبة النهب لأن بلدهم كان موطن الحواريين
المقدسّين . وحدث نفس الشيء في الناصرة حيث كانت أم الرب القديسة
صريم العذراء سمعت النبا السعيد من فم الملاك . ولما كنا ذهابنا إلى جبل
الطور ، فقد صعدنا إلى المكان الذي تجلّى فيه إلهنا المسيح . وحين توقعنا
أنّنا من الرملة والقديس أناس يلتمسون رعاية جلالتنا ويتضرعون اليّنا
أن نرحمهم . لقد طلبوا اليّنا أن ننصب عليهم حاكما وأُعترفوا بتبعيةهم لنا ،
وأرتضوا الخضوع لسيادتنا ، فزجناهم ما كانوا يتمنون .

كانت رغبتنا أن نحرر ضريح المسيح المقدس من نير المسلمين . وقد
عينا حاكما عسكريين على جميع الثيمات - الأجناد - التي أخضعناها والتي
صارت تدفع لنا الجزية : في بيسان التي تسمى كذلك ديقابوليس ،
وفي طبرية^(١١) وفي عكا التي يطلق عليها أيضا بطلمية . وتعهد الأهالي كتابة
أن يدفعوا لنا كل عام جزية دائمة ، وبأن يعيشوا تحت إمرتنا . وبعد ذلك
انتقلنا إلى قيسارية الواقعة على شاطئ البحر المحيط ، والتي خضعت لنا .
ولو أن هؤلاء الأفريقيين الملاحين الذين كانوا استقروا هناك لم يلوذوا
بمحصول الساحل لكنا ذهابنا بممونة الرب إلى مدينة أورشليم المقدسة ،
وصلينا في هذه الأماكن المقدسة .

١١ - مدينة Génésareth في أصل الخطاب وهي إحدى الاسماء القديمة لطبرية

نظر . Article « Galilée » Encyclopaedia Biblica) vol. II,

col. 1632,

ولما كان أهل سواحل البحر لا ذوا بالفرار ، فقد أخضعنا الجزء
العلوى من البلاد للسيطرة الرومانية ،^(١٢) وأقمنا عليها قائداً . وكنا نستميل
الأهالى إلنا ، أما هؤلاء الذين ظهر عصيانهم فقد أجبروا على الإذعان .
وسرنا فى الطريق المحاذية للبحر ، والى تؤدى مباشرة إلى بئر هذه المدينة
العظيمة ، ذات الشهرة الذائعة ، التى تحميها أسوار قوية ، والى يطلق
عليها الآن اسم بيروت . وبعد صراع بالغ العنف استطعنا أن نسيطر عليها .
لقد أمرنا ألما من الأفريقيين ، وكذلك نصيرى - نصر - الخادم^(١٣) قائد
أمير المؤمنين ، وقادة آخرين من أعلى الرتب . وعهدنا بهذه المدينة إلى
حاكم اخترناه . ثم عقدنا العزم على السير إلى صيدا ، وما أن علم سكانها
بنيئتنا حتى أوفدوا إلنا شيوخهم الذين اقبلوا متوسلين لجلالتنا وملتجئين
أن يصبروا رعائنا وعبيدنا الخاضعين على الدوام . وإزاء هذه التأكيدات ،
ارتضينا الاستجابة لرجائهم وتحقيق رغباتهم ، وحثمنا عليهم دفع جزية
وأقمنا عليهم حكما ، ثم واصلنا مسيرنا متجهين إلى بيلوس - جبيل - هذا
الحصن القديم الرهيب الذى هاجمناه وأخضعنا حاميته . وهكذا تتبعنا
جميع المدن الواقعة على الساحل ونهبنها واحلنا أهلها عبيداً . وكان علينا
أن نختار طرقاً ضيقة لم يحدث أبداً أن عبرتها خيول ، طرقاً رهيبة وشاقة
جداً . ولقد صادفنا مدناً آهلة بالسكان ومزدهرة ، وحصوناً تحميها أسوار

١٢ - صفة « الرومانية » المذكورة تعتبر مرادف للفظ « البيزنطية » ذلك أن
باطرة بزنطه قد احتفظوا بلقب « أباطرة رومان » وكان رعاياهم يطلقون عليهم
اسم الرومان

١٣ - نصر هو أحد خصيان الخليفة الفاطمى انظر :

Wustefeld, Geschichte der Fatimiden Chalifen, Göttinger,
1881) p. 127.

قوية وحاميات من العرب ، فعاصرناها جميعاً وجعلنا عاليها سافلها ، كما اقتدنا من اسرناه من سكانها . وقبل ان نصل إلى طرابلس ارسلنا فرسان الثيمات - الأجناد - والحاميات إلى ممر كارير Karéres^(١٤) ، إذ كان قد نما إلى علمنا ان الأفريقيين الملاحين عسكروا فيه . وامرنا قواتنا بأن تختبئ ، واعددنا كميناً مهلكاً ، ونفذت أوامرنا . وظهر ألفان من الأفريقيين انقضوا على جنودنا الذين قتلوا منهم عدداً كبيراً واسروا كثيرين أتوا بهم أمام جلالتنا .

ولقد قلبنا اقليم طرابلس كله رأساً على عقب ، مخربين فيه تخريباً كاملاً الكروم وأشجار الزيتون والحدائق ، وأينما مررنا كننا نشيم الدمار والحزن . وتجاسر الأفريقيون المعسكرون هناك فأتجهوا نحونا ، ولكننا انقضضنا نوا عليهم وأبدناهم إلى آخرهم . وبسطنا سلطاننا على المدينة الكبرى Djonel التي تسمى كذلك جبله ،^(١٥) وعلى بلنياس ، وصهيون ، وبرزويه الشهيرة . ولم يبق حتى الرملة وقيسارية ماء أو يابس لم يخضع لنا ، بحول الرب الذي لم يولد ، فأتسعت فتوحاتنا حتى مدينة بابلون الكبرى - القاهرة -^(١٦) وفرصنا القوانين على الأهالي وأحلناهم إلى عبيد لنا وذلك لأننا جلنا في البلاد خلال خمسة أشهر بقوات عديدة ، مدمرين المدن ومخربين

١٤ - يبدو أن هذا إحدى للمرات بجبل لبنان وعلى مقربة من مدينة طرابلس - ولفظ Kareres باللغة الأرمنية يعني « وجه الحجر » أو « وجه الصخر » - انظر : شلومبرجيه ص ٢٨٨ ، حاشية ٣

١٥ - تقع مدينة جبله على الساحل بين اللاذقية وبلنياس

١٦ - درج كثير من واضعي الحوايات الأوروبيين في العصور الوسطى على استعمال اسم بابلون عند التحدث عن كل من القاهرة وبغداد . والظاهر من سياق الحديث في خطاب تريمسكس أنه يقصد القاهرة

الولايات دون أن يجبروا أمير المؤمنين على الخروج من بابلون لمقابلتنا أو
هلى الأقل ارسال مدد من الفرسان إلى قواته . ولولا الحر اللافح والطرق
القفر في الأماكن التي تجاور هذه المدينة ، كما تعرف يا صاحب المجد ،
لاستطاع جلالتنا أن يصل إلى هناك . ذلك لأننا طاردنا هذا الأمير حتى
مصر وهزمناه هزيمة كاملة بفضل الرب الذي ندين له بتاجنا . (١٧)

والآن صارت كل فينيقيا وفلسطين وسوريا متحررة من نير المسلمين
وخاضعة للرومان . (١٨) وفضلا عن ذلك فإن جبل لبنان الكبير اعترف
بقوانيننا . وإن جميع العرب الذين كانوا يقيمون به وقبوا أسرى في
أيدينا بأعداد كبيرة للغاية ، فوزعناهم على فرساننا . وحكمنا الشام حكماً
يتميز بالرفق والاسانية والرعاية . وأخذنا منها قرابة عشرين ألف شخص
أسكناهم جبله . (١٩) ولسوف تعرف أن الرب منح للمسيحيين انتصارات
لم يحصل أحد على مثلها في أي يوم من الأيام .

١٧ - الملاحظ أن تريمسكس قد جنح هنا للمبالغة أو استهلال الخيال في تصوير
ما ذكره من انتصارات هلى قوات الفاطميين

١٨ - أي البيزنطيين أو الروم

١٩ - لقد انفرد خطاب تريمسكس دون غيره المصادر بذكر إسكان عشرين ألف
من أهل الشام في جيلة . ولم يوضح المصدر المذكور إذا ما كان هؤلاء من المسيحيين
أو المسلمين ، أو من العناصر الموالية للإمبراطور البيزنطي . كما لم يذكر السبب الذي
جعل الإمبراطور ينزل هذه الأعداد الكبيرة من أهل الشام في موقع جيلة بالذات . وربما
اراد تريمسكس أن يعبر بهم منطقة جيلة التي أصبحت تحت السيادة البيزنطية ، كما أنه من
الجائز أنه اراد أن تتخذ من هذا الموقع مركزاً إمامياً يواصل منه عملياته العسكرية ضد
طرابلس — ويجدر بنا أن نتذكر كذلك أن جيلة كانت أقرب للراكن الشامية إلى
جزيرة قبرص التي كان البيزنطيون اخضعوها في فترة سابقة . وقد ذكر ابن حوقل
« وكانت جزيرة قبرص تحاذي جيلة في وسط البحر الرومي وبينها مجرى يوم وليلة » . ابن

حوقل ج ١ ص ١٧٩

وقد عثرنا في جبلة على النملين المقدسين الذين سار بها المسيح حينما ظهر على الأرض كما وجدنا أيقونة المخلص - المسيح - ، تلك الأيقونة التي طعن بها اليهود فسأل منها في النودم وماء ، ولاكننا لم نلاحظ في هذه الأيقونة طعنة الحربة . ووجدنا كذلك في هذه المدينة شعر القديس يوحنا المعمدان الرسول ، وهو شيء نفيس . وبعد أن جمعنا هذه المخلونات حملناها معنا لنحتفظ بها في مدينتنا - القسطنطينية - التي يكلاها الرب برعايته .

وفي شهر سبتمبر قدنا جيشنا الذي حفظته العناية الالهية إلى أبطاكية . وإذا كنا قد أطلعناك يا صاحب المجد على جميع هذه الحقائق فلاكني يثير سردها فيك الاعجاب ، ولاكني تمجد بدورك عظيم فضل الرب ، وحتى تلم بالاعمال العظيمة التي تم إنجازها في هذا الزمن ، وما أكثر عددها ! إن الصليب المقدس قد بسط سلطانه على نطاق واسع ، في جميع البقاع وفي كل إتجاه ، وأصبح الناس يسبحون باسم الرب في جميع هذه البلاد - ولقد قامت إمبراطوريتي في كل مكان متألفة جليلة . ولذا فإن ألسنتنا لا تكف عن التسبيح بحمد الرب الذي منحنا مثل هذه الانتصارات الرائمة . حمداً أزلياً للسيد رب اسرائيل ! (٢٠)

الملحق الثاني

وثيقة بشأن فرض قيود على التجارة بين البنادقة والمسلمين

مما تجدر بنا ملاحظته أن الامبراطور يوحنا تزيمسكس أدرك خطورة التجارة القائمة بين البندقية والبلاد الاسلامية ، حيث أن البنادقة كانوا يمدون المسلمين بأنواع من السلاح وكذلك الأخشاب التي أستعملوها في بناء السفن . وكان هذا مما يعمل على تدعيم قوتهم العسكرية في وجه الامبراطورية البيزنطية . وعلى ذلك رأى هذا الامبراطور ، أن يستغل ماله من نفوذ وسلطة ، حيث أن الامبراطورية البيزنطية كانت صاحبة السيادة على البندقية . وقد أرسل تزيمسكس مبعوثيه إليها لمنع البنادقة من إمداد المسلمين بما قد يسود بالضرر على البيزنطيين . والوثيقة التي نقوم بترجمتها هنا متعلقة بهذا الاجراء وتتناول الخطوات التي قام البنادقة بها للرد على مطلب الامبراطور .

نص الوثيقة *

ريالتو (١) ، البندقية — يوليو ١٢٧١ م

باسم الرب ومخلصنا يسوع المسيح . في أثناء العهد الامبراطوري للعاهل

● النص الذي قنا بترجمته مأخوذ من :

Lopez & Raymond : Medieval Trade in the Mediterranean World
New York, 1955. pp. 331 - 35.

(١) ريالتو هو مبنى شهير عند القنال الرئيسي في مدينة البندقية .

يوحنا الامبراطور العظيم ، في شهر يوليو من السنة الثانية من حكمه
الامبراطوري ، الموافق للتوقيت الرابع عشر . (٢) رياتو .

حيث أنه جاء ، في فترة مبكرة من التوقيت السالف الذكر ،
مبعوثون إمبراطوريون من قبل يوحنا الأول وباسيل الثاني وقسطنطين
الثامن ، وهم أقدم الأباطرة ، للاستعساء عن الأخشاب والأسلحة التي
كانت تحملها سفننا إلى بلاد المسلمين ، وللتهديد بشكل مفزع ، بناء على أمر
أجد الأباطرة ، بأنه في حالة قيام البنادقة بتقديم المساعدة للبرابرة بمدادهم
بالأخشاب ، الأمر الذي يعتبر موجهاً ضد صالح الامبراطورية وضد الشعب
المسيحي ، فإنهم سوف يقومون بإشغال النيران في كافة السفن بما عليها من
رجال وشحنات .

وعلى ذلك ، ففي يوم ما ، عندما كان اللورد بيترو كانديان الرابع ،
مولانا أفخم الأديب ، مجتمعا مع ابنه فيتالي أقدم البطارقة ، وكذلك مع
مارينو أفخم أسقف الكنيسة فيتالي ، وأساقفه آخرين من بلاده ، وكذلك
عندما كان جزء كبير من الشعب من العناصر العليا والمتوسطة والدنيا قائما
في حضرته ، عقد المجتمعون مجلسا ليقرروا كيف وبأية طريقة يستطيعون
تهديده غضب الامبراطور ، وكيف يكفون عن القيام بهذا العمل الشرير
وإرتكاب تلك المعصية .

(٢) استعملنا هنا كلمة التوقيت محل كلمة Indiction . وهذه الكلمة لا يوجد
ما يقابلها في اللغة العربية . وهي عبارة عن فترة زمنية تتكرر من ١٥ سنة ، أدخلها
الامبراطور قسطنطين الكبير من أجل تنظيمات مالية . و المعروف ان الكنيسة
اللاتينية قد اتبعت هذا التنظيم .

ولأننا نعرف بكل تأكيد أنها معصية كبرى أن نقدم لشعب وثنى مثل تلك المساعدة التي يستطيع بها التغلب على المسيحيين وإلحاق الضرر بهم، فبناء على ذلك، وبإلهام من العناية الإلهية تشاورنا سويًا ووصلنا إلى قرار نعهد بمقتضاه نحن وورثتنا، لك يا لورد بيترو يا مولانا يا أسمى دوج، وخلفائك، أنه من الآن فصاعداً، لن يجسر أحد على أن يحمل إلى بلاد المسلمين أسلحة لبيعها أو لتقديمها كهدايا. كما لن ينقل أحد أخشاب لبناء السفن مما قد يضر مصالح الشعب المسيحي. كما لن يحمل أحد الدروع أو التروس أو السيوف أو الرماح أو أى أسلحة قديحارب بها المسلمون المسيحيين ولا يجوز للمرء أن ينقل من السلاح إلا ما يدافع به عن نفسه ضد الأعداء. ولا يجوز بأية حال أن يباع مثل هذا السلاح أو يعطى للبرابرة.

وبشأن الأخشاب، فنحن نوافق على عدم نقل أشجار الدرداء أو القيقب أو ألواح الخشب السمكة أو المجاذيف والسوارى أو أى أخشاب أخرى قد تتسبب في إلحاق الأذى بالمسيحيين. ولكن يمكن أن نحمل فقط قرم خشبية مشدبة من الدرداء لا يزيد طولها عن خمسة أقدام ولا عرضها عن البلطة، وكذلك الأواني والطاسات والأقداح، وألواح من الخشب طولها خمسة أو ستة أقدام. ولا يجوز لنا أن نشحن على المراكب، من أى ميناء بعد أن نبحر من ميناء البندقية، أخشاب يمكن بيعها فى أى مناسبة للبرابرة ويستطيعون إستعمالها فى بناء السفن.

وإذا حاولنا فى أى وقت أن نحنت بالعهد الحالى وإجترأنا على أن ننقل إلى بلاد المسلمين أسلحة أو أخشاب غير ما نص عليه سالفنا، فإن من يقوم بذلك ويكتشف أمره، عليه أن يدفع لك يا لورد بيترو، يادوج ويامولانا، أو خلفائك من بعدك، غرامة قدرها مائة جنيه، من الذهب الخالص وإذا

لم يكن يمتلك هذه الجنيهاً ، فلتقع على رأسه العقوبة الكبرى . وليبق سجل
هذا العهد نافذ المفعول بشكل تام إلى الأبد .

وليكن من المعلوم الآن ، أن قبل وصول رسول الأمبراطورية المقدسة
إلينا ، كانت ثلاث سفن على وشك الإبحار ، إثنان منها إلى المهديّة والثالثة
إلى طرابلس . وبناء على ذلك ، ونظراً لفقر رجالها ، منحناهم تصريحاً بحمل
قرم خشبية وسوارى وأوانى وأطباق وسلع صغيرة أخرى . إلا أننا لم
نسمح لهم بشحن الأخشاب المظورة السالفة الذكر . وفي المستقبل ليكن من
الممنوع على أى شخص أن يحمل إلى بلاد المسلمين أى أخشاب خلاف تلك
التي نص عليها فى سجل العهد . وإذا إجتراً أحد على أن يأتى بعير ذلك حائثاً
به ، فليحتمل العقوبة السابقة الذكر .

الملحق الثالث

خطبة في الجهاد لابن نباته الفارقي

(ألقاها بعد انتصار المسلمين على الدمستق مليح)

صاحب هذه الخطبة، وغيرها من خطب الجهاد، هو الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباته الفارقي . وكان مولده في مدينة ميفارقين ومات في نفس المدينة سنة ٣٧٤ هـ (١) وقد عاش ابن نباته معظم حياته في اقليم الثغور أى في تلك المنطقة التي شهدت الصراع الذي قام بين البيزنطيين والمسلمين في هذا العصر . والملاحظ على خطبه الخاصة بالجهاد اعتمادها على الجمل القصيرة المسجوعة ، ودأبه على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكذلك ضرب الأمثال من مواقف البطولة الإسلامية . وكان هدف ابن نباته من هذه الخطب التي ألقاها ، حث الناس على الجهاد في سبيل الله ونبذ خلائقهم وتوحيد كلمتهم ضد البيزنطيين . وهذه هي إحدى خطبه الشهيرة . وقد ألقاها بعد انتصار المسلمين على الدمستق مليح . وهذا هو نصها الكامل :

« الحمد لله مستدرج العصاة من حيث لا يعلمون ، والمملئ لهم لينظر كيف يعملون (٢) ، لا يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ، حتى يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون . أحمده على النعم السائرة ، في البلايا الغامرة . وأشهد

* ديوان خطب ابن نباته ص ٢١٤ - ٢١٧

١ - النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ١٤٦

٢ - أملئ الله له : أمهله

أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أنس بها القلب فخالقها ، وصد
عمن كرها فخالقها . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اختاره من الخلق صفياً ،
وأرسله بالوعد وفيها فكان صلى الله عليه وعلى آله بالؤمنين خفياً (٣) ،
ولمن والى الله ولياً ، ولسانه في الآخرين لسان صدق علياً . صلى الله عليه
وعلى آله بكرة وعشياً وسلم تسليماً .

أيها الناس ان نعم الله آلفة من شكرها فعملها ، نادة صادقة عمن
أسامها فأعملها . (٤) ولقد أنعم الله عليكم نعماً شيد بآخرها أولها ، وأكد
بتفصيلها جملها ، من فتوح سبيلكم وسهولها ، ومغانم أفاءها عليكم
فأجزلها ، ووقائع فتح بها من سبل الجهاد مقفلها ، ومعارك شفى بها من
النفوس غللها . (٥) أمدكم فيها بمعونته صبراً ونصراً ، وأمكنكم من نواصي
الكفرة قتلاً وأسراً ، فأصبحت ربق الأسارى أعناق الزرور والبطارق (٦) ،
وأحكامكم نافذة في أعزاء الدماشق (٧) ، ورهبتكم مشتتة جموع الفيالق .
وذكركم شائعاً في أقطار المغارب والمشارق ، وأسمائكم مثبتة في جرائد أهل
الحقائق . وفخركم خالداً خلود الراسيات الشواهد . وأنتم تعلمون أنكم
لم تستوجبوا ذلك بأعمالكم . ولم يجر مثاله في طرق آمالكم . بدأ بالنعمة عليكم
قبل استحقاقها . وحكم سيوفكم في قتل الأعداء وأعناقها . أكان من حق
من خصكم بشهر الصبر ، وآثركم بجليل الفتح والنصر . ووعدكم على صيامة

٣ - الحفي : البار للمعين

٤ - عقلها أو ربطها

٥ - الغلة : حرارة القلب

٦ - جمع بطريق Patrician - من القاب الشرف البيزنطية

٧ - الدماشق ج . دمستق Domesticus

جزيل الثواب والأجر . ان قابلتم نعم الله في صبيحة يوم العطر . بالاعتكاف على شرب خبيث الخمر . من بعد ما خالفتم أمره فيما أمر واستحللتم ما حرم عليكم وحظر . فجعلتم حل الغنيمة دولة تنهب . وغـلـولـا يغتصب . وظهر حرام يرتكب . لا يحاذر الله فيه ولا يرتقب . اجترأ على الله واغتراراً بستر السلامة كأنكم لم تسمعوا قوله تعالى «ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة» فدونكوها حلالة ورد سيمر صدره . وتجرع صفو سيمم كدره (٨) وقعب حلاب سيندم حاله (٩) . وحميد أمر ستمم عواقبه . فالله الله عباد الله أن تخربوا قواعد النعم بمعاول العصيان . أو أن تعرضوا مصونات الحرم للهتك والهلوان . أو تؤثروا دار الخواف على دار الأمان . فيحوز عليكم عدوكم قصبـات السبـق يوم الرهان . فما قلت فئمة كان تقوى الله شعارها . ولا قلت عصبة والملائكة أنصارها ولا أنحمر ثقال رحي على الحق مدارها (١٠) ولا فسدت تدابير أقوام اذا صلحت أسرارها .

فالآن بادروا قبل وقوع النكر . وليظهر الاقلاع فيكم من المأمور والامير . وارهبوا أعداء الله بمواصلة التشمير . فقد تفرى غسق الليل عن الصبيح المنير . (١١) ورمى الله أعداءكم بالنآد العنقير (١٢) ونادى منادى الحق فيهم بالثبات والتدمير . فعليكم أيها الناس بتقوى الله فإنها أوكد الأسباب

٨ - الورد : الماء يورد عليه

٩ - القعب : اناء نظيف بحلب فيه

١٠ - النقال : جلد يبيسط تحت الرحي ليسقط عليه الدقيق ، الحمر يعنى انقصر -

والمن الذى يقصده ابن نياته أن يقال رحي الحق لا ينالها أذى

١١ - تفرى الليل : انكشف

١٢ - النآد : الداهية ، العنقير أى الداهية كذلك

واطلبوا ثأركم من عدوكم أشد الطلب . وأعملوا في الجهاد بما نزل به
حكم الكتاب . « وإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . وإياكم
والإشتغال عن أخذائكم بغلول الأسلوب (١٣) فإن الغلول منذر بسوء
الحساب . والنكوص عند اللقاء على الأعقاب . (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا
منكم خاصة وأعلموا أن الله شديد العقاب .) جعلنا الله وإياكم ممن شرح
بالتقوى صدره . وطهر من الريب فكره وأسبل عليه في الدنيا والآخرة
ستره . وأدام على أعدائه وأعداء المسلمين نصره ، أن أنور قلائد الكلام .
وأكبر فوائد الفهم كلام مخرج الموجود من العدم وتقرأ سواء منكم من أسر
القول وجهر بالآية .

المحقق الابع

القصيدۃ « الفريدة الاسلامية » لابن حزم

مؤلف هذه القصيدة هو ابن حزم الظاهري الأندلسي الذي كان من كبار علماء المسلمين ومفكرينهم. وكان مولده سنة ٣٨٤ ومات سنة ٤٥٦ هـ (٩٩٤ - ١٠٦٤ م). أى أنه عاصر جزءا من حركة الهجوم البيزنطي على الشرق الأدنى الإسلامي الذي امتد من النصف الثاني من القرن العاشر إلى الجزء الأول من القرن الحادي عشر الميلادي. وكان ابن حزم على علم بأحداث الصراع بين المسلمين والبيزنطيين في هذه الحقبة من التاريخ . والدافع الذي جعله يؤلف القصيدة التي عرفت بالفريدة الإسلامية ، كان اطلاع على الرسالة التاريخية الهامة التي وجهها الامبراطور نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسي المطيع حوالي سنة ٩٦٤ م ، تلك الرسالة التي كانت على شكل القصيدة التي اشتهرت باسم « القصيدة الأرمينية » . فلقد تباهى امبراطور القسطنطينية في هذه الرسالة بما أحرزه البيزنطيون من انتصارات وما استولى عليه من بلاد المسلمين ، كما هدد بمواصلة الهجوم والاستيلاء على بيت المقدس والشام بأكملها ، وكذلك سائر البلاد التي كانت فيما مضى ولايات خاضعة للامبراطورية البيزنطية . وفضلا عن ذلك فقد أُنذر بالهجوم على شبه الجزيرة العربية ، وهدد بإقامة عرش للمسيح في مكة . هذا إلى جانب تهديده بالاستيلاء على العراق وعاصمتها ، وكذلك انتزاع البلاد التي تلي العراق شرقا . هذا وتعرض بالإهانة للخليفة العباسي ، وحاول أن ينال من الدين الإسلامي والرسول (صلعم) . وقد حملت القصيدة الأرمينية

روحاً صليبية واضحة ، ويظهر فيها مجلاء أن غرض نقفور كان نصره المسيحية وتحقيق مجدها وهدم قوى الاسلام والمسلمين .

وقام ابن حزم بتأليف قصيدته لارد على ما جاء في القصيدة الأرمينية . وقد عرفها ابن كثير باسم « الفريدة الإسلامية » . والسبب في اطلاق هذا الاسم ، هو أن ابن كثير كما ذكر ، لم يعرف من المسلمين شخصاً آخر قام بالرد على القصيدة الأرمينية . وهو لم يحط عاماً بالقصيدة الأخرى الهامة التي نظمها في نفس الموضوع الامام القفال الشاشي ، المعروف بالقفال الكبير الذي مات ٣٦٥ هـ (٩٧٥ - ٩٧٦ م) . (١) والفريدة الاسلامية قصيدة طويلة تتكون من نحو مائة وثلاثين بيتاً ، ولها أهمية خاصة في دراسة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، من حيث أنها تصور موقف المسلمين من الخطر والعدوان البيزنطي . فبالرغم من تناول البيزنطيين على عدد من البلاد الاسلامية واستيلائهم عليها ، وكذلك بالرغم من التهديد والتحدى الذي جاء في القصيدة الأرمينية ، فإننا نستطيع أن نتبين فيما تركه ابن حزم ، كيف أن المسلمين كانوا بعيدين عن التخاذل أمام البيزنطيين وأنهم كانوا يشعرون بقوة كيانهم ، ويعتزون بالمجاد السابقة التي حققوها على حساب البيزنطيين أثناء حركه الفتوحات الإسلامية الكبرى . فقد عدد ابن حزم في قصيدته انتصارات المسلمين السابقة على البيزنطيين ، وما استولوا عليه من بلادهم وإجبار البيزنطيين على دفع الجزية لهم . هذا وعمد ابن حزم كذلك للحط من شأن الهجوم الذي قام به البيزنطيون في عهد الأسرة

١ - انظر النص الكامل لقصيدة القفال الشاشي في : تاج الدين السبكي . طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ ، ص ١٨١ - ص ١٨٤ - ارجع كذلك الى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١١ - وقد أدرج د . ابراهيم المدوي بعض أبيات القصيدة المذكورة في ملاحق كتابه : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ١٨٨

المقدونية ، ناظرآ اليه على أنه مسألة ثانوية لم تمس قلب العالم الاسلامى ولم تهدد كيانه . وبلغ من اعتزازه بقوة المسلمين أن هدد البيزنطيين بقيام هجوم اسلامى ضد بلادهم والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية ، هذا الأمل الذى كثيراً ما دأب أفكار المسلمين ، والذى تمكنوا من تحقيقه فى نهاية الأمر على أيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م . وتصدى ابن حزم كذلك للدفاع عن الدين الاسلامى والنبي محمد ، كما قام بمواجهة عقيدة البيزنطيين الدينية وانحرافهم فى اتباع تعاليم السيد المسيح . وإن الصورة التى يخرج بها المتمعن فى دراسة القصيدة الفريدة الإسلامية ، هى أنه بالرغم مما قام به البيزنطيون من هجوم كبير ، ذلك الذى يمثل ذروة الخطر البيزنطى ضد المسلمين فى العصور الوسطى ، فقد أبقى المسلمون على اعتزازهم بقوتهم وماضيهم المجيد ، ويقينهم بقدرتهم على مواجهة البيزنطيين .

وقد حفظنا هذه القصيدة كل من ابن كثير والسبكي . (٢) والملاحظ وجـود بعض الاختلاف فى رواية كل منهما ، والظاهر أن كلا من ابن كثير والسبكي روى القصيدة عن مصدر مختلف . وعلى كل حال ، فسوف نعرض فيما يلى مختارات من هذه القصيدة ، وهى منقولة عن كتاب البداية والنهاية لابن كثير ، بدون أى تعليق أو تصحيح لغوى . والمرجـو أن يقوم أحد المختصين بدراسة تاريخ الأدب العربى بنشر القصيدة بعد تصحيحها وتصويب ألفاظها :

٢ - ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٤٧ - ص ٢٥٢ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٨٤ - ص ١٨٩

من المحتفى لله رب العالمين
 محمد الهادي إلى الله بالتقى . . . وبالرشد والاسلام أفضل قائم
 عليه من الله السلام مرددا . . . إلى أن يوافي الحشر كل العالمين
 إلى قائل بالافك جهلا وضلة . . . عن النقفور المفتري في الأماجم

.

وثبتتم على أطرافنا عند ذاكم . . . وثوب لصوص عند غفلة نائم
 ألم تنتزع منكم بأعظم قوة . . . جميع بلاد الشام ضربة لازم
 ومصر وأرض القيروان بأسرها . . . وأندلسا قسرا بضرب الجماجم
 ألم تنتزع منكم على ضعف حالنا . . . صقلية في بحرها المتلاطم
 مشاهد تقديساتكم وبيوتها . . . لنا وبأيدينا على رغم راغم
 أما بيت لحم والقمامة بعدها . . . بأيدي رجال المسلمين الأعانم

.

أليس يزيد حل وسطا دياركم . . . على باب قسطنطينية بالصوارم
 ومسألة قد داسها بعد ذاكم . . . بجيش تهاجم قد دوى بالضراعم
 وأخدمكم بالذل مسجدنا الذي . . . بني فيكم في عصره المتقادم
 إلى جنب قصر الملك من دار مليكم . . . ألا هذه حق صرامة صارم
 وأدى هارون الرشيد مليكم . . . وفادة مغلوب وجزية غارم

.

فهل سرتهم في أرضنا قط جمعة . . . أبي الله ذاكم يا بقايا الهزائم
 فما لكم إلا الأماني وحدها . . . بضائع نوكي تلك أحلام نائم

.

بأبنا بنى حمدان وكافور صلتم .: أراذل أنجاس قصار المعاصم
دعى وحججهم سطوتهم عليهم .: وما قدر مصاص دماء المحاجم

.

ولكن سلوا عنا هرقلًا ومن خلى .: لكم من ملوك مكرمين قواقم
يخبركم عنا التذوخ وقيصر .: وكم قد سبينا من نساء كراثم
وعما فتحنا من منيع بلادكم .: وعما أقننا فيكم من مآثم

.

رويداً فوعده الله بالصدق وارد .: بتجريع أهل الكفر طعم العالقم
سنتفتح قسطنطينية وذواتها .: ونجعلكم فوق النصور القعاشم
ونملك أقصى أرضكم وبلادكم .: ونلزمكم ذل الحر أو الغارم
الى أن ترى الاسلام قد عم حكمه .: بجميع الأراضى بالجيوش الصوارم
أقهرن ياخذول ديننا مثلثا .: بعيننا عن المعقول بادي المآثم
تدين الخلق يدين لغيره .: فيالك سحرة ليس يخفى لعالم
أنا جيلكم مصنوعة قد تشابهت .: كلام الأولى فيهم اتوا بالعظام
وعود صليب ما تزالون سجداً .: له ياعقول الهاملات السوائم
تدينون تمثالا بصلب الهكم .: بأيدي يهود أرذلين لآثم
الى ملك الاسلام توحيد ربنا .: فما دين ذى دين لها بمقاوم
وصدق رسالات الذى جاء بالهدى .: محمد الآتى برفع المظالم
وأذعنت الأملاك طوعاً لدينه .: بيرهان صدق ظاهر فى المواسم

.

وحاباه بالنصر المكين إلهه .°. وصير من عاداه تحت المناسم
فتير وحيد لم تعنه عشيرة .°. لا دافعـو عنه شتيمة شاتم
ولا عنده مال عتيـد لناصر .°. ولا دفعـم مرهوب ولا لمسالـم
ولا وعد الأنصار مالا يخصهم .°. بلى كان معصوم لأقـدر عاصم
ولم تنهـم هـ قط قوة أسر .°. ولا مكنت من جسمه يد ظالم
كما يفترى إفـكا وزورا وضلة .°. على وجهه عيسى منكم كل لا طم
على أنفسكم قلتـموا هـو ربكم .°. فيا اضلال فى القيام عام
ابى الله أن يدعى له ابن وصاحب .°. ستلقى دعاة الكفر حالة نادم
والكنه عند نبي رسول مكرم .°. من الناس مخلوق ولا قول زاعم

.

المحلق الخامس

رسالة الخليفة العباسى المطيع إلى ركن الدولة

هذه الرسالة تعتبر من الوثائق الرسمية النادرة التى وصلت إلى أيدينا عن الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد الامبراطور تيمسكس . وكاتب هذه الرسالة هو أبو اسحق ابراهيم بن هلال الصابى الحرانى (٣٢٠ - ٣٨٤ هـ) . وهو من أشهر رجال الأدب فى عصره . وقد وصفه الشعابى بأنه : « أوحى المراق فى البلاغة ، ومن به تشبى الخناجر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلاوغ الغاية من البراعة والصناعة . » ^(١) وتقلد الصابى ديوان الرسائل فى بغداد منذ سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ - ٩٦١) وعمل فى خدمة كل من معز الدولة بن بويه ثم ابنه عز الدولة بختيار كما كان عليه بطبيعة الحال أن يخدم الخليفة العباسى .

وكتب الصابى الرسالة المذكورة بناء على طلب الخليفة العباسى المطيع إلى ركن الدولة البويهى أمير أصبهان والرى وهمذان (٣٣٠ - ٣٦٦ هـ) . وهو عم عز الدولة بختيار ، وكان يتمتع بمكانة كبيرة بين الأمراء البويهيين أثناء حياته . وكان المطيع أراد أن يزف إلى ركن الدولة بشرى انتصار المسلمين على البيزنطيين وأسر الدمستق ملىح فى موقعة ٤ يوليو ٩٦٣ م (٣٦٢ هـ) .

ولهذه الرسالة أهمية كبيرة فى دراسة تلك الحقبة التاريخية التى نتحدث

١ - سالتعالى : يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣١٨ (القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م)

عنها فإنها تساعدنا في التعرف على رد الفعل الذي قام في عاصمة الدولة العباسية نتيجة التهديد البيزنطيين للجزيرة وهجبتهم على هذه البلاد ، وموقف المسئولين في بغداد من ذلك . ولكن الملاحظ أن الصابي عمد إلى المبالغة في تصوير اهتمام الخليفة المطيع ، وكذلك الدور الذي قام به بختيار لنجدة المسلمين ضد الروم وما قدماء من مساعدة في هذا الصدد ، على عكس ما هو معروف عن حقيقة كل منهما . فإن المطيع كان مغلوباً على أمره في بغداد في ذلك الحين شأنه في ذلك شأن غيره من الخلفاء العباسيين الذين حكموا تحت سيطرة بني بويه . وكانت سلطته إسمية إلى حد كبير . وفي نفس الوقت فالمعروف عن بختيار إنصرافه إلى مشاكله المحلية مع الأمراء المسلمين عن الجهاد ضد الروم ، الأمر الذي عرضه للانتقاد من جانب المسلمين . بل ويذكر المؤرخ مسكويه أن بختيار لما راسل أبا تغلب الحمداني أمير الموصل يعالجه بعزمه على جهاد الروم ويأمره بأعداد مايلزم من الزاد والعلوفة ما يحتاج إليه جيشه قد أجابه الأخير إلى طلبه بالرغم من علم أبي تغلب أن بختيار « لا يفى بوعده ولا وعيده ، وأنه يقول ولا يفعل » (٢)

والواقع أن الذي دفع الصابي إلى المبالغة على النحو المشار إليه هو رغبته في أن يكسب كلا من الطائعين وبختيار مجداً ومنفعة ، والدعاية لهما في العالم الاسلامي وخاصة في المشرق . ذلك أن القيام لنجدة المسلمين والجهاد في سبيل الله ضد البيزنطيين كان أمراً واجباً على الحكام أمام الرأي العام الاسلامي . وإن هذه الطريقة التي كتب بها الصابي الرسالة المذكورة والتي يتضح فيها عنصر المبالغة ، كانت مسألة يفرضها عليه منصبه في ديوان

٢ - مسكويه ج ٢ ص ٢٠٤ ، انظر ما سبق عن موقف بختيار من الجهاد ضد
ص ١٣٣-١٣٥

الرسائل . وقد أعترف الصابى نفسه بما تقضيه الضرورة من الكتابة بما يخالف الواقع فى بعض الظروف . فعندما سئل فى إحدى المناسبات عما كان يكتبه أجاب « أباطيل أنعمها وأكاذيب ألقها ! »^(٣)

ومما يكن من أمر، فإن الرسالة المذكورة إلى جانب ما تذكره عن رد العمل الذى قام فى عاصمة الدولة العباسية نتيجة لهجوم البيزنطيين على شمال العراق ، فهى تمدنا كذلك بمعلومات لها أهميتها عن تلك المرحلة من الحروب التى قامت بين البيزنطيين تحت إمرة الدمستق مليح والمسلمين فى إقليم الجزيرة . وتساعدنا بهذا الشكل على رسم صورة لما حدث .

ولقد سبق وأشرنا إلى بعض ما جاء فى هذه الرسالة أثناء عرضنا لحالة الخلافة العباسية والحرب بين المسلمين والدمستق ، هذا وقد أضفنا هنا إلى نص الرسالة من الحواشى ما يلزم لزيادة إيضاح معناها وتقدير قيمتها التاريخية .

نص الرسالة^(٤)

أما بعد فالحمد لله ذى المنه والطول ، والقدرة والحول ، والغلبة والصول ، المنفرد بكبريائه ، المنعم على أوليائه ، المنتقم من أعدائه ، رافع الحق ومعليه وقامع الباطل ومرديه ، ومعز الدين ومديله ومذل الكفر ومذيله ، المنزل رحمته على من جاهد فى طاعته ، المحل سطوته بمن جاهد بمعصيته ، المتكفل بتأييد حربه حتى يظفر ، وخذلان حربه حتى يدحر ، الذى لا يفوته الهارب ، ولا ينجو منه الموارب ولا يعييه المعضل ولا يعجزه المشكل ،

٣ - النعماني : بتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٢١ - ص ٢٢٢

٤ - هذه الرسالة منقولة عن « المختار من رسائل الصابى » ت . شكيب ارسلان .

ط لبنان سنة ١٨٩٨ ، ج ١ ص ٤٣ - ص ٥١

ولا تبهظه الأشغال ولا تؤوده الاثقال ، الواحد الذى لا شريك له ، الفـرد الذى لا قرين معه ، الغنى الممتقر اليه ، القوى المعتمد عليه . بالغ أمره بلا مؤازر وممضى حكمه بلا مظاهر : ذلك الله ربكم فأدعوه مخلصين له الدين . والحمد لله الذى إختار لنا الاسلام ديناً وآثره وأظهره على الدين كله ونصره وشرعه شرعاً لا يندسخ وعقده عقداً لا يفسخ وجعله حقاً لا يدحض ، وأمره امراراً لا ينقض ، وقصى له بعز المرافقين وذل المناققين وظهور المعاضدين وثبور المعاندين ، واصطفى محمداً صلى الله عليه من أكرم المناسب ، واجتباها من أشرف المحائد والمناصب ، واستخلصه من أسرة هاشم ، وفضله على جميع بنى آدم ، وأيده بالملائكة المقربين وبعثه رسولا إلى العالمين ، فأدى أمانة ربه مخلصاً وصدع برسالاته مبلغاً مخلصاً ، وأستنقذ هذه الأمة من الغواية ، وعرفها طرق الهداية وسلك بها سواء المحجة ودعاها إلى الحق بأوضح حجة ، وعدل بها عن عبادة الأوثان إلى طاعة الرحمن وعن دين الشيطان إلى أرشد الأديان فأصبح الناس على التعاطف والائتلاف عاكفين ، وعن التهارج والاختلاف عازفين ، اخواناً فى ذات الله متوازين وأقراناً فى السعى لرضاه منضافرين ، يرمون أعدائهم عن يد وساعد ويرصدون لهم أرصاد رجل واحد ، نعمة من الله أسبغها عليهم وموهبة أزلها اليهم ، إذ يقول جل جلاله وعظمت كبرياؤه : وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .

والحمد لله الذى برأ أمير المؤمنين من شجرة النبوة الطيب وذراه من عنصرها الخالص المذهب وحياء بفضيلة الأمانة ورداه رداء الكرامة وبوأه منازل أسلافه الطيبين وحاز لهم موارِيثهم أجمعين ، وأهله لمظلم ما استرعاه

وأعانه على الاستقلال بما استكفاه ، وافترض طاعته على عباده وخلقه وأنفضه
فيهم بتأدية وأجبه وحقه ، واختصه بأمد في الخلافة أطاله ، ومدى فات به
نظراءه وأشكاله ، وحجب اليه جواد العدل المنجية وجتبه عوادل الجور المردية .
فالدعاء بسيادته ساكنة والرعية برعايته آمنة ، والفتوح في أيامه متصلة
متقاطرة ، والغنائم على المسلمين ببركته دارة متواترة . وقد كنفه الله منذ
منحه فضيلة هذه الآلاء ، وحمله أوق هذه الأعباء منك كلاك الله ومن
ذوبك وولدك وولد أخيك بركن لدولته (٥) لا يتزعزع ولا يتضعضم ،
وعضد (٦) لا يفت فيه ولا توطأ نواحيه ، وعز (٧) لا يضام ولا يرام ،
ومؤيد (٨) لا يعجز ولا ينكل ، وعمدة (٩) لا يضعف ولا يرام ولا يفسل .
فرايات أمير المؤمنين أين توجهتم بها منصوره وجيوشه أنى صرفتموها
ظافرة . وفورة . وعوائد الله عليه بكم وعلى أيديكم جارية وفوائده اليه
ببركتكم ويمنكم متوافية . وأنت حفظ الله النعمة فيك سند (١٠) تلك
الأرومة (١١) وعظيمها وعميد تلك الجرثومة وزعيمها ، قد أنبت خطيها (١٢)
وقوم أغض أنها تخريجك ، وتشعبت شعبها من أصولك أحتذت فروعها على

٥ - يقصد ركن الدولة البويهي .

٦ - المشار اليه هو عضد الدولة بن ركن الدولة .

٧ - أى عز الدولة بختيار .

٨ - يقصد مؤيد الدولة أخو عضد الدولة .

٩ - أى عمدة الدولة أخو بختيار .

١٠ - السند : الأصل .

١١ - أصل الشجرة .

١٢ - الخط : سيف البحرين وعمان .

تمثيلك وناب عز الدولة أبو منصور ، مولى أمير المؤمنين أمتع الله به عنك
 حرس الله فيك النعمة وعين شيخه معز الدولة أبي الحسين تولاه الله بأوسع
 الرحمة ، أتم نيابة وأوقاها ، وخدم أمير المؤمنين في مهمه أوز ، خدمة
 وأشفاها ، لا يذخره نصحاء ولا يألوه جهداً في ضبط الثغور وسدّها ، ورم
 الأمور وشدها ، وترتيب الأحرار بمراكزها وتسريب البعث في مقاصدها
 ومجاهدة الكفار ومناضلة الأعداء ومدافعتها وإصلاح البلاد وعمارتها
 ورعاية الرعية وسياستها ، بسافر رأيه وهو دان لم يبرح ويسير تدبيره وهو
 ثاو لم ينزح ، يتناول المعالي بصائب حزمه ويفترع الهضاب ببعيد
 همه ، ويصيب الأغراض بصائب سهمه ، ويطبق المفاسل بصواب عزمه .
 والله يمتع أمير المؤمنين بك وبه ، ويدافع له عنك وعنّه ، فقد أرقدتما
 طرفه بيقظتكما وأرغدتما عيشة بحفظكما ، ووصلتما أيام دعوته بدأبكما ، واطلتما
 زمان راحته بنصيبكما ، ولا يخليه فيكما وفي أهليكما من نعمة يعتدها الأولى
 من نعمة عليه ومنحة يعتدها العظمى من منحة لديه بلطفه وعطفه
 وجوده ومجده .

وقد عرفت ، أحسن الله الولاية فيك ، ما كان من عظيم الروم (١٢) لما
 تناول بواسط مقام عز الدولة أبي منصور مولى أمير المؤمنين رعاة الله ،
 وثقته ببعد المسافة على أبي تغلب فضل الله بن ناصر الدولة عامل أمير
 المؤمنين ، في الاستصراخ والاستجناد ، وطول الشقة في الاستنصار
 والاستمداد ، وانتهازه هذه الفرصة واهتباله هذه الغرة ، ومسيرة في العدد
 الجم من الكفار وتناهيه في الاحتشاد والاستكثار ، وتوغلة في دار الاسلام

١٢ - يقصد بعظيم الروم الامبراطور البيزنطى تزيكس ، وكان هذا المظ
 هذه المسلمين قاصرا في استعماله على الاشارة الى امبراطور القسطنطينية .

إلى نصيبين ، وإيقاعه ونكايته بمن بها من المسلمين والمعاهدين (١٤) ووردت في أثر ذلك كتب أبي تغلب إلى أمير المؤمنين وإلى عز الدولة مولاه حفظه الله وتولاه ، بشكوى ما نزل به وحل بساحته ، والتماس مدد يزيد في عدته ومنته ، فأهم أمير المؤمنين ما ورد منه طويلاً وأقلقه شديداً ، وبعثه على استقدام عز الدولة ، كلاًه الله والعجوش التي برسمه ، نصره الله ، فثنى عنانه اليها مسرعاً مبادراً ولبي دعوته بحجبا مثابراً ، وعاد إلى مكانه من الخدمة ومقره من الحضرة ، وأمثل أمراً أمير المؤمنين في إنجاد أبي تغلب بجمع كثيف من الرجال الذين يصلحون للقاء الروم وبالأبطال المختارة من طوائف الأعراب والأكراد . فتوافقت هذه الجموع إليه وتكاثرت لديه ، واتفق والمجردون من الحضرة على استنفاد الوسم والنصرة ، وتوكلوا جميعاً على رب العالمين واستنجدوا بشعار أمير المؤمنين وأثروا في الطغاة الكفرة والبلغاة الفجرة أثراً بعد أثر ، وظفروا بهم ظفراً بعد ظفر ، إلى أن ختم الله بورد الكتب مقتصاً فيها حال غزاة بعض أصحابنا بنواحي موش وطرون (١٥) وأنهم وردوا منها بلاداً قد اغتر أهلها بوعودة مسالكهم وخشونة مناهجها وظنوا أن الأمد في بلوغها بعيد والوصول إليها شاق وشديد فأدال الله منهم وجعل الدائر عليهم ، فملكوا قسراً وقهراً وبوانغ فيهم قتلاً وأسراً ، وأمتلأت أيدي المسلمين من السبى والرحال والدواب والبغال والأموال والأثقال والغنائم والأنفال .

وانصرفوا غانمين سالمين والحمد لله حمد الشاكرين . وإن عسكرياً لأعداء الله خرج مع عدة من عظمائهم المعروفين بالزراورة إلى حصن المسلمين

١٤ - للمعاهدين هم أهل الذمة — الإشارة هنا إلى حملة نزيحسكس الأولى على

الجزيرة سنة ٩٧٢ م . (هـ) أنظر ما سبق من ١٢٨ - ١٣١

١٥ - من البلاد الأرمنية .

ببدليس وسفيرام كان قد شحن بمن يحميه ورتب فيه من الرجال من يكفيه، فلما نازلوه واستحكم طمعهم فيما حاولوه، نهك (١٦) لهم جميع أولئك الرجال واستعانوا بالله ذى الجلال، فرزقهم النصر عليهم وقتلوا عدداً يفوت الإحصاء منهم، والله الطول ومنه العون .

وتواترت بعد ذلك على أبي تغلب والمنفذين إليه أخبار عسكر ببطان هنريط ونواحيه وممبير الفرات وما يليه، وذكر كثرة عدده وعدده، وعظم حشده ومدده، فأنفذ أخاه هبة لله بن ناصر الدولة في معظم الرجال الذين أمد بهم عز الدولة رحمه الله، إذ كانوا أقوى تلك الطوائف المجتمعة لديه وأولاهها بعائدة النصر والظفر عليه، وفيمن انضوى اليهم من قبائل الأعراب وصناديدها وفتاك الأكراد وصعاليكها . رساروا بصدور منشرة وآمال منفسحة، ووردوا ظاهر آمد يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة، فعرفوا صحة خبر الدمستق لعنه الله، وحصوله على أفواه الدروب في خمسين ألف رجل منهم عشرون ألفاً من المدججة وذوى المراتب المقدمة . وتلوم (١٧) أصحابنا بها يريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال ومرة تحجم بهم الأوجال، ثم تدانى الفريقان والتقت حلقتا البطان (١٨) في يوم الجمعة الذي ختم الله به شهر الصيام وحتم فيه بالظهور للإسلام، فثبت الطغاة اغتراراً بوفور عددهم ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفر، وأخذ الأولياء منهم بالخنق

١٦ - نهض وقام .

١٧ - ناخر .

١٨ - البطان : الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير — يقال التقت حلقتا البطان الامر، اذا اشتد .

وصدقوهم القتال في المعترك الضيق . فلما استعرت الملقمة وعلت الغمضة ودارت رحي الحرب واستبحر الطعن والضرب ، واشتجرت سمر الرماح وتصافحت بيض الصنماح ، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور ، وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على أقدامهم مجدين في الهزيمة واعتدوا الحشاشات (١٩) لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة ، واستلحمتهم السيوف واحتكت فيهم الختوف ، وأخذ المسلمون منهم الدار وعجل الله بأرواحهم إلى النار ، وأسر بعد قتل ألوف منهم في المعركة الدمستق رئيس عساكرهم وقائدها ومدير حروبهم ومرتبها ، وما أخذ المسلمون قبله دمستقا ، وذلك من غرائب النعم التي بانَتْ وتوالت في أيام أمير المؤمنين طلقا ونسقا ، وحصل معه المعروف بابن البانطس وهو طريده (٢٠) في الرئاسة ورسيلة في السياسة ، وجماعة من البطارقة والزراورة والأراخنة والطراخنة ، قد أذهم الله بوثائق الأسر ، وأذاقهم وبال الكفر ، وأفاء على أوليائه الصالحين من الخليل والسواد والأسلحة والأسلاب ، ما ازدادت به قوتهم واشتدت معه شوكتهم .

وإنبسط أهل الثغور في جميع غلاتهم مستبشرين وانتشروا في مسالكهم ومعايشهم آمنين مطمئنين ونفذ كتاب أمير المؤمنين إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة وكتاب عز الدولة أبي منصور قولاه الله اليه وإلى من كان أنجده بهم ، بالاحماد على ما هم له سالف والإرشاد إلى ما يعملونه آتفا ، وأن يتناهاوا في التوثق من عدو الله الدمستق ومن قرينه ابن البانطس والوجوه المأخوذين معها المأسورين بأسرها وانفذاذ رؤوس من قتل من الأكابر دون من

١٩ - الحشاشات : بقية الروح .

٢٠ - أي ثانية أو من يلقب .

يفوت الاحصاء من الأصاغر ، ففعلوا ذلك ، وورد مدينة السلام من هذه
الرؤوس العدد الكثير الذى املات به العيون قرّة والصدور شفاء ومسرة .
فالحمد لله الذى أنجز وعده وأعز جنده وجعل رايات أمير المؤمنين منصورة
وعداته مقهورة ، وهو المسؤول تمام ما أسدى من عارفة ومنه واسباغ
ما أولى من موهبة ونعمة . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتأخذ حفظك الله
بحظك الوافير منه وتضرب بسهمك الفائز فيه ، اذ كان نتيجة تدبير عز الدولة
أمتع الله ببقائه الذى فضله منسوب اليك وجهال أثره عائد عليك ، ولتتقدم
بإشاعته وإذاعته والتحدث به وإفاضته والكتاب بشرحه إلى الأعمال التى
تليك والأطراف المتصلة بنواحيك ، فيشارك الخصاص والعام فى الجذل به
ويستوى القاصى والدانى فى الابتهاج له ان شاء الله .

ب - دراسات وتحقيقات متنوعة

الملحق السادس

تحقيق سنة انتصار تيمسكس على الروس

ان تحقيق السنة التي تغلب فيها الامبراطور تيمسكس على خطر الروس وأجبر أميرهم فيها على عقد اتفاقية سلمتراً ، له أهمية خاصة بالنسبة لتحديد بداية هجوم تيمسكس على الشرق الأدنى الإسلامي. والملاحظ أن المؤرخين المحدثين اختلفوا في تحديد هذه السنة . إذ يرى بعضهم أن استسلام سفياتوسلاف وعقد الاتفاقية المذكورة كان في أواخر شهر يوليو ٩٧٢ م . ومن أصحاب هذا الرأي شلوميرجيه والعريني وأسد رستم . (١) ولكن ترى جماعة أخرى من الباحثين المحدثين أن هذه الاتفاقية تمت قبل التاريخ المذكور بسنة ، أي في يوليو ٩٧١ م . ومن أصحاب هذا الرأي دولجر وأستروجورسكي وبريه . (٢) ومما جعل أستروجورسكي يؤكد هذا التاريخ (٩٧١ م) الذي حدده دولجر ، ما جاء في الحولية الروسية التي اعتمد عليها في دراسته ، والتي وصفت أحداث الحرب البيزنطية

١ — شلوميرجيه ص ١٢٢ ، ص ٩٤٧ ، السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٤٦٣ — ص ٤٦٦ ، أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٤٧ .

2) Ostrogorsky. p 262 n. 2; Bréhier, Vie et Mort de Byzance, pp. 206-09; Dolger, "Die Chronologie des grossen Feldzuges des Kaisers Johannes Izmiscs gegen Russen", Byzantinische Zeitschrift, Leipzig (1938), 232 ff.

الروسية. ونحن نرى أن هذا التاريخ هو الأرجح . فإنه أصبح من الثابت لدينا الآن ، أن تزيمسكس قد بدأ حملاته على شمال العراق في خريف ٩٧٢م. وكان من المتعذر أو المستحيل ، إذا سلمنا بالرأى الأول أن ينتقل تزيمسكس فور انتهائه من محاربة الروس، مع ما تطلبه ذلك من عناء وامكانيات ، ويسير من وادى الدانوب إلى اقليم الجزيرة العراقية بهذه السرعة لمحاربة المسلمين مع ما اقتضاه ذلك من قوة عسكرية .

الملحق السابع

تحقيق اسم « إقليم أقور »

اطلق بعض الجغرافيين العرب على اقليم الجزيرة الواقع في شمال البلاد العراقية اسم أقور. فقد عرفه المقدسى باسم « إقليم أقور » ، كما أطلق عليه ياقوت « جزيرة أقور » . (١) وفي محاولة لتحقيق هذا الاسم ، قال لي سترانج ، أن أصله غير واضح ، ورجح أنه اسم أطلق على هذه البقاع في عصور سابقة . (٢) ونرى أن أقور لم يكن إلا تحريفاً لاسم « آشور » الذى كان يطلق على هذا الاقليم في العصور القديمة .

١ — المقدسى : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (طائفة ، دى غوية — ليدن ، ١٩٠٩ ، ص ١٢٦ ، ياقوت : معجم البلدان (ط . بيروت) ج ٢ ص ٢٣٨ ، ج ٦ ص ١٣٤ .

2) Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate (London 1908), p. 86.

الملحق الثامن

الزراور والزراورة

تردد ذكر هذه الرتبة أو المنصب البيزنطى فى عدة مواضع من المصادر العربية . فالى جانب اشارة الصابى اليه ، نجد أن المؤرخ كمال الدين بن العديم قد ذكر ، أثناء التحدث عن شروط الاتفاقية التى وقعت بين البيزنطيين وأمير حلب سنة ٣٥٩ هـ ، ما يأتى : « ومتى جاءت قافلة من الروم ، بقصد حلب يكتب الزروار للقيم فى الطرف إلى الأمير ويخبره بذلك ، لينفذ من يتسلمها ويوصلها إلى حلب . » ^(١) كما أشار ابن حوقل إلى الزراورة ، فى تفصيل المناصب والرتب البيزنطية ، وقال عنهم : « وهم كثرة لا يحصون كالتقواد اللاحقين بالامراء . » ^(٢)

وأرى أن الزروار هو نفس المنصب الذى عرف عند البيزنطيين باسم « Clisurarch » . ونستدل على ذلك بما يوجد من تقارب فى اللفظين وكذلك نوع اختصاص العمل . فإن الـ Clisurarch هو القائد الذى كان يحكم الوحدة الإدارية التى عرفت باسم « Clisura » ، وهذا الاسم يونانى الأصل ومعناه الدرب أو المعبر فى الجبل . وقد انتشر استعمال اسم Clisurarch فى العهد البيزنطى ، بمعنى حاكم احدى الولايات الحصينة الواقعة على الحدود ^(٣) ، وكثيرا

١ - كمال الدين بن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب (ت . الدمال) ج ١

ص ١٦٨ .

٢ - ابن حوقل : ج ١ ص ١٩٥ - ص ١٩٦ .

٣ - أنظر ما سبق ص ١٠

ما كان هذا الحاكم يشترك في عمليات الهجوم التي يقوم بها الجيش البيزنطى .

الملحق التاسع

الطراخنة

قال المؤرخ الفرنسى كانار أن الطراخنة جمع « مارخان » وهذا لقب تركى ويذكر هذا المؤرخ أن الصابى قد ألحقه بما سبقه من الألقاب البيزنطية من أجل الجنس . (١) ولكن لا أميل للأخذ بهذا رأى ، نظرا لما عرف عن العرب من الدقة في معرفة الرتب والمناصب البيزنطية والتمييز بينها . وأعتقد أن لفظ « الطراخنة » ما هو إلا تحريف لإحدى الرتب البيزنطية العسكرية التي ظهر حاملوها أثناء الحملات البيزنطية على الشرق وارجح أن الطراخنة هم « الطراخنة » الذين ذكرهم ابن حوقل أثناء حديثه عن الرتب والمناصب البيزنطية . وقد جعل ترتيبهم بعد الزاورة . وبما قاله في ذلك « ... الطراخنة وهم التناء وأرباب النعم من أهل القسطنطينية ، ومنهم يكون الارتماع إلى الزورة والبطرقة . » (٢) كما أرجح أن هؤلاء الطراخنة أو الطراخنة ، هم قادة كتائب جيوش « الثيمات » أو الأجناد الذين يعرفون باسم Turmarchs ، وكان هؤلاء من القادة العسكريين الذين اشتركوا في الحملات البيزنطية على الشرق الإسلامى . (٣)

١ - كانار ص ١٨٤٢ ، حاشية ٢٦١ .

٢ - ابن حوقل ج ١٩٥ ص ١٩٦ .

٣ - بشأن الـ Turmarchs أنظر ما سبق ص ١٣

الملحق العاشر

تحقيق رواية المؤرخ الارمني متى الرهوى عن « أميرة آمد الحمدانية »

كانت هذه الأميرة هي أخت « حمدان » بن ناصر الدولة ، حيث أنه لا يوجد في هذا الوقت من الامراء الحمدانيين من يعرف باسم « حمدون » كما ذكر متى الرهوى . والمـرجح أن هذا المؤرخ اختلط عليه الأمر بين حمدان وحمدون الجد الأكبر للحمدانيين . والأميرة الحمدانية التي ظهر اسمها في عصر هجوم تزيمسكس هي جميلة ، ابنة ناصر الدولة وأخت كل من حمدان وأبي تغلب أمير الموصل . ويظهر مما جاءت به المصادر العربية ، أن هذه الأميرة كان لها نشاطها في الأمور السياسية . فيذكر ابن الأزرق الفارقي أنها قامت بالاعداد للدفاع عن ميافارقين سنة ٣٦٢ هـ . ولكن لا يوجد في هذه المصادر ما يشير إلى أنها كانت في آمد وقت هجوم تزيمسكس على المدينة . (١) هذا ومن الصعب أن نسلم بما ذكره متى الرهوى عن وجود علاقة غرامية قديمة بين الأميرة وتزيمسكس ، اذ لم تكن التقاليد العربية أو الشريعة الاسلامية لتسمح بقيام مثل تلك العلاقة . ونحن نميل للاعتقاد بأن هذه الرواية كانت من نسيج الخيال ، وأنها كانت من قبل الروايات الخيالية التي ألفها الصليبيون بعد مجيئهم إلى الشرق منذ أخريات القرن الحادى عشر ، والتي أدعت وقوع أميرات مسلمات في هوى فرسانهم .

١ - متى الرهوى ص ١٢ ، ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٤ ، مسكويه ج ٢ ص ٢٥٤ .
ص ٢٥٥ ، ابن الأزرق الفارقي : تاريخ ميافارقين .

الملحق الحادى عشر

تحقيق اسم مدينة بلنياس

مدينة بلنياس أو Balanee التى جاءت فى خطاب الامبراطور
تريمسكس ، هى مدينة Balanaea المعروفة فى العصور القديمة . وتقع
هذه المدينة على ساحل البحر الأبيض فى شمال الشام بين مراقبة وجبله .
وقد عرفها عدد من الكتاب العرب فى العصور الوسطى باسم بلنياس ، أمثال
الجغرافيين ابن حوقل والمقدسى وياقوت الحموى . وقد قال عنها
الآخر أنها : كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص : « كما قال أنها
سميت باسم بلنياس صاحب كتاب الطلسمات (Appolonios) (١) »

ولكن عرفت بلنياس عند البعض الآخر من العرب باسم بانياس ، مثل
ابن الشحنة ويحيى الأنطاكي (٢) وكان ذلك تحريفا للاسم القديم
المعروف . وقد اتبع هذه التسمية الأخيرة (بانياس) بعض المؤرخين
المحدثين مثل جروسىيه وكانار : (٣) وفى هذه الحالة يجب التفرقة بين

١ - ياقوت الحموى : معجم البلدان (ط . بيروت ١٩٥٧) ج ٤ ص ٤٨٩ ،
ابن حوقل ج ١ ص ١٦٥ ، للتقدمى ص ١٥٤ .

٢ - ابن الشحنة الدر المنخب لى تاريخ مملكة حلب (بيروت ، ١٩٠٩
ص ٢١٧ ، ص ٢٦٧ ، يحيى الأنطاكي ص ١٤٦ .

٣ - انظر خريطة بلاد الشام للدرجة بكتاب كانار مقابل ص ٢٤٠ ، وكذلك
خريطة شمال الشام الملحق بآخر كتاب جروسىيه فى تاريخ الحروب الصليبية ،
ج ١ ارجع كذلك إلى :

R. Dussaud, Topographie Historique de Syrie Antique et
Médiévale. (paris, 1927)' pp. 127 - 29; F. Buhl, "Baniyas",
Encyclopaedie de l'Islam, vol. I, p. 664.

هذه المدينة والمدينة الأخرى الشهيرة المعروفة بمدينة بانياس التي تقع إلى الجنوب الغربي من دمشق ، وهي التي عرفت منذ العصور القديمة باسم (Paneas) . ونرى أنه من الأصح ، ومنعا للبس ، أن نطلق على مدينة Balanea الاسم المستعمل لدى الطائفة الأولى من الكتاب العرب وهو بانياس .

المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية بيت

ابن الأئمة : (على بن أحمد بن أبي الكرم)
الكامل في التاريخ . ط : أولى ، المطبعة الأزهرية المصرية . ج ٨
١٣٠١ هـ

ابراهيم الصابي : (أبو اسحق ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابي)
المختار من رسائل الصابي . ج ١ نشر وتعليق شكيب أرسلان .
ط . لبنان ١٨٩٨ هـ

الأدريسي : (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي)
نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان . روما ، ١٥٩٢ هـ

ابن الأزرق الفارقي : (أحمد بن يوسف بن علي)
تاريخ ميفارقين . نشر القسم الثاني منه بدوى عبد اللطيف عوض
تحت اسم : تاريخ الفارقي — القاهرة ١٩٥٩ . والقسم الأول
من الكتاب لا يزال على هيئة مخطوط بالمعهد البريطاني تحت
رقم Or 5803 - وتوجد نسخة «ميكرو فيلم» كاملة للمخطوط
محفوظة بمكتبة جامعة الدول العربية ، القاهرة ، باسم ملخص
تاريخ ميفارقين ، رقم ١٢٤٩ هـ

الأصفهاني : (أبو الفرج)
كتاب الاغانى — ٢١ جزءا — القاهرة ، ١٩٣٧ — ١٩٣٨ هـ

ابن أبي أصيبعة : (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزري)

عيون الانباء في طبقات الاطباء . جزآن — القاهرة ١٢٩٩ ،
١٣٠٠ هـ .

اوتينغا : (سعيد بن البطريق)
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق — بيروت ، ١٩٠٩ .
الثعالي : (أبو منصور عبد الملك)

يتيمة الدهر - أربعة أجزاء . القاهرة ، ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .
ابن الجوزي : (عبد الرحمن بن علي)
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم الهند ١٣٥٩ هـ .

ابن حوقل : (أبو القاسم ابن حوقل النهمي)
كتاب صورة الأرض ، جزآن . ط . ثانية . بريل ،
١٩٣٨ — ١٩٣٩ م .

ابن خردادبه : (أبو القاسم عميد بن عبد الله)
كتاب المسالك والممالك ، ط . دى غوية — لندن ١٨٨٩

ابن خلدون : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر
الشافعي) العبر وديوان المبتدأ والخبر - ٧ أجزاء - القاهرة ،
١٢٨٣ هـ .

ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبي بكر
الشافعي) وفيات الأعيان ، جزءان - بولاق ١٢٨٣ هـ .

ابن زولاق : (أبو محمد الحسن بن ابراهيم)
العيون الدعج في حلى بني طنج (نشره ابن سعد المغربي في كتاب

المغرب في حلى المغرب (ليدن ، ١٨٩٨ - ١٨٩٩ .

سبط الجوزى : (أبو المظفر بن قيزوغلى سبط الجوزى)
مرآة الزمان - مخطوط مصور بدار الكتب المصرية - رقم
٥٥١ تاريخه

السبكي (تاج الدين) : طبقات الشافعية الكبرى ط . أولى - المطبعة
الحسينية .

ابن الشحنة : (أبو الفضل محمد)
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - ط . بيروت ، ١٩٠٩ .

ابن شداد : (محمد بن ابراهيم بن شداد بن خليفة)
الأعلاق الخطيرة في تاريخ الشام والجزيرة . مخطوط . صورة
شمسية بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، رقم ٤٥ م

الطبري : (أبو جعفر محمد بن جرير)
تاريخ الأمم والملوك - ط . دى غوية - ليدن ، ١٨٨١ م

ابن ظافر : (جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر)
أخبار الدول المنقطعة . مخطوط بدار الكتب المصرية ، صورة
شمسية رقم (٨٩٠ تاريخ) .

ابن العديم : (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله)
زبدة الحلب في تاريخ حلب . جزءان . نشرها سامى الدهان .
دمشق ، ١٩٥١ .

ابن العبري : (غويغوريوس المطلبى)
تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٩٥٨ م .

- عريب بن سعد : (أقرطي)
صلة تاريخ الطبرى - ط . دى غوية . ليدن ، ١٨٩٧ م .
- ان العميد : (الشيخ المكين جرجس بن العميد)
تاريخ المسلمين - ١٩٢٥ م .
- العيني : (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى)
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان - مخطوط مصور بدار الكتب
المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ
- ابو الفدا : (أسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماء)
المختصر فى أخبار البشر . ٤ أجزاء القاهرة : ١٣٢٥ هـ .
- ابن القلانسي : (أبو يعلى حمزة)
ذيل تاريخ دمشق (مصحوب بمقتطفات من تواريخ الفسارقي
وسبط بن الجوزي والذهبي) بيروت ، ١٩٨٨ م .
- ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي)
البداية والنهاية - مطبعة السعادة - القاهرة .
- المتنبى : (أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفي)
ديوان المتنبى د نشره وشرحه عبد الرحمن البرقوقي . القاهرة ،
١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م .
- مجموعة الوثائق الفاطمية : المجلد الأول تحقيق ونشر جمال الدين الشيال -
ط . ثانية . القاهرة ، ١٩٦٥ .
- أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ط . دار الكتب
المصرية بالقاهرة - ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م .

المسعودى : (أبو المحسن على)

كتاب مروج الذهب ومعادن الجواهر . جزءان - القاهرة
١٣٦٤ هـ .

كتاب التنبيه والإشراف . ط . دى غوية - ليدن ، ١٨٩٧ م .

مسكويه : (أبو على أحمد بن محمد)

كتاب تجارب الأمم - جزءان . نشره هـ . ف . أميدروز
القاهرة ١٣٣٢ - ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ - ١٩١٥ م .

المقدسى : (شمس الدين أبو عبد الله محمد الشافعى المقدسى المعروف
بالبشارى) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم - ط . بريل ،
١٩٠٩ م .

المقرئى : (تقى الدين أحمد بن على)

أتعاض الخلفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، نشره وحققه جمال
الدين الشيال . القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .
المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - جزءان . ط .
مصر ١٣٢٤ هـ .

ابن ميسر : (محمد بن على بن يوسف)

تاريخ مصر - طبعة هنرى ماسيه . القاهرة ١٩١٩ .

ناصر خسرو :

سفرنامه - نقله إلى العربية وعلق عليه يحيى الخشاب . ط . أولى .

القاهرة ١٩٤٥ م .

ابن نباته : (أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل بن نباتة الفارقي)
ديوان خطب ابن نباته : ط . بيروت ١٣١١ هـ .

النعمان : (أبو حنيفة المغربي)
المجالس والمصايرات — ٣ أجزاء ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ،
رقم ٢٦٠٦٠ .

النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين النويرى)
نهاية الأرب فى فنون الأدب - مخطوط مصور بدار الكتب
المصرية رقم ٢٥٧٠ تاريخ .

هلال الصابى : (أبو الحسن بن أبى إسحق إبراهيم الكاتب)
تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء — نشره ه . ف . أندروز ،
بيروت ١٩٠٤ .

ياقوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى)
معجم البلدان — ط . بيروت .

يحيى بن سعيد الانطاكى :
صلة كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت ،
١٩٠٩ .

ثانيا

المراجع العربية الحديثة

ابراهيم أحمد العدوى :
الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية — القاهرة ، ١٩٥١ .
الامويون والبيزنطيون — القاهرة ، ١٩٦٣ .

أرنولد : (توماس)
الدعوة إلى الإسلام . عربية حسن إبراهيم حسن وآخرون .
القاهرة ، ١٩٤٧ .

أسد رستم :
الروم . جزآن . بيروت ، ١٩٥٥ - ١٩٥٦ .

السيد الباز العربي :
الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١ م) القاهرة ، ١٩٦٠ .

أومان :
الامبراطورية البيزنطية . ترجمة مصطفى طه بدر . القاهرة ١٩٦٠

بارتولد (ف)
تاريخ الحضارة الإسلامية . نقله إلى العربية حمزة طاهر . القاهرة
١٩٤٧ .

بروكلمان (كارل) :
الامبراطورية الإسلامية وانحلالها . نقله إلى العربية نبيه أمين
فارس ومنير البعلبكي . بيروت ١٩٤٩

بينز (نورمان) :
الامبراطورية البيزنطية . تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد .
القاهرة ، ١٩٥٠ .

جهال الدين الشيال :
أعلام الاسكندرية في العصر الإسلامي . القاهرة ، ١٩٦٥ .

جرو نيباوم (جوستاف فون) :

حضارة الإسلام . ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد . القاهرة

١٩٥٦ .

جوزيف نسيم يوسف :

العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى . الاسكندرية

١٩٦٣ .

حسن ابراهيم حسن :

تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . ٣ اجزاء

ط . سادسة القاهرة ، ١٩٦٢ .

تاريخ الدولة الفاطمية . ط . ثانية . القاهرة ، ١٩٥٨ .

المعز لدين الله الفاطمى (بالاشتراك مع طه أحمد شرف)

القاهرة ، ١٩٤٧ .

حسن الباشا :

الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار . القاهرة ، ١٩٥٧

حسن جبشى :

الحرب الصليبية الاولى . ط . ثانية : القاهرة ، ١٥٩٨

ديفنز (هـ . و .) :

أوروبا في العصور الوسطى . ترجمة عبد الحميد حمدي محمود .

الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

رنسيان (ستيفن) :

الخصارة البيزنطية ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكى
على . القاهرة ، ١٩٦١ .

رينو (بول) :

تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر
المتوسط : ترجمة شكيب أرسلان . القاهرة ، ١٣٥٢ .

سميد عبد الفتاح عاشور :

أوروبا العصور الوسطى - جزآن - ط . ثانية . القاهرة ، ١٩٦٢

الحركة الصليبية - جزآن . القاهرة ١٩٥٣ .

قبرس والحروب الصليبية . القاهرة ١٩٥٧ .

سيده اسماعيل كاشف :

مصر في عصر الأخشيدين . القاهرة ، ١٩٥٠

عبد المنعم ماجد :

التاريخ السياسى للدولة العربية ٣ أجزاء : القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٧

الحاكم بأمر الله . القاهرة ، ١٩٥٩ .

نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . جزآن . القاهرة ١٩٥٣ -

١٩٥٥ .

على ابراهيم حسن :

تاريخ جوهر العقلى . القاهرة ١٩٣٣ .

عمر كمال توفيق :

الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الاراضى المقدسة .
الاسكندرية ، ١٩٥٩ .

تاريخ الامبراطورية البيزنطية . لاسكندرية ، ١٩٦٧ .
مملكة بيت المقدس الصليبية . الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

مشر (ا . ل) :

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . جزآن . ترجمة محمد مصطفى
زيادة وآخرين . القاهرة ١٥٠ - ١٩٥٧ .

لانجر (وليام) :

موسوعة تاريخ ٣ أجزاء . أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة
القاهرة ١٩٩ - ١٩٦٢ .

محمد مصطفى زيادة

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة . القاهرة
١٩٦١ .

محمد جمال سرور :

النفاذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق . القاهرة ١٩٦١
مصر في عهد الدولة الفاطمية للفاطمية . القاهرة ١٩٦٠ .

محمد شديد :

الجهاد في الاسلام . القاهرة

مصطفى الشكعة :

سيف الدولة الحمداني . القاهرة ، ١٩٦٩ .

ثالثا

المصادر والمراجع غير العربية

- Anastasievitch. Die Zahl der Araberzüge des Tzimiscés, B.Z. XXX (1929) - 30, p. 400 - 05.
- Adam, P. Princesses byzantines. Paris, 1893.
- Adonz, N. « L'age et l'origine de l'empereur Basile I (867-86) », Byzantion, IX (1934), 223-60.
- Amari, M. Storia dei Musulmani di Sicilia. Vol. I - III. Florence, 1851 - 27. Ed. Nallino, C.A. Vols I - III Catania, 1933-37.
- Andreadés, A. « De la population de Constantinople sous les empereurs Byzantins », Metron 1 (1920)
- Atiya, A. S. The Crusade in the Later Middle Ages. London 1938.
- Bach, E. « Lois agraires byzantines du Xe siècle », Classica et Medievalia, V (1942), 70 - 91.
- Barthold, V. The Transactions of Oriental College. I (1925).
- Baynes, N.H. « Byzantine Civilization » History X (1926) 29-99.
—— The Byzantine Empire. New-York & London, 1926.
- Becker, C. « The Expansion of the Saracens the East », C. M. H., II (1913), 329 - 64.
- Bikelas, D. La Grece byzantine et Moderne. Paris: 1893.
—— Seven Essays on Christian Greece Trans. John, Marquess of Bute. London, 1890.
- Bratianu, G. I. Etudes byzantines d'histoire économiques et sociale. Paris, 1938.
- Bréhier, L. L'Eglise et l'Orient au moyen age, les Croisades. Paris 5th ed., 1928.
—— « The Greek Church: Its Relations with the West up to 1054 », C. M. H., IV (1923) 246-73.
—— Le Monde byzantine — 3 volumes. Paris, 1947-50.

- Brooks, E.W. « The Arab Occupation of Crete », The English Historical Review, XXVII (1913) 431 - 43.
- « Arabic Lists of the Byzantine Themes », Journal of Hellenic Studies, XXI (1901), 67-77.
- « Byzantine & Arabs in the Time of the Early Abbasids », The English Historical Review, XV (1900) 728-37.
- « The Campaign of 716-18, from Arabic Sources », Journal of Hellenic Studies, XIX (1899) 19-31.
- Brown, H.F. « The Venetians and Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century », Journal of Hellenic Studies, XL (1920) 68-88
- Buckler, G. Anna Commena: Oxford, 1929.
- Bury J.B. The Constitution of the Later Roman Empire. Cambridge, 1910.
- A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I. (802-67). London, 1912
- The Imperial Administrative System in the Ninth Century. London, 1911.
- « The Struggle with the Saracens; Summary » C. M. H. IV (1932), 151-52.
- Byzantium. An Introduction to East Roman Civilization. Ed. Baynes N. H. & Moss, L.B. Oxford, 1933.
- Cahen, C. « Andath »; The Encyclopaedia of Islam. New ed. Vol. I, p. 256.
- « La Campagne de Manzikert d'après les sources musulmanes ». Byzantion, IV (1934), 613-42.
- « La première pénétration turque en Asie Mineure (seconde moitié du XIe siècle) » Byzantion, XVIII (1948), 5 - 67.
- La Syrie du Nord à l'époque des Croisades. Paris, 1940.
- Canard, C. « La date des expéditions mésopotamiennes de Jean Tzimiscès », Mélanges Gregoire II (1950).
- « Les Expéditions des Arabes contre Constantinople

- dans l'histoire et dans la légende », *Journal asiatique*, CCVIII (1924), 61 - 121.
- « La Guerre sainte dans le monde islamique et dans le monde chrétien », *Revue africaine*, LXXIX (1936), 105 - 23.
- Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie. T. I. Paris, 1953.
- Sayf al Daula. (Bibliotheca Arabica, publiée par la Faculté des Lettres d'Alger, VIII). Algiers 1934.
- Cedrenus, G. *Historiarum compendium*. Ed. Bekker, J. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae). Bonn 1838
- Chalandon, F. *Les Comnènes* — 2 vols. Paris, 1900 - 12.
- « The Earlier Comneni », *C. M. H.*, IV (1923) 318-50.
- Histoire de la première croisade, Paris, 1925.
- Charanis, P. « Byzantium, the West and the Origin of the First Crusade, » *Byzantion* (1949), 17 - 37.
- « Chronique de Matthieu d'Edesse », *Recueil des Historiens des Croisades. Documents arméniens*, vol.
- Chronique de Michel le Syrien. Trans. Chaboi, J.B. Vols. I- III.— Paris, 1899 - 1910.
- Comnena, Anna. *The Alexiad*. Trans. Dawes E. A. S. London, 1928.
- Crump, C. & Jacob. E. (Eds.) *The Legacy of the Middle Ages*.— Oxford, 1926.
- The Damascus Chronicle of the Crusades. Extracted & trans. from the chronicle of Ibn al-Qalanisi* - Gibb, H. A. R. London, 1932.
- Diehl, C. *Byzance. Grandeur et décadence*. Paris, 1920.
- « Byzantine Civilization » *C. M. H.*, IV (1923), 745-77.
- *Figures byzantines*. 4th ed., Paris, 1909.
- *History of the Byzantine Empire*. — Eng. trans. Ives, G. New York, 1915.
- & Marcais, G. *Le Monde oriental de 395 à 1018*. Paris, 1936.

- « L'Origine du regime des thèmes dans l'empire byzantin », *Etudes byzantines* Paris, 1905.
- Dölger, F. Chronologie des gr. Feldzuges des Joh. Tzimiskes gegen die Russen, *BZ*, XXXII, 275 - 292.
- Dussaud, R. *Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale* Paris, 1927.
- Dvornik, F. *The Making of Central and Eastern Europe*. London. 1949.
- Finlay, G. *History of the Byzantine Empire from DCXIV to MLVII* — 2nd ed., London, 1856.
- *A History of Greece*. Ed. Tozer, H.F. Oxford, 1877.
- Gibb, H.A.R. *Mohammedanism*, London, 1951.
- Gibbon, F. *The History of the Decline & Fall of the Roman Empire*. Ed. Bury. J. B. 7 vols. London, 1870 - 1902.
- Grousset, R. *L'Empire du Levant. Histoire de la question d'Orient*. Paris, 1949.
- *Histoire de l'Arménie des origines à 1071*. Paris. 1947.
- *Histoire des Croisades*, 3 vols. Paris, 1934 - 36.
- Grunebaum, von G.F. *Medieval Islam*. Chicago, 1946.
- Heyd, W. *Histoire du commerce du Levant au Moyen Age*. Leipzig, 1885. Reprint. 1936.
- Heer, F. *The Medieval World. Europe from 1100 to 1350*. trans. from German by Sondheimer. London, 1952.
- Hill, G.A. *A History of Cyprus*. 3 vols. Cambridge, 1948.
- Histoire de l'église depuis les origines jusqu'à nos jours*. Ed. Flèche, A. & Martin, V. Paris 1936.
- Hitti, P. *History of the Arabs*. — 3rd ed. London, 1946.
- Hussey, J. *The Byzantine World*. London. 1955.
- Kugler, B. *Geschichte der Kreuzzüge*. 2nd ed. Berlin 1891.
- La Monte J.L. « To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Latin Crusading States ? » *Byzantion* VII (1932), 253-64.

- The World of the Middle Ages. New-York, 1949.
- Laurent, J. L'Arménie entre Byzance et l'Islam depuis la conquête arabe jusqu'en 886. (Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome, CXVII). Paris, 1919.
- Byzance et les Turcs Seljoucides dans l'Asie occidentale jusqu'en 1081. (Annales de l'Est publiées par la Faculté des Lettres de l'Université de Nancy, XXVII - XXVIII). Paris, 1913 - 14.
- « Byzance et l'origine du Sultanat de Roum, » Mélanges Charles Diehl » : Etudes sur l'histoire et l'art de Byzance. Paris, 1930.
- Leo the Deacon. Historia. Ed. Hasius, C. B. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae). Bonn, 1828.
- Le Strange, G. The Lands of the Eastern Caliphate. London, 1930.
- Palestine Under the Muslims. London, 1896
- Lewis, A. R. Naval Power & Trade in the Mediterranean A. D. 500 - 1100. Princeton, 1951.
- Lewis, B. The Origin of Ismailism, Cambridge, 1940.
- Loewe, H. M. « The Saljugs », C. M. H., IV (1923) 299-317, 836
- Nickles, H. G. « The Continuatio Theophrasti », transactions of the American Philological Association, LXVIII (1937), 221 - 27.
- Oman, C. A History of the Art of War in the Middle Ages. 2nd ed. London, 1924.
- Ostrogorsky, G. History of the Byzantine State. Eng. trans. Hussey, J. Oxford, 1956.
- Rambaud, A. L'Empire grec au dixième siècle. Constantin Porphyrogénète. Paris. 1870.
- Ramsay, W.M. « The War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor ». Contemporary Review, XC (1905), 1 - 15.

Rosenthal, E. I. J. Political Thought in Medieval Islam.
Cambridge, 1958.

Runciman, S. Byzantine Civilization. London, 1936.

———— A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1951-55.

———— The Emperor Romanus Lecapenus & His Reign. A Study
of Tenth Century Byzantium. Cambridge, 1929.

———— A History of the First Bulgarian Empire London, 1930.

Schlumberger, G. Byzance et Croisades. Paris, 1927.

———— Un Empereur byzantin au dixième siècle. Nicephore
Phocas. Paris, 1890.

———— L'Epopée byzantine a la fin du dixième siècle. 3 vols
Paris, 1896-1905.

Setton, K. & Baldwin W. A History of the Crusades. Vol. I,
Philadelphia, 1958.

Taeschner, Fr. « Ayyar » The Encyclopaedia of Islam. New ed.
Vol. I. p. 794.

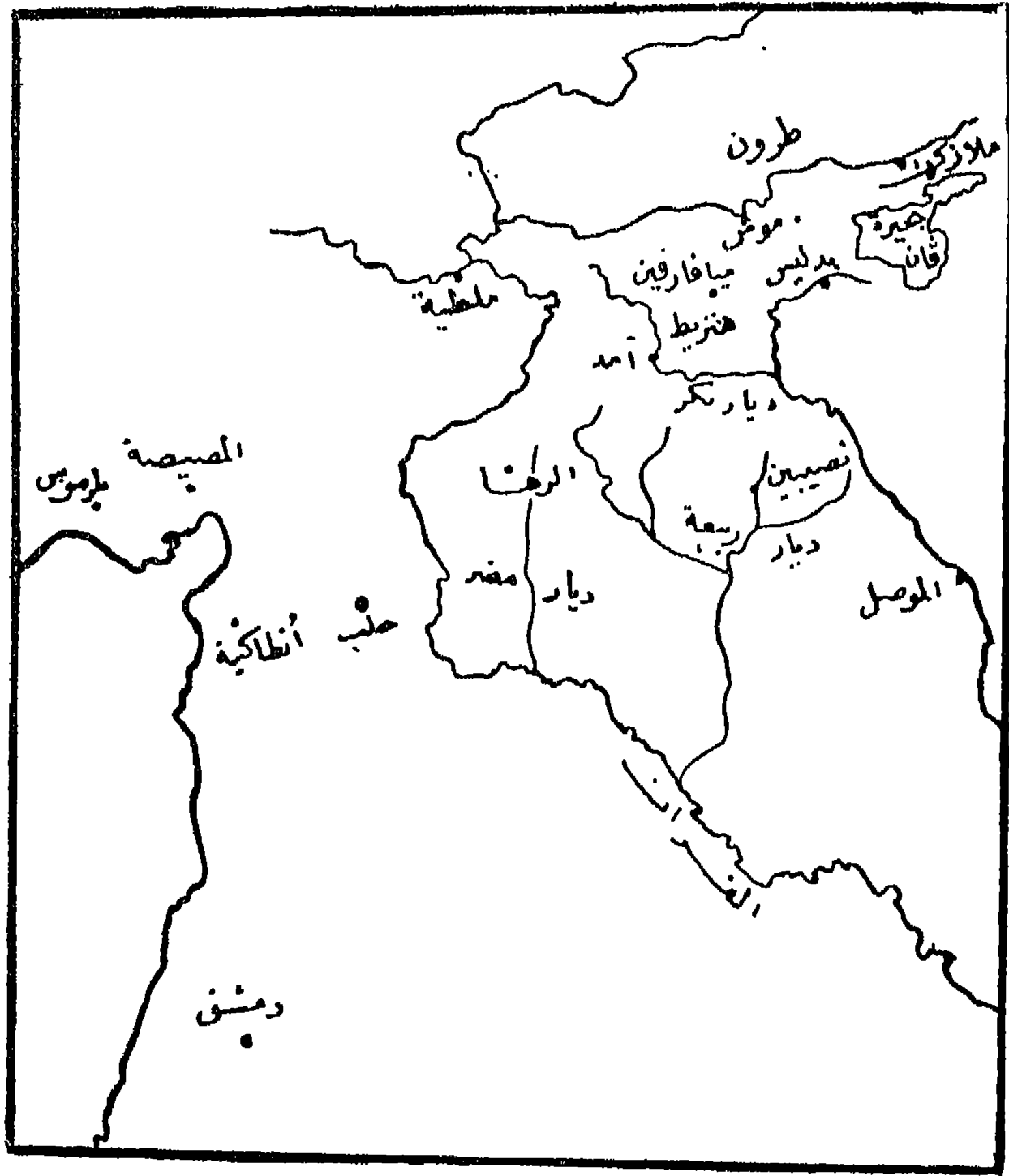
Thompson, J. W. An Economic & Social History of the Middle
Ages. New York & London, 1928.

Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. Madison, 1952.

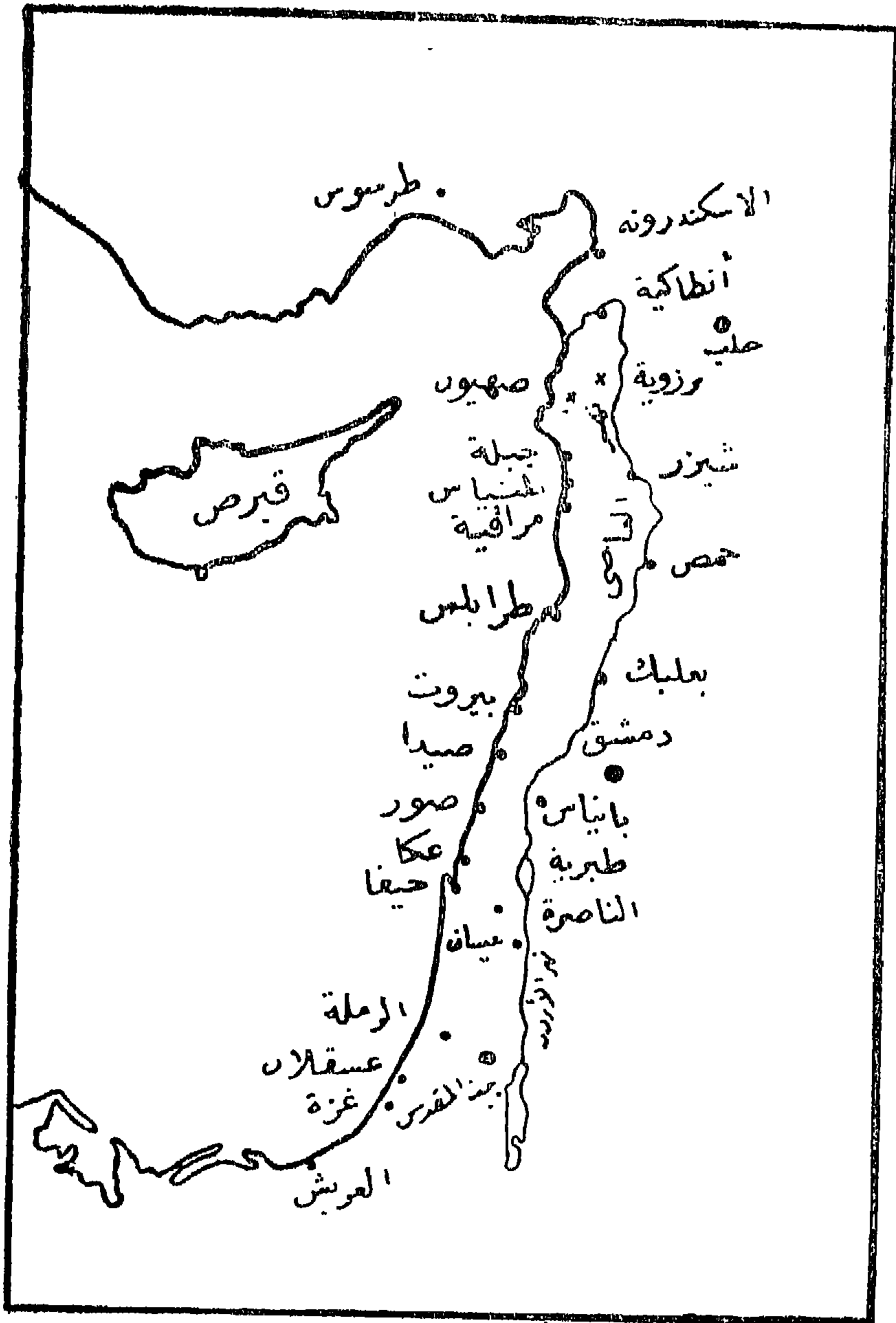
William of Tyre. A History of Deeds Done Beyond the Sea.
Eng. trans. Babcock, E. A. & Krey, A. C. 2 vols. New
York, 1946.

Villey, N. La Croisade: Essai sur la formation d'une théorie
juridique. Paris, 1942.

Yewdale, R.B. Bohemond I, Prince of Antioch. Princeton, 1924.



حملات تريمسكس على العراق



حملة تريمسكي على الشام

تصويب

جازت على المؤلف أثناء مراجعة الكتاب بضعة أخطاء مطبعية معظمها لا ينجى على القارئ وسوف نشير هنا إلى أهمها :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٣	٧	Caballari	Clisura
١٣	١٤	Caballri	Caballari
٨٣	١٥	الفاطمين	الفاطمين
٩٣	١٠	حلا	خلا

وزارة الشرق الأوسط والطباعة والنشر
الرياض - ٢٠١٧

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف - ١١١٩ كورليش النيل
فرع الاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشأة)